مختارات موجزة من الأدب العربي

عالم الجن و الغيلان في الأدب العربي القديم

موجز كنز الكتاب ومنتخب الآداب

موجز مصارع العشاق

موجز حسن المحاضرة في أخبار ملوك مصر و القاهرة للعلامة جلال الدين السيوطي



د.عمار شرقية

بسم الله الرحمن الرحيم

عالم الجن و الغيلان في الأدب العربي القديم

موجز مصارع العشاق

جعفر بن أحمد بن الحسين السراج القاري البغدادي، أبو محمد (المتوفى: 500هـ

موجز كنز الكتاب ومنتخب الآداب

أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الحسن الفهري المعروف بالبونسي (651هـ

موجز حسن المحاضرة في أخبار ملوك مصر و القاهرة للعلامة جلال الدين السيوطي

موجز مصارع العشاق

جعفر بن أحمد بن الحسين السراج القاري البغدادي، أبو محمد (المتوفى: 500هـ

د.عمار شرقية

عالم الجن و الغيلان في الأدب العربي القديم

موجز مصارع العشاق

جعفر بن أحمد بن الحسين السراج القاري البغدادي، أبو محمد (المتوفى: 500هـ

موجز كنز الكتاب ومنتخب الآداب

أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الحسن الفهري المعروف بالبونسي (651هـ

موجز حسن المحاضرة في أخبار ملوك مصر و القاهرة للعلامة جلال الدين السيوطي

موجز مصارع العشاق

جعفر بن أحمد بن الحسين السراج القاري البغدادي، أبو محمد (المتوفى: 500هـ

عالم الجن و الغيلان في الأدب العربي القديم

بين رسالة التوابع و الزوابع و بين رسالة الغفران

عندما يذكر عالم الجن في الأدب العربي فلابد أن تُذكر رسالة التوابع و الزوابع لابن شهيد الأشجعي و

هذه الرسالة تشبه إلى حد ما رسالة الغفران التي كتبها المعري في المشرق العربي ، وبالرغم من

أن رسالة الغفران قد نالت من الشهرة في الشرق و الغرب حظاً لم تنله رسالة التوابع و الزوابع فإن هنالك من

يرى بأن المعري قد استوحى رسالته من رسالة التوابع و الزوابع أو أنه قد تأثر بها على أقل تقدير و خصوصاً

أن مؤلفات الأندلس و المغرب العربي كانت تصل خلال أشهر قليلة إلى المشرق العربي في ذلك العصر ، كما

أن بعض المستشرقين يشيرون على استحياء إلى الشبه بين رسالة التوابع و الزوابع و بين روايات كانتربيري

للكاتب الإنكليزي شاوسار ، وهو كما يرى البعض أول من كتب عملاً أدبياً باللغة الإنكليزية 0

ورسالة التوابع و الزوابع لم تصلنا كاملة فكل ما نعرفه منها و صلنا عبر مصدرين الأول هو الذخيرة في

محاسن أهل الجزيرة لابن بسام و المصدر الثاني هو يتيمة الدهر للثعالبي و ابن شهيد هو من بني شهيد

الذين عاشوا في قرطبة في الأندلس ومن مؤلفاته حانوت العطار و كشف الدك و إيضاح الشك .

لقد تناولت رسالة التوابع و الزوابع من بين المواضيع التي تناولتها موضوع قيام الجن بإيحاء الأدب للإنس وهو

موضوع شائع في الأدب العربي فقد "كان كثير من شعراء العرب

يدعي أن له شيطاناً يعلمه الشعر و منهم الفرزدق كما يكنى شيطانه أبا لبينى و ذكر أنه ذهب إلى جبل فناداه

فجاء مثل الذباب فدخل في حلقه فقال قصيدته التي أولها : عزفت بأعشاش و ما كنت تعزف "(ديوان المعاني)

و قد قال في هذا أحد الشعراء:

إني و إن كنت صغيراً سني فإن شيطاني كبير الجن

و تتحدث رسالة ابن شجيع كذلك عن رحلة ابن شجيع مع تابعته إلى بلاد الجن حيث يلتقي هناك مع توابع كبار

الشعراء و الكتاب و بذلك فإن ابن شهيد يجسد لنا في هذه الرسالة الإعتقاد السائد بأن لكل إنسان تابعةً من الجن

أو قرين و بأن هذا القرين يصاحب الإنسان طيلة حياته ثم يبقى حياً بعد موته ، كما أن هذه الرسالة تتطرق

كذلك إلى موضوع الاجازة حيث يتحدى ابن شهيد في رسالته هذه توابع كبار الشعراء و الكتاب و يحصل منهم على

الاجازة مثبتاً بذلك أن الأدب موهبة إلهية قبل أي شيء آخر0

وهكذا فإن ابن شهيد يستفتح رسالته هذه بإخبار صديقه " أبي بكر يحيى بن حزم " (الذي وجهت إليه الرسالة)

عن أول لقاء له مع تابعته وذلك عندما كان يحاول عبثاً أن يكمل بيتاً من الشعر قائلاً " فارتج علي القول

و أُفحمت فإذا أنا بفارس بباب المجلس و قد اتكأ على رمحه وصاح بي أعجزاً يا فتى الإنس ؟ قلت لا و أبيك

للكلام أحيان و هذا شأن الإنسان فأكمل البيت الأول الذي قلته و عجزت عن إكماله فأثبت اجازته و قلت بأبي

أنت ! من أنت قال زهير بن نمير من أشجع الجن فقلت و ما الذي حداك إلى التصور لي ؟ فقال هوىً

فيك ورغبة في اصطفاؤك فقلت: حيناً ، قال متى شئت استحضاري فأنشد هذه الأبيات 000 وكنت أبا بكر متى

"أربج علي و انقطع بي مسلك أو خانني أسلوب أنشد الأبيات فيمثل لي صاحبي 0

وبعد أن توطدت العلاقة بين ابن شهيد و بين تابعته " زهير بن نمير " يطلب ابن شهيد منه أن يحمله إلى

أرض الجن ليقابل توابع كبار الأدباء فيحدثنا عن رحلته على حصان تابعته قائلاً :" فصرنا عليه و سار بنا

يجاب الجو فالجو و يقطع الدو فالدو حتى ألمحت أرضاً لا كأرضنا و شارفت جواً لا كجونا متفرع الشجر
عطر

" الزهر فقال لي حللت أرض الجن أبا عامر فبمن تريد أن نبدأ؟

و يبدأ ابن شهيد بالتعرف على تابعة امرؤ القيس ثم شيطان طرفة كما يروي لنا ما جرى بينه و بين شيطان
" قيس

بن الخطيم" قائلاً: " فقال لي أنشدنا يا أشجعي و أقسم أنك إن لم تُجد ليكونن يوم شر فأنشدته قولي فلما
انتهيت

تبسم و قال لنعم ما تخلصت اذهب فقد اجزتك 0" ثم يلتقي ابن شهيد بتابعة ابي تمام و بتابعة البحتري و ما
يزال

يقرأ شعره عليهم و يجيزونه إلى أن يصل إلى تابعة أبي النواس (أبا الإحسان) حيث يخبرنا عما دار بينهما

قائلاً: " ثم صاح زهير حياك الله أبا الإحسان ! فجاوب بجواب لا يعقل لغلبة الخمر عليه فقال لي زهير
إقرع

أدب نشوته بإحدى خمرياتك فإنه ربما تنبه لبعض ذلك فأنشدته فصاح من حبائل نشوته (أأشجعي؟) قلت أنا

ذلك فاستدعى ماءً قراحاً فشرب منه و غسل و جهه فأفاق 000 ثم قال هذا و الله شيء لن نلهمه نحن ثم
استدعاني

"فدنوت منه فقبل بين عيني و قال اذهب فإنك مجاز 0

ثم يفرد ابن شهيد الفصل الثاني للحديث عن توابع الكتاب و الخطباء فيحدثنا عن لقائه بأنف الناقة و هو
تابعة

الإفليلي" حيث تتبدى العدائية المتبادلة بينهما فعندما يُسألُ أنف الناقة " ما قولك فيه يا أنف الناقة ؟ قال "
فتىً لم

أعرف على من قرأ 000 فقلتُ و أنا أيضاً لا أعرف على من قرأتَ 0 قال ألمثلي يقال هذا ؟" ولعل ابن
شهيد قد اتخذ

من أنف الناقة نموذجاً للأشخاص الذين لايهمهم ماذاتقول أو ماذا يمكنك أن تفعل بقدر ما يهمهم من أنت و
من تكون

و على كل حال فإن ابن شهيد سرعان ما يلقى تقديراً يناسب إمكانياته وذلك عندما يلتقي بتابعة الجاحظ و
تابعة عبد الحميد

ويحدثنا عن ذلك قائلاً " ثم قال لي الأستاذان إنا لنخبط منك بيداء حيرة وتفتقُ اسماعنا منك بعبرة وما ندري
أنقول شاعر

أم خطيب فقلتُ الإنصاف أولى و الصدع بالحق أحجى و لابد من قضاء ، فقالا اذهب فإنك شاعرُ خطيب و انفض

"الجمعُ و الأبصار إلي ناظرة، و الأعناقُ نحوي مائلة 0

ولعل أكثر الفصول طرافةً في هذه الرسالة هو فصل " حيوان الجن" حيث يتكلم ابن شهيد فيه عن حيوانات الجن و

ميولها الأدبية فيحدثنا عن لقائه بالأوزة الأدبية ولقائه كذلك بمجموعة من حُمُر الجن و بغالهم كانت على خلاف أدبي

قائلاً: " فلما أبصرت بنا أجفلت إلينا و هي تقول جاءكم على رجليه فارتعت لذلك فتبسم زهير و قد عرف القصد

وقال لي تهيأ للحكم فقلتُ ما الخطب فأجابته أتان : شعران لحمار و بغل من عشاقنا أُخلفنا فيها و قد "رضيناك حكماً0

وهنا يلمح ابن شهيد ساخراً إلى أنه كان من الأجدر أن يفصل أنف الناقة في هذا الخلاف الأدبي0

ثم يتعرف ابن شهيد على إحدى تلك الحيوانات أو با لأصح على تابعة بغلة كان يعرفها " وقالت لي البغلة : أما

تعرفني يا أبا عمر ؟ قلت لو كان ثمة علامة ! فأماطت لثامها فإذا هي بغلة أبي عيسى و الخال على خدها ، فباكينا

طويلاً و أخذنا في ذكر أيامنا ، فقالت : ما أبقيت منك ؟ قلت : ما ترين . قالت شب عمرو عن الطوق ! فما فعل

الأحبة بعدي ، أهم على العهد ؟ قلت شب الغلمان و شاخ الفتيان و تنكرت الخلان ومن إخوانك من بلغ الإمارة

وانتهى إلى الوزارة فتنفست الصعداء ، وقالت : سقاهم الله سبل العهد و إن حالوا عن العهد ، و نسوا أيام الود بحرمة

الأدب الا ما أقرائتهم مني السلام، قلت : كما تأمرين و أكثر.

أما لقاء ابن شهيد بالأوزة الأدبية فقد كان آخر الجزاء الرسالة كما نعرفها و هذا اللقاء يشبه لقاء ابن شهيد الأندلسي

بأنف الناقة ، تابعة الإفليلي و هذا جزء مما دار بينهما من حديث " فقلت أيتها الأوزة الجميلة أيحسن بجمالك مقابلة

الضيف بمثل هذا الكلام و تلقي الطارئ الغريب بمثل هذا المقال ؟ فداخلها العجب من كلامي فقالت أيها الغر

المغرور كيف تحكم في الفروع و أنت لا تحكم الأصول ؟ ماالذي تحسن ؟ فقلت ارتجال الشعر و اقتضاب خطبة

قالت : ليس في عن هذا أسألك ، قلت ولا بغير هذا أجاوبك ، قالت حكم الجواب أن يقع على أصل السؤال

و انما أردت بذلك إحسان النحو و الغريب اللذين هما أصل الكلام و مادة البيان ، قلت لا جواب عندي غير

ما سمعت ."

وبخلاف رسالة التوابع و الزوابع التي تتحدث عن لقاء الأنس بالجن في معظم أجزائها فإن المعري قد أفرد فصلاً واحداً

فقط من رسالته ليحدثنا عن هذا الأمر و هو فصل " آداب الجن " حيث يتناول هذا الفصل لقاء الشاعر المتوفى مع

أحد شعراء الجن في الدار الآخرة و عموماً فإن رسالة الغفران تتحدث في معظم أجزائها عن لقاء شاعرنا المتوفى مع أسلافه

من الشعراء في الفردوس وذلك بعد أن غُفر لهم و أُدخلوا الفردوس ومن هنا جاءت تسمية هذه الرسالة برسالة الغفران ،

وفي فصل " آداب الجن " و هو الفصل الذي يعنينا من هذه الرسالة يطلب الشاعر الإنسي من شاعر الجن أن يخبره

عن أشعارهم فيقوم شاعر الجن بمقارنة أشعارهم مع أشعار الإنس قائلاً : " وهل يعرف البشر عن النظم إلا كما تعرف

البقرُ من علم الهيئة و مساحة الأرض ؟ و إنما لهم خمسة عشر جنساً من الموزون قلما يعدوها القائلون و إن لنا لآلاف

أوزان ما سمع بها الإنس000 فحمله الرغبة في الأدب أن يقول لذلك الشيخ أفمل علي من تلك الأشعار ؟ فيقول الشيخ

فإن شئت أملك مالا تسقه الركاب ولا تسعه صحف دنياك 0" ثم يقول له : " يا أبا هدرش مالي أراك أشيب و أهل الجنة

شباب ؟ فيقول : إن الإنس أكرموا بذلك و أُحرمناه ، لأنا أُعطينا الحولة في الدار الماضية فكان أحدنا إن شاء صار

حيةً رقشاء و إن شاء صار عصفوراً فمنعنا التصور في الدار الآخرة و تركنا على خلقنا لا نتغير و عوض بنو آدم

كونهم فيما حسن من الصور 0" ثم يسأله عن لغات الجن قائلاً : " فكيف السنتكم ؟ أيكون فيكم عرب لا يفهمون عن

الروم و روم لا يفهمون عن العرب كما نجد في أجيال الإنس ؟ فيقول : هيهات هيهات أيها المرحوم إنا أهل ذكاء و

"فطنة و لابد لأحدنا أن يكون عارفاً بجميع الألسن الإنسية و لنا بعد ذلك لسان لا يعرفه الإنس0

النسناس و السعلاة وأشباههما

ميز العرب بين الجن و الغيلان و صنفوهما بدقة متناهية إلى أنواع مختلفة و هو التصنيف الذي نجده واضحاً في

كلام " وهب بن منبه " عندما سُئل عن ذلك حيثُ أجاب : " هم أجناس ، فأما الصميم الخالص من الجن فإنهم ريح

لا يأكلون ولا يشربون و لا ينامون في الدنيا و لا يتوالدون و منهم أجناس يأكلون و يشربون و يتناكحون وهم السعالي

و الغيلان و القطارب و أشباه ذلك 0" و هذه التصنيفات نجدها مرتبةً بشكل معجمي في معجم " حياة الحيوان الكبرى"

للدميري و في غيرها من الكتب و المعاجم حيث نجد عن تلك الكائنات قصصاً عجيبة فقد جاء في ذكر " النسناس "

مثلاً في " مروج الذهب " أنه " حيوان كالإنسان يخرج من الماء و يتكلم و متى ظفر بالإنسان قتله 0 " وذكر القزويني

أنه " أمة من الأمم لكل واحد منهم نصف بدن و نصف رأس و يد و رجل كأنه إنسان شق نصفين يقفز على رجل واحدة

قفزاً شديداً و يعدو عدواً شديدً منكراً و يوجد في جزائر بحر الصين 0" و قال الميداني " إن الناس كانوا يأكلون النسناس

وهم قوم لكل واحد منهم يد و رجل ونصف رأس و نصف بدن يقال أنهم من نسل آرم بن سام أخي عاد و ثمود ، ليست

لهم عقول يعيشون في الآجام على ساحل بحر الهند والعرب يصطادونهم و يأكلونهم و هم يتكلمون بالعربية و يتناسلون

و يتسمون بأسماء العرب و يقولون الأشعار0" و جاء في " المستطرف " أن بجزيرة النسناس في اليمن مدينة بين

جبلين و ليس لها ماء إلا من مطر 000 و إذا أراد إنسان الدخول فيها حثى وجهه التراب فإن أبى إلا الدخول خُنق أو

صُرع و قيل أنها معمورة بالجان أو بخلق من النسناس و يقال أنهم من بقايا عاد الذين أهلكهم الله بالريح العقيم و كلُ

واحد منهم شق إنسان ونقل عن بعض المسافرين أنه قال بينما نحن سائرون إذ أقبل علينا الليل فبتنا بواد فلما أصبح

الصبح سمعنا قائلاً يقولُ من الشجرة يا أبا بجير الصبح قد أسفر و الليل قد أدبر و القناص قد حضر فالحذر الحذر ثم

سمعت صوتاً يقول ناشدتك قال فقلت لرفيقي دعهما قال فلما و ثقا بنا نزلا هاربين فتبعهما الكلبان و جدا في الجري

فأمسكا شخصاً منهما قال أدركناه و هو يقول :

الويل لي مما به دهاني دهري من الهموم و الأحزان

قال فأخذناه و رجعنا فذبحه رفيقي و شواه فعفته و لم آكل منه شيئاً 0" كما جاء في " العمدة في محاسن الشعر " لابن

رشيق القيرواني " أن ذو الأذعار قد سمي بذلك لقوم سباهم منكري الوجوه تزعم العرب أنهم النسناس 0" كما يزعم ابن

"الكلبي " أن ذا الأذعار سمي كذلك لأنه جلب النسناس إلى اليمن فذعر الناس منه 0

و يطالعنا في كتب الأدب كائن آخر وهو السعلاة وهي حسب " الروض الآنف " ماتراءى بالنهار من الجن و قد قال

السهيلي عنها أنها " حيوان يتراءى للناس بالنهار و يغول بالليل و أكثر ما يوجد بالغياض و إذا انفردت السعلاة بإنسان

و أمسكته صارت ترقصه و تلعب به كما يلعب القط بالفأر قال: و ربما صادها الذئب و أكلها وهي حينئذ ترفع صوتها

و تقول أدركوني فقد أخذني الذئب و ربما قالت من ينقذني منه و له ألف دينار ، و أهل تلك الناحية يعرفون ذلك فلا

يلتفتون إلى كلامها 0" و ذُكر في خزانة الأدب " أن السعلاة قد لقيت حسان بن ثابت في بعض طرقات مكة وهو

غلام قبل أن يقول الشعر فبركت على صدره و قالت أنت الذي يرجو قومك أن تكون شاعرهم ؟ قال نعم قالت فأنشدني

"ثلاثة أبيات على روي واحد و إلا قتلتك 0

كما أتى في رسالة " الصاهل و الشاحج أن العرب قد زعمت أن عمرو بن يربوع بن حنظلة قد تزوج السعلاة فولدت

له أولاداً و أن أهلها قالوا له إنك ستجدها خير إمرأة مالم تر برقاً فكان عمرو إذا رأى برقاً أسبل على السعلاة السور

فغفل يوماً عنها ولاح البرق فقالت :

أمسك بنيك عمرو إني آبق برق على أرض السعالي آلق

وذهبت فكان آخر عهده بها " أما أولاد عمرو فهم يعرفون ببني السعلاة وفيهم قال الراجز:

يا قبح الله بني السعلاة عمرو بن يربوع شرار الناس

وقد قال الجاحظ " أن عمرو بن يربوع كان متولداً عن السعلاة و الإنسان قال ومن هذا الضرب كانت بلقيس ملكة سبأ

و كذلك كان ذو القرنين " و جاء في الروض المعطار في خبر الأقطار " أن جزيرة السعالي بقرب البحر المظلم الغربي

فيها خلق كالنساء و لهم أنياب بادية و عيونهم كالبرق و سوقهم كالخُشب المحترقة يتكلمون بكلام لا يفهم 0" وثمة كائن

آخر من هذا القبيل وهو القطرب و قد ذكره الأبشيهي في المستطرف على أنه " نوع من الأشخاص المشيطنة يظهر

في اليمن و صعيد مصر و إذا رآه الإنسان وقع مغشياً عليه و منهم من يظهر له فلا يكترث به لشهامته و ثبات قلبه 0"

أما الهواتف فقد أتى ذكرها في كتب الأدب على أنها " كائنات تهتف بصوت مسموع و جسم غير مرئي 0"

مما جاء في حياة الجن و علاقتهم بالإنسان :

مما جاء في " محاضرات الأدباء" عن مقدرة الجن على التحول " أن الجن تتصور بأي صورة تشاء إلا الغول فإنها

تتصور في صورة إمرأة إلا رجليها فإنهما لابد و أن يكونا رجلي حمار 0" و مما ذكر عن قتل الجن للإنس و قتل الإنس

للجن " أن الجن قتلت حرب بن أُمية و قتلت سعد بن عبادة و فيه قالت الجن :

قد قتلنا سيد الخزر رج سعد بن عبادة

ورميناه بسهمين فلم نخط فؤاده

وروي كذلك أن تأبط شراً قتل غولاً و عاد إلى قومه وقد تأبط رأسه فقيل تأبط شراً و ذكر كذلك عن استجارة الإنس

بالجن أنه كانت العرب إذا صار أحدهم في تيه من الأرض و خاف الجن يقول " أنا مستجير بسيد هذا الوادي" 000

أما مساكن الجن فقد زعمت العرب أن الله تعالى لما أهلك الأمة السابقة كما أهلك عاداً و ثموداً سكنت الجن منازلهم

و حمتها من كل من أرادها فإن دنا منها إنسان حثوا في وجهه التراب فإن أبى خبلوه 000 و نسب كثير من الناس

أبنيةً بعينها إلى الجن 0" و ذكر ابن عبد الله القرطبي " أن العرب تزعم أن الغيلان توقد النيران بالليل للعب و التخييل

"و إضلال أبناء السبيل0

موجز كنز الكتاب ومنتخب الآداب

أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الحسن الفهري المعروف بالبونسي (651هـ)

الحمد لله المحمود في كل أوان، المسبح بكل لسان، الكائن قبل الأمكنة، والموجود في عدم الأزمنة، الدائم الذي لا يلحقه الفوت، والقيوم الذي قهر عباده بالموت، القادر الذي انقاد كل شي لأمره، والجواد الذي نطقت الألسنة بشكره. مبدع السمع والأبصار، ومكور الليل على النهار، المنفرد بالإحسان والفضل، والحاكم بين العباد بالعدل، جل عن المثل والنديد، وتعالى عن التكييف والتحديد. زين بالمصابيح السماء المبنية، وقدر الأقوات في الأرض المدحوة، يبسط النعم لعباده ترفيها وإنعاما، ويقدرها إذا شاء تنبيها وإلهاما. هدانا بمنهج الرشد بتوفيقه فسلكناه، ونهانا عن سبيل الغي بلطفه فتركناه، أشاد مثوى البلاغة في أجنتنا، وحلى بالفصاحة عذبات ألسنتنا، وتمم نعمته على عباده

.تتميما، وعلمنا ما لم نكن نعلم، وكان فضله علينا عظيما

نحمده حمدا يملأ الأفواه والصدور، ويفوق حمد كل حامد وشكور، نستنزل به الرحمة التي وسعت كل شيء، ونستكشف الغمة عن كل ميت وحي، ونستوجب
به المزيد من نعمه، والعصمة من نقمه،
ونشكره شكرا يحظينا لديه، ويقربنا زلفى إليه، ونسأله النجاة من غواية الشيطان، والتجاوز عن سيئاتنا والغفران.

ونصلي على سيدنا محمد نبيه ورسوله المصطفى، وصفيه أكرم الأنبياء وسائل، وأعظمهم فضائل، المبعوث لخير الأمم، بالمعجزات والحكم، خير من افتتحت بذكره الدعوات، واستنجحت بالصلاة عليه الطلبات، المرسول لأهل الإسلام قمرا منيرا، ولأهل والضلال قدرا مبيرا، أزكى الأنام عودا ونجارا، وأعلاهم منصبا وفخارا. بعثه الله والآفاق بدياجي الكفر مظلمة، ورايات الباطل منجدة ومتهمة، فنسخ الملل، وأوضح السبل، ونقل الناس عن عبادة الأوثان، إلى عبادة الرحمن، وصدع بالرسالة، وبالغ في الدلالة، وجلا غياهب الضلال والردى، وأحيا القلوب بنور الإيمان والهدى، ودمغ الباطل بالحق، وحض على الإيمان والصدق، فآمن به المرشدون وكفر به الملحدون، فالمؤمنون ربحوا وأمروا، والكافرون خابوا وخسروا.

صلى الله عليه وعلى آله صلاة دائمة الاتصال، تتكرر تكرر البكر والآصال. صلاة لا يلحقها اضطراب، ولا يستطيع حصرها الحساب، وعليه من لطائف التسليم ما يربي كثرة على عدد النجوم، ويزري شذاه بالمسك المختوم، ويوافق احتفاله رضى الحي القيوم.

إذا المرء لم يكسب سوى المال وحده
فألأم مكسوب لألأم كاسب.

والعرب تدخل (لا) على الفعل الماضي، ■
وتقرنها به، فتنوب مناب (لم) إذا قرنت بالفعل المستقبل.
قال الله تبارك وتعالى (فلا صدق ولا صلى) أي؛ لم يصدق، ولم يصل. يريد فلا صدق بربه ولا صلى له.
وقال تعالى

فلا اقتحم العقبة) أي؛ لم يسلك الطريق الذي فيه النجاة. قاله ابن زيد وعن ابن عباس العقبة: جبل في جهنم (وقيل:

هو تمثيل معناه: لم يفعل ما أمر به والاقتحام في اللغة: الدخول على شدة وضغط.

وقال ذو الأصبع العدواني يخاطب ابن عم له:

لاه ابن عمك لا أفضلت في حسب

عني ولا أنت دياني فتخزوني

أي لم تفضل علي. (فلا) في هذه المواضع كلها بمعنى (لم)؛ لأن (لم) نفي للفعل الماضي. وهو من

عوامل الجزم. والجازم لا يدخل على الفعل الماضي لأنه مبني.

فيا نفس ما لقيت من لاعج الهوى■

ويا قلب ما جرت عليك النواظر

ويا عيني مالي ومالك كلما

هممت بوصل قام لي منك زاجر

وان الحجا والصون والحلم والتقى

لدي لربات الخدور ضرائر

أقول وقد نم الحلي بحرسه

علينا ولا حت للصباح تباشير

أيا رب حتى الحلي مما أخافه

وحتى بياض الصبح مما أحاذر

وبتنا وبات الناس ساءت

ظنونهم وثوبي، مما حرم الله، طاهر.

قوله: (لربات الخدور ضرائر). الضرائر: جمع ضرة. ومنه قول امرئ القيس:

عنيف بتجميع الضرائر فاحش.

وفي هذا المعنى من العفاف، يقول بعض أهل العصر من قصيدة له■:

كم ليلة بتنا ونحن بمعزل عن كل واش في الهوى يلحاني

والليل قد أرخى السدول وجنحه مذ كان مشتمل على الكتمان

وكواكب الآفاق تسري وقدا والراح تطلع أنجما ببناني

ومنادمي عذب المراشف أحور بالأنس منه وبالوصال حباني

لما رأى ظمئي لخمرة ثغره مزج الكؤوس بريقه وسقاني

وسقيته حتى تمايل عطفه والقد لينا مثل خوط البان

وتحيرت أجفانه وتمكنت سنة الكرى من طرفه الوسنان

وسدته عضدي وبات معانقي وبردت حر الوجد بالرشفان

ورغبت عن فعل اللئام وعفتي تنهى عن الآثام والعصيان

ما نلت إلا ما أباح لي التقى لو حلت الصهباء للإنسان.

■ يقول أحد البلغاء منهم، أظنه نابغة بني شيبان:

إن من يركب الفواحش سرا

حين يخلو بفعله غير خالي

كيف يخلو وعنده كاتباه

شاهداه وربنا ذو الجلال

وقال الآخر:

إذا ما خلوت الدهر يوما

خلوت ولكن قل علي رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة

ولا أن ما يخفى عليه يغيب

وقال الآخر في المعنى:

ياراكب الذنب أما تستحي

الله في الخلوة رائيكا

غرك من ربك إمهاله

وستره طول مساويكا

وقد قال الله في كتابه العزيز المنير (إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير). فالعبد الورع الديان، يخاف من عقاب الرحمان، يخشى الله

تعالى في غيبة الناس عنه، أشد من خشيته، إذا شاهدوه وتدانوا منه.

■ قول البحتري :

كأنما يضحك عن لؤلؤ

منضد أو برد أو أقاح

تحسبه نشوان مهما رنا

للفتر من أجفانه وهو صاح

بت أفديه ولا أرعوي

لنهي ناه عنه ولحي لاح

أمزج كأسي بجنا ريقه

وإنما أمزج راحا براح

يساقط الورد علينا وقد

تبلج الصبح نسيم الرياح

أغضيت عن بعض الذي وقد يتقى

من حرج في حبه أو يباح

سحر العيون النجل مستهلك

لبي وتوريد الخدود الملاح.

■ ومنعم غض القطاف

عذب الغروب للارتشاف

قد صيغ من در الجما

ل وصين في صدف العفاف

وسقته أندية الشبا

ب بمائها حتى أناف

فتروضت منه الريا

ض وسلفت منه السلاف

مهما أردت وفاقه

يوما تعرض للخلاف

لما تصدى للصدو

د ومال نحو الإنحراف

هيأت من شركي له

فعل اللطاف من الظراف

فسقيته ماء بها

وأدرت صافية بصاف

حتى ترنح مائلا

كالغصن مال به انعطاف

فوردت جنة نحره

ونعيمها داني القطاف

وضممت ناعم قده

ضم المضاف إلى المضاف

فورعت في حين الجنى

وكففت عن فرق الكفاف

وعصيت سلطان الهوى

وأطعت سلطان العفاف.

■ وكم ظفرت بمن أهوى فيمنعني

منه الحياء وخوف الله والحذر

وكم خلوت به يوما فيقنعني

منه الفكاهة والتقبيل والنظر

أهوى الملاح وأهوى أن أجالسهم

وليس لي في حرام منهم وطر

كذلك الحب لا إتيان فاحشة

لا خير في لذة من بعدها سقر

قوله (من بعدها سقر). يعني النار أعاذنا الله منها. وسميت سقر، لشدة ايلامها. من قولهم: سقرته الشمس تسقره سقرا؛ إذا آلمت دماغه.

الحب داء رجال يقتلون به ■

ظلما وأول أسباب الهوى النظر

قد كنت أحذره حتى ابتليت به

لو كان ينفعني الإشفاق والحذر

وقال ادريس بن اليماني:

عن الهوى إن تسل: أصل الهوى النظر

وربما قاد حتف المهجة البصر

وقال فيه أبو محمد بن عبد البر:

لا تكثرن تأملا

واحبس عليك عنان طرفك

فلربما أرسلته

فرماك في ميدان حتفك

وقال أبو محمد الجزيري:

واغضض الطرف تسترح من غرام

تكتسي فيه ثوب ذل وشين

فبلاء الفتى اتباع هوى النف

س وبدء الهوى طموح بعين.

وقال جالينوس: محادثة الرجل من يهوى، تسل التعب والنصب من مفاصله سلا. ■

إذا شئت أن تلقى المحاسن كلها ■

ففي وجه من تهوى جميع المحاسن.

كل يوم قطيعة وعتاب ■

ينقضي دهرنا ونحن غضاب

ليت شعري أنا خصصت بهذا

دون غيري أم هكذا الأحباب.

لقد كنت خير الناس لو دام ودها ■

ولكنما الدنيا متاع غرور

وكنا جميعا قبل أن تظهر الهوى

بأحسن حالي غبطة وسرور

فما لبث الواشون حتى بدت لهم

بطون الهوى مقلوبة بظهور.

يا قمر القصر متى تطلع ■

أشقى وغيري بك يستمتع

إن كان ربي قدقضى ما أرى

منك على رأسي فما أصنع.

قال: وخرج أبو حامد في كتابه، قال: (إن بعض المحبين خلا بمحبوبه، فقال له: أنا، والله، أحبك ■ بقلبي كله، وأنت تعرض عني بوجهك كله، فقال له المحبوب: إن كنت تحبني، فأي شيء تنفق علي؟. فقال له: ياسيدي أملكك ما أملك، ثم أنفق عليك روحي حتى أهلك).

لا أستطيع سلوا عن مودتها■

أو يصنع الحب بي غير الذي صنعا

أدعو إلى هجرها قلبي فيسعدني

حتى إذا قيل هذا صادق نزعا

وزادني رغبة في الحب أن منعت

أحب شيء إلى الإنسان ما منعا.

تنفست لما هاج قلبي بذكره ■

فأمسكت من خوف الحريق علي الصدر

ووالله لو فاضت على الجمر لوعتي

لأحرق أدنى حرها لهب الجمر.

رأيت الهوى حلوا إذا اجتمع الوصل ■

ومرا على الهجران لا بل هو القتل.

ذكر أبو الحسن الدارقطني الحديث في كتاب (العلل) فقال: قال إسحاق بن ■

ابراهيم بن هانئ، عن أحمد بن حنبل: إنما هو البئر جبار، وأهل (صنعاء) يكتبون النار بالياء على الامالة.

إن النموم أغطي دونه خبري■

وليس لي حيلة في مفتري الكذب

ومثل هذا البيت قول الآخر:

لي حيلة فيمن ين

م وليس في الكذاب حيله

من كان يخلق ما يقو

ل فحيلتي فيه قليله

ويروى: (من كان يكذب ما أراد).

حكى الزبير بن أبي بكر قال: حج مروان بن عبد الملك مع الوليد بن عبد الملك بن مروان، فلما ■

كانوا بوادي القرى، جرت بينه وبين أخيه الوليد بن عبد الملك محاورة، والوليد يومئذ خليفة، فغضب

الوليد فأمضه فتفوه مروان بالرد عليه. فأمسك عمر بن عبد العزيز على فيه فمنعه من ذلك. فقال لعمر: قتلتني! رددت غيظي في جوفي. فما راحوا من وادي القرى حتى دفنوه.

فله يقول الشاعر:

لقد غادر الركب اليمانون إذ غدوا

بوادي القرى جلد الجنان مشيعا

فساروا فلا مروان للحي إذ شتوا

وللركب إذ أمسوا مضلين جزعا.

الرمث أعواد يضم بعضها إلى بعض، فيركب عليها في البحر. ■

ويروى: (على رمث في الشرم). والشرم: البحر من قولهم: شرمت الشيء إذا شققته. والبحر؛ من قولهم بحرت الشيء؛ إذا شققته أيضا شقا واسعا. وقيل: الشرم لجة البحر، ومنه البحيرة.

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا■

شوقا إليكم ولا جفت مآقينا

يكاد حين تناجيكم ضمائرنا

يقضي علينا الأسى لولا تأسينا

حالت لفقدكم أيامنا فغدت

سودا وكانت بكم بيضا ليالينا

إذ جانب العيش طلق من تألفنا

ومورد اللهو صاف من تصافينا

وإذ هصرنا غصون الأنس دانية

قطوفها فجنينا منه ما شينا

ليسق عهدكم عهد السرور فما

كنتم لأرواحنا إلا رياحينا

من مبلغ الملبسينا بانتزاحكم

حزنا مع الدهر لا يبلى ويبلينا
أن الزمان الذي لا زال يضحكنا
أنسا بقربكم قد عاد يبكينا
غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا
بأن نغص وقال الدهر آمينا
فانحل ما كان معقودا بأنفسنا
وانبث ما كان موصولا بأيدينا
وقد يكون وما يخشى تفرقنا
فاليوم نحن وما يرجى تلاقينا
لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم
رأيا ولم نتقلد غيره دينا
لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا
أن طالما غير النأي المحبينا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلا
منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا
ولا استفدنا خليلا عنك يشغلنا
ولا اتخذنا بديلا منك يسلينا
يا ساري البرق عاد القصر فاسق به
من كان صرف الهوى والود يسقينا
ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا
من لو على البعد حيا كان يحيينا
ياروضة طالما أجنت لواحظنا
وردا حلاه الصبا غضا ونسرينا
ويا حياة تملينا بزهرتها
منى ضروبا ولذات أفانينا

لسنا نسميك إجلالا وتكرمة

وقدرك المعتلى عن ذاك يغنينا

إذا انفردت وما شوركت في صفة

فحسبنا الوصف ايضاحا وتبيينا

يا جنة الخلد ابدلنا بسلسلها

والكوثر العذب زقوما وغسلينا

كأننا لم نبت، والوصل ثالثنا

والسعد قد غض من أجفان واشينا

سران في خاطر الظلماء تكتمنا

حتى يكاد لسان الصبح يفشينا

لا غرو أنا ذكرنا الحزن حين نأت

عنه النهى وتركنا الصبر ناسينا

إنا قرأنا الأسى يوم النوى سورا

مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينا

أما هواك فلم نعدل بمنهله

شربا وإن كان يروينا فيظمئنا

لم يخف أفق جمال أنت كوكبه

سالين عنه، ولم نهجره قالينا

نأسى عليك وقد حثت مشعشعة

فينا الشمول وغنانا مغنينا

لا أكؤس الراح تبدي من شمائلنا

سيما ارتياح ولا الأوتار تلهينا

دومي على العهد مادمنا محافظة

فالحر من دان إنصافا كمادينا

أبدي وفاء وإن لم تبذلي صلة

فالطيف يقنعنا والذكر يكفينا

وفي الجواب متاع إن شفعت به

بيض الأيادي التي مازلت تولينا

عليك مني سلام الله ما بقيت

صبابة بك نخفيها فتخفينا

وحكى■

يحيى بن أكثم عن نفسه قال: فبينما أنا جالس مع المأمون إذ دخل الدار فتى أبرع الناس زيا وهيئة ووقارا وهو لا يلتفت إعجابا بنفسه. فنظر إليه المأمون فقال: يا يحيى. إن هذا الفتى لا يخلو أن يكون هاشميا أو نحويا. ثم بعثنا من يتعرف ذلك منه، فعاد الرسول إلينا فأخبرنا أنه نحوي. فقال المأمون: يا يحيى. أعلمت أن علم النحو قد بلغ بأهله من عزة النفس، وعلو الهمة منزلة بني هاشم في شرفهم. يا يحيى من قعد به نسبه، نهض به أدبه.

وقال الآخر ■:

مالي عقلي وهمتي حسبي

ما أنا مولى ولا أنا عربي

إن انتمى منتم إلى أحد

فإنني منتم إلى أدبي

وقال أبو الطيب في هذا المعنى:

ما بقومي شرفت بل شرفوا بي

وبنفسي فخرت لا بجدودي

ومن حديث محمد بن مسلم بن شهاب الزهري ■

في هذا المعنى قال: قدمت على عبد

الملك ابن مروان فقال لي: من أين قدمت يازهري؟ قلت: من مكة.

قال: فمن خلفت بها يسود أهلها؟ قال: قلت: عطاء بن أبي رباح. قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي. قال: وبم سادهم؟ قال: قلت: بالديانة والرواية. قال: إن أهل الديانة

والرواية ينبغي أن يسودوا، فمن يسود أهل اليمن؟ قلت طاووس بن كيسان. قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي قال: وبم سادهم؟ قال: قلت: بما سادهم به عطاء، قال: فمن يسود أهل مصر؟ قال: قلت يزيد بن أبي حبيب. قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي قال: فمن يسود أهل الشام؟ قال: قلت مكحول قال فمن العرب أم من الموالي؟ قال قلت: من الموالي، عبد أعتقته امرأة من هذيل. قال: قلت فمن يسود أهل الجزيرة؟ قلت: ميمون بن مهران. قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي. قال فمن يسود أهل خراسان؟ قال: قلت: الضحاك بن مزاحم. قال فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي قال: فمن يسود أهل البصرة؟ قال: قلت: الحسن بن أبي الحسن قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي. قال: ويحك فمن يسود أهل الكوفة قال: قلت: إبراهيم
النخعي قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت من العرب.
قال ويلك يا زهري فرجت عني، والله لتسودن الموالي على العرب، حتى يخطب لها على المنابر والعرب تحتها. قال: قلت: يأمير المومنين إنما هو أمر الله ودينه، من حفظه ساد، ومن ضيعه سقط.

وقال الحجاج لخالد بن صفوان: من سيد أهل البصرة؟ فقال: الحسن قال الحجاج: وكيف ذلك وهو ■ مولى؟ فقال: احتاج إليه الناس في دينهم، واستغنى عنهم في دنياهم.

وحكي عن العباس بن مصعب قال: خرج من مرو أربعة من أولاد العبيد ما منهم أحد إلا وهو إمام ■ عصره: عبد الله بن المبارك، ومبارك عبد، وإبراهيم ابن ميمون الصائغ، وميمون عبد، والحسين بن واقد وواقد عبد، ومحمد ابن ميمون الشكري، وميمون عبد.

في بيت مكرمة آباؤهم نجب■
كانوا الرؤوس فأضحى بعضهم ذنبا
وحامل معرق الآباء في أدب
قال المعالي به والمال والحسبا

أمسى عزيزا عظيم الشأن مشتهرا

في خده صعر قد ظل محتجبا

وصاحب العلم معروف به أبدا

نعم الخليط إذا ما صاحب صحبا.

قال صعصعة بن صوحان العبدي لمعاوية بن أبي سفيان ■

حين سأله أن يصف الناس، فقال: (خلق الناس أخيافا. فطائفة للعبادة، وطائفة للتجارة، وطائفة للبأس

والنجدة، وطائفة خطباء، ورجرجة يكدرون الماء ويغلون السعر، و يضيقون الطريق فيما بين ذلك).

قوله: (خلق الناس أخيافا) سماهم: أخيافا لاختلاف أصولهم وطبائعهم. وإذا كان الإخوة لأم واحدة

وآباء شتى فهم أخياف أيضا. قال أبو محمد بن قتيبة وغيره، أصل الخيف في الخيل. وهو أن تكون

إحدى عيني الفرس زرقاء والأخرى كحلاء.

وقال الشاعر:

الناس أخياف وشتى في الشيم

وكلهم يجمعهم بيت الأدم.

ودخل وفد من العرب على هشام بن عبد الملك، وفيهم درواس بن حبيب، وعليه شملتان، وله ذؤابة، ■

وهو يومئذ ابن أربع عشرة سنة، فأحجم القوم وهابوا هشاما، فوقعت عين هشام على درواس

فاستصغره. فقال للحاجب: ما يشاء أحد أن يصل إلي ألا قدر حتى الصبيان. فعلم درواس أنه يريده،

فقال: يأأمير المومنين إن دخولي لم يخل منك بشيء، ولا أتنقصك. ولكن هؤلاء القوم قدموا لأمر

فأحجموا عنه. (وإن الكلام نشر والسكوت طي). لا يعرف إلا بنشره. قال: فانشره لاأبالك. وأعجبه

كلامه فقال: يأأمير المؤمنين إنه أصابتنا سنون ثلاث: سنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة

أنتقت العظم. وفي أيديكم فضول أموال، فإن كانت لله ففرقوها على عباده، وإن كانت لهم فعلام

تحبسونها عنهم، وإن كانت لكم فتصدقوا بها عليهم، فإن الله يجزي المتصدقين، ولا يضيع أجر

المحسنين. وإن الوالي من الرعية كالروح من الجسد، ولا حياة له إلا بها.

فقال هشام: ماترك الغلام لنا في واحدة من الثلاث عذرا. وأمر أن تقسم في البوادي مائة ألف درهم،

وأمر لدرواس بمائة ألف. فقال: يأأمير المؤمنين اردها إلى جائزة العرب. فإني أخاف أن تعجز عن

.بلوغ كفايتهم. قال: فهنا حاجة. فقال: ما لي في خاصة نفسي دون عامة المسلمين حاجة

وكان إياس بن معاوية أذكى الناس، وأفهمهم وأفصحهم. حكي أنه دخل الشام وهو غلام صغير، ■
فوصل إلى القاضي في حق له، فتكلم قبل خصمه، وكان الخصم شيخا. فقال له القاضي: أتقدم شيخا
كبيرا؟ فقال له: الحق أكبر منه. فقال له القاضي: اسكت. فقال: ومن ينطق بحجتي؟ قال ما أظنك
:تقول حقا، فقال: لا إله إلا الله، فقام عند ذلك القاضي، ودخل على عبد الملك، فأخبره بخبره. فقال
.اقض حاجته الساعة. وأخرجه من الشام لئلا يفسد على الناس

وحكى الصلت بن مسعود. قال: كنا عند سفيان بن عيينة فتضاجرنا. فقال سفيان: أليس من الشقاء ■
أن أجالس التابعين ثم أجالسكم. جالست ضمرة بن سعيد وجالس أبا سعيد الخدري وجالست عبد الله
بن دينار، وجالس جابرا حتى عد جماعة من التابعين. فقال له غلام كان في المجلس: أتنصف يا أبا
.محمد؟ فقال: نعم. فقال الغلام: والله لشقاء التابعين بمجالستك بعد الصحابة أشد من شقائك بمجالستنا
:بعد التابعين، قال: فأبلس ابن عيينة، وتمثل بشعر أبي نواس

خل جنبيك لرام

وامض عنه بسلام

مت بداء الصمت خير

لك من داء الكلام

:قال أبو إسحاق

.قوله: أبلس، يريد سكته. يقال: أبلس الرجل فهو مبلس، إذا سكت حزنا

.قال أبو عبيدة: المبلس الساكت اليائس

عن قتادة عن الحسن عن عمران ■

أنه قال: كنا في سفر مع النبي عليه السلام، فرفع صوته بهاتين الآيتين، (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم). فتأشب أصحابه حوله،

.وأبلسوا حتى ما أوضحوا بضاحكة، أي سكتوا حزنا

ويقال: المبلس الساكت المنقطع الحجة، ويقال: المبلس الحزين النادم. والإبلاس أيضا: اليأس من
.رحمة الله. قال الله تعالى (أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون). أي آيسون من الخير والرحمة

وأما قول أبي عبيدة ومن قال بقوله، لا نظير لإبليس في أسماء العرب، فمردود لأنهم يقولون ■:
إحريض لصبغ أحمر قال الراجز:

ملتهب كلهب الإحريض

يزجى خراطيم غمام بيض

وهو إفعيل مثل إبليس، وإغريض للطلع، وثوب إضريج مشبع الصبغ، وقيل: هو من الصفرة خاصة. قال النابغة:

تحييهم بيض الولائد بينهم

وأكسية الإضريج فوق المشاجب

وقال الآخر:

والبغايا يركضن أكسية الإض

ريج والشرعبي ذا الأذيال

وقالوا: سيف إصليت للماضي الكثير المضاء. قال الراجز:

كأنني سيف بها إصليت

وقالوا سيف إبريق، وهو إفعيل من البريق. قال ابن أحمر:

تقلدت إبريقا وعلقت جعبة

لتملك حيا ذا زهاء وجامل

وقالوا: إزميل ووزنه إفعيل. قال الشاعر:

هم منعوا الشيخ المنافي بعدما

رأى حمة الإزميل فوق البراجم

وأشبه هذه كثيرة. وإنما سبيل إبليس كسبيل إنجيل في أنه معرف غير مشتق، قاله الرماني وغيره. وقد قيل: إن إنجيل من النجل وهو في الأصل. وقال أبو العباس ثعلب: أبلس الرجل إذا سكت حزنا وكآبة. وأخرد إذا سكت حياء، وأقرد إذا سكت ذلا.

أعشو عشوا: إذا قصدته بليل، ثم صار كل قاصد عاشيا. ■

وقال صاحب العين العشو: إتيانك نارا ترجو عندها هدى أو خيرا. والعاشية كل شيء يعشو بالليل
إلى ضوء نار من أصناف الخلق، من الفراش ونحوه. وأنشدوا:

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره

تجد خير نار عندها خير موقد

وقال ابن الأعرابي: فلان يعشو إلى فلان، إذا أتاه طالبا ما عنده.

قال: وجاء رجل من بني كلاب إلى عمر بن العزيز يشكو عاملا له فقال له: أين كنت عن والي
المدينة؟ فقال: عشوت إلى عدلك، وعلمت إنصافك منه، فكتب إلى والي المدينة بعزله.

قال أبو علي البغدادي: وهذه الأقوال الثلاثة متفقة في المعنى، وإن

اختلفت العبارات عنها وزادت ونقصت. قال: والعشا في العين مقصور يكتب بالألف لأنهم يقولون رجل أعشى، وامرأة عشواء.

وأنشد:

فإن يمس عندي الهم والشيب والعشا

فقد بن مني والسلام تفلق

ويقال: فتنة عشواء: أي يعشى فيها حتى لا يهتدي الطريق فيها، فظهور الواو في عشواء، يدل على
أن العشا من الواو، وكذلك قلت: عشي يعشى أصل الياء فيه واوا.

وقال صاحب العين: العشواء من النوق التي لا تبصر ما أمامها، وذلك أنها ترفع رأسها فلا تتعاهد
موضع أخفافها. قال زهير:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب

تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم

قال أبو علي، وهذا صحيح في الاشتقاق، وأصله من عشا العين.

وقال أبو الحجاج الأعلم في تفسير بيت زهير وقوله: (خبط عشواء)، أي لا تقصد ولاتجئ على
بصر. يقال: عشا يعشو إذا جاء على بصر وهداية، وعشى يعشى إن أصابه العشا؛ يريد أن المنايا
تخبط في كل ناحية كأنها عشواء لا تبصر، فمن أصابته في خبطها ذلك هلك، ومن أخطأته عاش
وهرم. وإنما يريد أنها لا تترك الشاب لشبابه، ولا تقصد الكبير لكبره، وإنما تأتي لأجل معلوم).

وهذا البيت لكعب ■

بن مالك في قصيدة له قالها في يوم الخندق، وهو آخر بيت منها، وفيها يقول:

نأوي إلى ظل اللواء كأنه

في صعدة الخطي فيء عقاب

ومواعظ من ربنا تهدى لنا

بلسان أزهر طيب الأثواب

أعيت أباكرب وأعيت تبعا

وأبت بسالتها على الأعراب

عرضت علينا فاشتهينا ذكرها

من بعدما عرضت على الأحزاب

حكما يراها المجرمون بزعمهم

حرجا ويفقهها أولو الألباب

جاءت سخينة كي تغالب ربها

فليغلبن مغالب الغلاب

قوله: (نأوي إلى ظل اللواء)؛ أي نرجع إليه. واللواء؛ لواء الحرب.

كقوله تبارك وتعالى (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله). ففي: يتخذ ■

ضمير مفرد عائد على لفظ (من) والضمير الظاهر في يحبونهم عائد على

معناها، وذلك لإبهام من وما. مرة يجعل الكلام فيهما على اللفظ. ومرة على المعنى، لأن المبهم موقوف على بيان غيره له.

قال أبو العباس: (والفرق بين الظل والفيء، أن الفيء ما نسخ بالشمس، لأنه هو ■

الراجع، والظل مالا شمس فيه. فكل فيء ظل، وليس كل ظل فيئا). ولذلك يقال: أهل الجنة في ظل

لا في فيء، لأنها

لا شمس فيها، كما قال تعالى (وظل ممدود).

تبارين الأعنة مصعدات ■

على أكتافها الأسل الظماء

(ويروى: ينازعن الأعنة مصغيات).

تظل جيادنا متمطرات

يلطمهن بالخمر النساء

فإن أعرضتم عنا اعتمرنا

وكان الفتح وآنكشف الغطاء

وإلا فاصبروا لجلاد يوم

يعز الله فيه من يشاء

وقال الله قد أرسلت عبدا

يقول الحق ليس به خفاء

وقال الله قد يسرت جندا

هم الأنصار عرضتها اللقاء

لنا في كل يوم من معد

قتال أو سباب أو هجاء

أمن يهجو رسول الله منكم

ويمدحه وينصره سواء

وجبريل رسول الله فينا

وروح القدس ليس له كفاء

قال حسان بن ثابث، هذه القصيدة يجيب بها أبا سفيان بن الحارث حين هجا رسول الله صلى الله عليه و سلم.

فلما ■

انتهى إلى قوله:

هجوت محمدا وأجبت عنه

وعند الله في ذاك الجزاء

قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "جزاؤك على الله الجنة يا حسان". فلما انتهى إلى قوله:

فإن أبي ووالده وعرضي

لعرض محمد منكم وقاء

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وقاك الله يا حسان حر النار"

فلما قال حسان:

أتهجوه ولست له بند

فشركما لخيركما الفداء

قال من حضر: (هذا أنصف بيت قالته العرب). قال مصعب الزبيري: (هذه القصيدة، قال حسان صدرها في الجاهلية وآخرها في الإسلام).

■ وأصل الحنف الميل، وقيل: الاستقامة. فسمي المستقيم حنيفا على التفاؤل، كما سمي اللديغ سليما تفاؤلا بالسلامة. وكما قيل للمهلكة مفازة تفاؤلا بالفوز والنجاة. هذا كله يحكى عن الرياشي وابن قتيبة وغيرهما. وقال الزجاج: أصله الميل، فالمعنى أنه حنف إلى دين الله وهو الإسلام، فلا شك أن معناه قد صار الاستقامة على دين إبراهيم، كيف تصرفت الحال في أصله. ولو استدل مستدل على أن أصله الاستقامة لشرف الحنيفية، فاشتق لها مما يليق بمعناه، كان وجها. قال هذا أبو الحسن الرماني.

■ وقول حسان:

فإن أبي ووالده وعرضي

البيت.

روي أن حسان بن ثابث استأذن على عائشة رضي الله عنها، بعدما كف بصره، فدخل عليها فأكرمته فلما خرج عنها، قيل لها: هذا من القوم، فقالت: أليس الذي يقول:

فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء.

■ وأصل الحنف الميل، وقيل: الاستقامة. فسمي المستقيم حنيفا على التفاؤل، كما سمي اللديغ سليما تفاؤلا بالسلامة. وكما قيل للمهل

:كة مفازة تفاؤلا بالفوز والنجاة. هذا كله يحكى عن الرياشي وابن قتيبة وغيرهما. وقال الزجاج

أصله الميل، فالمعنى أنه حنف إلى دين الله وهو الإسلام، فلا شك أن معناه قد صار الاستقامة على

.دين إبراهيم، كيف تصرفت الحال في أصله. ولو استدل مستدل على أن أصله الاستقامة لشرف

عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل مكة في عمرة ■

:القضاء، وعبد الله بن رواحة يمشي بين يديه ويقول

خلوا بني الكفار عن سبيله

فاليوم نضربكم على تنزيله

ضربا يزيل الهام عن مقيله

ويذهل الخليل عن خليله

فقال له عمر: يا ابن رواحة بين يدي رسول الله، وفي حرم الله تقول الشعر. فقال له رسول الله

.(صلى الله عليه وسلم: (خل عنه يا عمر فلهي أسرع فيهم من وضح النبل

.(وفي حديث آخر (من وقع النبل

ومدح نصيب الشاعر عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، فأجزل له من كل صنف: أعطاه إبلا وخيلا ■

وثيابا ودنانير ودراهم، فقيل له: أتصنع هذا بمثل هذا العبد الأسود؟ فقال أما والله، إن كان جلده

أسود فإن ثناءه لأبيض، ولقد استحق بما قال أكثر مما قال، وإنما أخذ رواحل تنضى وثيابا تبلى،

.وأعطى مديحا يروى وثناء يبقى

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لابنة هرم بن سنان المري ما

:وهب أبوك لزهير؟ فقالت

.أعطاه مالا وأثاثا أفناه الدهر. فقال لها عمر لكن ما أعطاكموه لا يفنيه الدهر

وقال معاوية لابن الأشعث بن قيس: ماكان جدك قيس ين معدي كرب أعطى الأعشى؟ فقال: أعطاه

.مالا وظهرا ورقيقا وأشياء نسيتها، فقال معاوية: لكن ما أعطاكم الأعشى لا ينسى

قال الله تعالى (أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر). والمراد بغسق الليل في هذه ■
الآية: صلاة المغرب والعشاء، وبالدلوك

صلاة الظهر والعصر، وبقرآن الفجر صلاة الصبح. فهذه الآية متضمنة جميع أوقات الصلوات، لأن

دلوك الشمس، وهو ميلها؛ هو من لدن زوالها إلى مغيبها. وقيل: الدلوك الميل وهو قول ابن عباس

وجماعة من العلماء، وهو مذهب مالك رحمه الله، وهو اختيار الطبري.

والشاهد أن الدلوك الزوال، قول النبي صلى الله عليه وسلم "أتاني جبريل عليه السلام ■

لدلوك الشمس حين زالت فصلى بي الظهر" فهذا موافق لقول ابن عباس ومجاهد وغيرهما ومقوله.

وسمي قلما لأنه قلم، أي قطع وسوي كما يقلم الظفر. وكل عود :■

يقطع ويحد في رأسه ويعلم بعلامة

فهو قلم، ولذلك قيل للسهام أقلام.

قال تعالى (وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم) وكانت سهاما مكتوبة فيها أسماؤهم. وقيل هي في هذه الآية الأقلام التي يكتبون بها

التوراة.

قول أبي تمام ■:

السيف أصدق أنباء من الكتب

في حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف في

متونهن جلاء الشك والريب

والعلم في شهب الأرماح لامعة

بين الخميسين لا في السبعة الشهب.

قول أبي تمام: (السيف أصدق أنباء) يروى أنباء بالفتح، وإنباء بالكسر، والفتح أجود وهو المختار ■.

وهوالذي يتعدى إلى ■

مفعولين، أحدهما بحرف الجر، وقد يحذف حرف الجر فيتعدى الفعل فينصب. قال الله تعالى (فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا) أي

بهذا.

وقول أبي تمام أيضا ■:

بين الخميسين لا في السبعة الشهب

يعني بالسبعة الشهب الدراري السبعة، وهي أعلام يستدل بها: زحل والمشتري وعطارد والمريخ

والزهرة والشمس والقمر

■وقال ابن الرومي في تفضيله:

لعمرك ما السيف سيف الكمي

بأخوف من قلم الكاتب

له شاهد إن تأملته

ظهرت على سره الغائب

أداة المنية في جانبيه

فمن مثله رهبة الراهب

ألم تر في صدره كالسنان

وفي الردف كالمرهف القاضب

سنان المنية في جانب

وحد المنية في جانب.

■أبو بكر بن قزمان:

يمسك الفارس رمحا بيد

وأنا أمسك فيها قصبه

وكلانا بطل في فعله

إن الاقلام رماح الكتبة.

■ السيف أصدق أنباء من الكتب

هو المقيد للآثار والحكم

لولا وقائعه في سائر الأمم

لم يحفل الناس بالقرطاس والقلم

أين اليراعة من صمصامة خذم

في حده الحد بين الجد واللعب

والسمهرية يتلوه ويتبعه

ما مال عرش رماح الخط يرفعه

خذ ما تراه ودع ما كنت تسمعه

فالعلم في شهب الأرماح أجمعه

بين الخميسين لا في السبعة الشهب.

■ وأحسن ما أذكر في صفة القلم قول أبي تمام:

لك القلم الأعلى الذي بشباته

تصاب من الأمر الكلى والمفاصل

له الخلوات اللائي لولا نجيها

لما احتفلت للملك تلك المحافل

لعاب الأفاعي القاتلات لعابه

وأري الجنى اشتارته أيد عواسل

له ريقة طل ولكن وقعها

بآثاره في الشرق والغرب وابل

فصيح إذا استنطقته وهو راكب

وأعجم إن خاطبته وهو راجل

إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت

عليه شعاب الفكر وهي حوافل

أطاعته أطراف القنا وتقوضت

بنجواه تقويض الخيام الجحافل

إذا استغزر الذهن الذكي وأقبلت

أعاليه في القرطاس وهي أسافل

وقد رفدته الخنصران وشددت

ثلاث نواحيه الثلاث الأنامل

رأيت جليلا شانه وهو مرهف

ضنى وسمينا خطبه وهو ناحل.

أمثلك يبغي في سمائي كوكبا ■

وفي جوك الشمس المنيرة والبدر

ويلتمس الحصباء في ثغب الحصى

ومن بحرك الفياض يستخرج الدر

عجبت لمن يهوى من الصفر تومة

وقد سال في أرجاء معدنه التبر.

وكتب أبو الحسن بن الزقاق إلى صديق له■:

سلام كما نم النسيم علا الزهر

وخاضت جفون العين إغفاءة الفجر

وهز هبوب الريح عطف أراكة

فمالت كما مال النزيف من السكر

على من إذا ودعته أودع الحشى

لهيبا تلظى في الجوانح والصدر

ومن لم يزل نشوان من خمرة الصبا

كما لم أزل نشوان من خمرة الذكر.

أيها الآمل خيمات النقا■

خف على قلبك تلك الحدقا

إن سربا حشي الحي به

ربما غرك حتى ترمقا

لاتثرها فتنة من ربرب

ترعد الأسد لديهم فرقا

وانج عنها لحظة سهمية

طالما بلت ردائي عرقا

وإذا قيل نجا الركب فقل

كيفما سالم تلك الطرقا

يا رماة الحي موهوب لكم

ما سفكتم من دمي يوم النقا

ما تعمدتم ولكن سبب

قرب الحين وأمر سبقا

والتفاتات تلقت عرضا

مقتل الصب فخلته لقى

وعذاب شاء أن ألتذه

سفه الحب ومحتوم الشقا

آه من جفن قريح لم يزل

بعدكم في بحر دمع غرقا

وحشا غير قرير كلما

رمت أن يهدأ عنكم خفقا

وفؤاد لم أضع قط يدي

فوقه خيفة أن يحترقا

ما بنجم عكفت عيني على

رعيه ليس يريم الأفقا

ولعين خلعت فيه الكرى

كيف لم تخلع عليه الأرقا

أيها النوام ما أهدأكم

عن قلوب سهدتنا قلقا

ما الذي تبغون من تعذيبنا

بعد أن ذابت عليكم حرقا

قومنا فوزوا بسلوانكم

ودعوا لله من تشوقا

وارحموا في غسق الظلماء من

بات بالدمع يبل الغسقا

عللونا بالمنى منكم ولو

بخيال منكم أن يطرقا

وعدونا بلقاء منكم

فكثير منكم ذكر اللقا

لو خشينا الجور من جيرتنا

لانتصفنا قبل أن نفترقا

واصطبحنا الآن من فضلة ما

قد شربنا ذلك المغتبقا

فسقى الله عشيات الحمى

والحمى أكرم هطال سقى

قد رز قناها وكانت عيشة

قلما فازبها من رزقا

لا وسهم جاء منكم نحونا

إنه أقتل سهم فوقا

وحلى نجد سنجري ذكرها

أوسعتنا في الهوى مرتفقا

ما حلا بعدكم العيش لنا

مذتبا عدتم ولا طاب البقا

فمن المنبي إلينا خبرا

وعلى مخبرنا أن يصدقا

هل درت بابل أنا فئة

تجعل السحر من السحر رقى

تنقش الآية في أضلاعنا

فتقينا كل شيء يتقى.

■وكتب إليه الأديب أبو بكر الكتندي رحمه الله:

أعندكم يا ساكن الري أنكم

بمرأى على بعد المسافة من حمص

أتقضي الليالي أن تلم بمنزل

ألفناه ما بين الأراكة والدعص

وإني حريص أن يعود كما مضى

زمان وما حرص المقادير من حرصي

فراجعه أبو عبد الله بقوله:

سلام أبا بكر عليك ورحمة

تحية صدق من أخ بك مختص

لعمري وما عمري بصدع زجاجة

عليك فقد تدني الليالي كما تقصي

لقد بان عني يوم ودعت صاحب

برئ أساليب الوداد من النقص

أقول لنفسي حين طارت بك النوى

أخوك فريشي من جناحك أو قصي

فباتت على ظهر اليراع إليكم

تطير بها في الوكر أجنحة الحرص

إلي أبا بكر نحوم بأنفس

ظماء إلى عهد الأجيرع أو حمص

كأن لم نزر تلك الربى وكأنها

عرائس تزهاها المواشيط للنص

ولا رتعت تلك الأراكة فوقنا

تلوث إزار الظل في كفل الدعص

وكانت لنا فيما هناك مآرب

نطيع الهوى العذري فيها ولا نعصي

ليالينا بالري والعيش صالح

وظلك عنها غير منتقل الشخص

وما ذكرها إلا شفى من علاقة

تتبعها نفسي تتبع مستقصي

وددت أبا بكر، لو انني عالم

وللكون زند ليس يقدح بالخرص

هل الغيب يوما فارج لي بابه

فأنظر منه كيف أنسك في حمص

بأزرق مسلول الحسام معربد

إذا عب في كأس تحرك للرقص

وما معصم ريان دار سواره

على مثل ماء الورد في بشر رخص

بأبهج منه في العيون إذا نهى

ولا سيما والشمس جانحة القرص

خليج كخيط الفجر تنجر فوقه

ذيول عشيات مزخرفة القمص

وقال أبو بكر أيضا■:

لله در عقيلة أبرزتها

من خدر فكرك في حلى الإنشاد

فرعاء عاطرة الذوائب واللمى

غيداء حالية الطلى والهادي

خلصت إلي مع الأصيل فعارضت

صلة الحبيب أتى بلا ميعاد

خط من النظم البديع أفادني

حظ الكرام وخطة الأمجاد

وشي سخت يدك الصناع برقمه

فكسوتنيه مذهبا بأياد

يفدي الصحيفة ناظري فبياضها

ببياضه وسوادها بسواد

أهدي تحيتك الزكية طيبها

كافور قرطاس ومسك مداد.

وفي حديث أنس بن مالك: "السلطان ظل الله في الأرض" معناه ما ذكرناه ■.

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله، أخبرني عن هذا السلطان الذي ذكت له الرقاب، وخضعت له الأجساد، ما هو؟ قال: "ظل الله في الأرض فإذا أحسن فله الأجر، وعلكيم الشكر، وإذا أساء فعليه الإصر، وعليكم الصبر"

لما تحصنت من دهري بخلعته ■

سمت بحملانه ألحاظ إقبالي

وواصلتني صلات منه رمت بها

أختال في حلل للجاه والمال

فلينظر الدهر عقبى ما صبرت له

إذ كان من بعض حسادي وعذالي

ألم أكده بحسن الانتصار إلى

أن صنت حظي عن حل وترحال

بلغت من لا تجوز السؤل قائله

ولا يدافع عن فضل وأفضال

ياعارضا لم أشم مذ كنت بارقه

إلا رويت بغيث منه هطال

رويد جودك قد ضاقت به هممي

ورد عني برغم الدهر إقلالي

لم يبق لي أمل أرجو نداك به

دهري لأنك قد أفنيت آمالي.

■ إذا لم يجبني الدهر حين أسائله

سيتلو لسان الأمر ما أنا قائله

فللملأ الأعلى حديث تذيعه

لنا ألسن الأيام فهي رسائله

صحائفها إذ تجتلى صفحاتها

تبشر بالفتح الذي حان آجله

وهل جرت الأقدار إلا بنصره

فآجله فيه تساوى وعاجله

أما هو أمر الله ليس يفوته

مراد إذا ما شاءه فهو فاعله

ولما تشكت أرض أندلس وقد

عراها من الشوق المبرح قاتله

وألقت إلى الأنباء واعي سمعها

عسى الأمر قد زمت إليها رواحله

وحنت حنين الجذع لكن رجاؤها

يراسلها لا تحزني وتراسله

فمولاك مصروف إليك اعتناؤه

ولا شيء عن أسباب نصرك شاغله

فقالت وأنى لي بذلك برهة

وهذا محل الصبر أقوت منازله

إلى أن تلافاها البشير وجاءها

كما جاء يعقوب القميص وحامله

وإذا سمعت ذكر البشير تزخرفت

بزي جنان الخلد أو ما يشاكله

وقابل شكواها الخليفة بالرضا

فجد وأبواب الفتوح تقابله

ووجه جيشا والسعود تقوده

بحزم كإعصار الرياح قنابله

درار دوار فوق أفلاك ضمر

تريك ارتداد الطرف كيف تعاجله

تباري الرياح العاصفات ولا يرى

لها أثر في الترب حين تزاوله

فمن منعل بالبرق أجرد سابح سليم شظاه لم يحرق أباجله

ومن أخضر خاض الدجى إذ سرى به

وخاضت به نهر النهار أسافله

ومن أشقر كالتبر إذ سال ماؤه

عليه فغشاه من التبر سائله

ومن أشهب كالشيب حل بمفرق

فسال على المسود منه يزايله

وورد ولكن كالدهان مهفهف

أقب أسيل الخد نهد مراكله

عليه هزبر ترجف الأرض خوفه

براثنه أسيافه وعواسله

عجبت له في الحرب مر لقاؤه

وقد عذبت للواردين مناهله

عجبت له مذكان في المهد لم يزل

يقوم به الملك الذي شق بازله

أما هو سيف الله سل على العدى

وما غمده إلا التقى وحمائله

هو السيد الأعلى المحبب للورى

هو الفذ لكن لا تعد فضائله

فأنى يضاهى أو يباهى علاؤه

وقد جمعت شمل المعالي شمائله

قدوم أبي اسحاق يمن ورحمة

وأمن وفتح يجمع الكل شامله

فلله يوم قد تجلى بأفقه

وليس له بالأفق نور يماثله

تخدناه عيدا لا نرى العيد غيره

أواخره محمودة وأوائله

فقل لذوي الإلحاد ما كان ظنكم

بذي لجب لجاته وصواهله

إذا أم أرض الشرك تنشد أهلها

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله

إذا حل حزب الله يوما بساحةٍ

أصيبت من الكفر الصريح مقاتله

ألم يعلموا أن صالت الأسد في الوغى

وعن لها لا تستطيع تصاوله

ألم يعلموا أن الغمام إذا همت

سحائبه لا تستطيع تساجله

ألم يعلموا أن البحار تمدها

إذاهي فاضت بالنوال أنامله

ألم يعلموا أن الزمان تهابه

حوادثه في كل أمر يحاوله

حسام ولكن في يد الأمر مرهف

سنان ولكن في يد الحق عامله.

■ حسان بن المصيصي:

تهيم به زهر النجوم بأفقها

فطورا تناجيه وطورا تغازله

وهل هي إلا من أسارير وجهه

فمن ذا يباهيه سنى أو يعادله

فلا خطب إلا وهي عنه تذوده

ولا حادث إلا وعنه تناضله

إذا قيل شمس فهي من بعض نوره

وإن قيل بحر فالبحار جداوله.

■ فلو وهب الدنيا لأقسم أنها

أقل نوالا للأنام يناوله

ولولم يكن في كفه غير نفسه

لجاد بها فليتق الله سائله

لو أن ما أولى الورى فاض في الثرى

لضل به البحر المحيط وساحله

قرارة علم ثم رضوى رصانة

ودوحة فضل ثمرتها فواضله

له شيم مأثورة الفضل لم تزل

وسائل من أعيت عليه وسائله

همت ببساط الأرض سحب هباته

وعمت جميع العالمين نوافله

سمي خليل الله أندلس غدت

مقام وحيث الغزو فيها تواصله

وأنت ولي الله ناصر دينه

ومن يخذل الإسلام فالله خاذله

وكل ولي أو عدو فإنه

بما عامل الله الكريم يعامله

ويا حمص بشرى ثم بشرى عميمة

بحزب هدى وافاك والله كافله.

ولولم يكن في كفه غير نفسه

لجاد بها فليتق الله سائله

ولولم يكن في كفه غير نفسه ■

لجاد بها فليتق الله سائله

لو أن ما أولى الورى فاض في الثرى

لضل به البحر المحيط وساحله

قرارة علم ثم رضوى رصانة

ودوحة فضل ثمرتها فواضله

له شيم مأثورة الفضل لم تزل

وسائل من أعيت عليه وسائله

همت ببساط الأرض سحب هباته

وعمت جميع العالمين نوافله

سمي خليل الله أندلس غدت

مقام وحيث الغزو فيها تواصله

وأنت ولي الله ناصر دينه

ومن يخذل الإسلام فالله خاذله

وكل ولي أو عدو فإنه

بما عامل الله الكريم يعامله

ويا حمص بشرى ثم بشرى عميمة

بحزب هدى وافاك والله كافله

قوله:

ولو لم يكن في كفه غير نفسه

البيت

هو لمسلم بن الوليد وقد تمثل به أبو تمام في قصيدة له مدح بها المعتصم.

■

قوله (فقد يخلف المطلوب ما ظن معذر): المعذر في طلب الحاجات، هو المبالغ المجتهد الذي أعذر أي أتى بعذر صحيح. والمعذر

بفتح العين وتشديد الدال مكسورة، هو المتواني في أمره، فهو مقصر فيه، ويوهم أن له عذرا ولا

.عذر له. ويكون أيضا بمعنى معتذر، أدغمت التاء في الدال. والاعتذار يكون بحق مرة، وبباطل مرة

.ويقال أعذر في الأمر، إذا قصر فيه

وقرأ ابن عباس والضحاك

وحميد (وجاء المعذرون من الأعراب). بالتخفيف، وتابعهم يعقوب. ورواها قتيبة بن مهران عن

الكسائي ورواها أبو كريب عن أبي بكر بن عياش عن عاصم. ووجه التخفيف فيه أي الذين بالغوا

في العذر. ومنه قولهم (قد أعذر من أنذر). وقرأ الجمهور وجاء المعذرون. بالتثقيل. على أن الأصل

.المعتذرون، فأدغمت التاء في الذال كالمزمل والمدثر والمذكر وشبهها

قال المفسرون مجاهد وقتادة وغيرهما: هم نفر من غفار جاؤوا النبي عليه السلام فاعتذروا إليه، فلم

.يقبل منهم لعلمه صلى الله عليه وسلم أن اعتذارهم باطل

■ وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كتب إلى أبي عبيدة وهو محصور: (إنه مهما تنزل

.(بامرئ شديدة، يجعل الله بعدها فرجا، وإنه لن يغلب عسر يسرين

قال أبو سليمان قوله: لن يغلب عسر يسرين إنما هو تأويل قوله تعالى (فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا). وفي ظاهر التلاوة

عسران ويسران؛ إلا أن المراد به عسر واحد؛ لأنه مذكور بلفظ التعريف، واليسر

.مذكور بلفظ التنكير مرتين. فكأن كل واحد منهما غير الآخر

وقال الفراء: العرب إذا ذكرت نكرة، ثم أعادتها بنكرة مثلها صارت اثنتين. كقولك: إذا اكسبت

درهما فأنفق درهما. فالثاني غير الأول. وإذا أعدتها بمعرفة فهي كقولك: إذا كسبت درهما فأنفق

.الدرهم، فالثاني هو الأول

قال الفراء: (ومن هذا قول بعض الصحابة: لن يغلب عسر يسرين. وقال بعض المتأخرين: (هما

سواء لا فرق بينهما، والذي استشهد به الفراء غير ذلك. وذلك أن القائل إذا قال: إن في الدار زيدا إن

.(في الدار زيدا مرتين، لم يدل على أنه غير زيد واحد، كما لم يدل على أكثر من دار واحدة

قال: وقول عمر (لن يغلب عسر يسرين) معناه أن للعسرين يسرين. إما فرج عاجل في الدنيا، وإما

.ثواب في الآخرة

وقال محمد بن المؤمل في قوله تعالى (إن مع العسر يسرا) قال: هو من مظاهر القول، يراد به التوكيد كقوله (كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون)).

ولما أتتني الريح من نحو أرضكم ■
وقد ضمخت بالطيب كل المسالك
تذكرني عهدا كريما وجيرة
كراما نماهم كل أروع تائك
وإذ أنا شرقي العذيب بفتية
تملكهم أخلاقهم كل مالك
يبذون أبناء الزمان نجابة
ورقة آداب ولين عرائك
حننت ونار البين بين جوانحي
تثير سحابا عن هموم هوائك
فتى لو ألمت بالقبور حلاوة
شمائله أحيا بها كل هالك
ولو خاطب الكفار في نبذ كفرهم
لعاد إلى نهج الهدى كل آفك
ولو أن نور البدركان كنوره
لما استصعبت سير الدجى نفس سالك
مهذبة أعراقه في نجاره
مقابلة من سامك حذو سامك
فمن قاسه بالناس جهلا بقدره
يكن مثل من قاس اللجين بآنك
فلونهما قد يستوي عند ناظر
وبينهما بون بعيد لسابك.

والصعر داء يأخذ الإبل في أعناقها ورؤوسها، فتلوي أعناقها إلى ناحية من أجله. فشبه المتكبر على■

الناس، المعرض عنهم تكبرا لذلك.

وفي الحديث (كل صعار ملعون).

يقال: رجل صعار؛ وهو ذو الكبر والأبهة، لأنه يميل بوجهه، ويعرض عن الناس. قال المتلمس:

وكنا إذا الجبار صعر خده

أقمنا له من ميله فتقوما

وقال بشر بن خازم:

ألا يا عين فابكي لي سميرا

إذا صعرت من الغضب الأنوف

وسميرا أخوه.

وذكر الصعار مالك بن أنس رحمه الله، وفسره بالنمام. وفي كتاب الله تعالى (ولا تصعر خدك للناس). قرأه ابن كثير وابن

عامر وأبو جعفر يزيد بن القعقاع ويعقوب (ولا تصعر) بغير ألف مشدد العين. وقرأ سائر السبعة

بالألف من غير تشديد. وقيل هما لغتان بمعنى: لا تعرض بوجهك عن الناس تجبرا وتكبرا.

حكى سيبويه أن ضاعف وضعف بمعنى صاعر وصعر. وقال الأخفش: لا تصاعر بالألف لغة

أهل الحجاز.

■ وكان شعراء العرب في الجاهلية، وصدر

الإسلام يشببون بالنساء، ويعلنون بأسمائهم، حتى توعدهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه على ذلك،

وعهد إليهم ألا يشبب أحد منهم بامرأة معلنا باسمها. وقد نفى نصر بن الحجاج بن علاط البهزي من

المدينة، وكان فتى جميلا، من أحسن أهل المدينة صورة حين سمع امرأة تنشد:

هل من سبيل إلى خمر فأشربها

أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج.

■ قال قائل أيما أفصح؟ زوجك بلفظ التذكير، أو زوجتك بإثبات علامة التأنيث؟ قيل له: زوجك على

لفظ التذكير، لأن الله تعالى يقول في كتابه العزيز (أمسك عليك زوجك) وقال الله تعالى (اسكن أنت وزوجك الجنة) وقال (ولهم فيها أزواج مطهرة). فأزواج جمع زوج

.بطرح الهاء، ولا يصح أن يكون جمع زوجة

:وأنشد أبو العباس المبرد

وأراكم لدى المحاماة عندي

.مثل صون الرجال للأزواج

.أيام التشريق أيام يشرق اللحم في الظل ■

وقال صاحب العين: أيام التشريق. كانوا يشرقون اللحم في تلك الأيام للشمس، وهي الأيام

.المعدودات، والأيام المعلومات عشر ذي الحجة

وقال صاحب العين. الزوج: امرأة الرجل، وهي لغة في الزوجة، زوجة الرجل. والزوج يقال ■

للذكر، ويقال للأنثى وهو لفظ مشترك. فالزوج المرأة التي لها بعل، والزوج: الرجل الذي له امرأة،

والزوج ضد الفرد. وأصل الزوج: الشكل. يقال: زاوج بين هذين؛ أي شاكل بينهما. وقال أبو بكر

بن دريد: كل اثنين زوج، وكل أنثى وذكر: زوجان. وفي كتاب الله تعالى

وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى) فيه (من كل زوجين اثنين). ويقال: لفلان)

.زوجان من الحمام؛ أي ذكر وأنثى، وقوله سبحانه وتعالى (سبحان الذي خلق الأزواج كلها) أي الأصناف

:والزوج النمط ويقال الديباج. قال لبيد

من كل محفوف يظل عصيه زوج عليه كلة وقرامها

وقال الله تعالى (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها) وقال تعالى (ومن آياته أن
.(خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها

ولما وصلت قطر الندى بنت خمار بن أحمد بن طولون المعروف بخمارويه إلى المعتضد بمدينة ■

السلام. قال علي بن العباس الرومي في

:ذلك

ياسيد العرب الذي قدرت له

باليمن والبركات سيدة العجم

أسعد بها كسعودها بك إنها

ظفرت بما فوق المطالب والهمم

ظفرت بمالئ ناظريها بهجة

وضميرها نبلا وكفيها كرم

شمس الضحى زفت إلى بدر الدجى

فتكشفت بهما عن الدنيا الظلم.

■ ويقال كف عن الشيء يكف كفا إذا انقبض عنه. قال الله تعالى: (ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم) وكفة الميزان بالكسر، كف الذي توضع فيه

الدراهم. وكفة الثوب بالضم حاشيته. والكفة بالضم أيضا ما يصاد به الظباء يجعل كالطوق. والكفف

دارات الوشم. والمكفوف الأعمى. وأصل الباب الجمع.

وقال أبو إسحاق الزجاج: أخذ من المنع. تقول كففته عن كذا أي منعته. وفي كتاب الله تعالى (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة)،

وانتصاب كافة على الحال.

■ من قطعة شعر قرأتها في النوادر لأبي علي أولها:

وما كنت أدري ما فواضل كفه

على الناس حتى غيبته الصفائح

فأصبح في لحد من الأرض ميتا

وكانت به حيا تضيق الضحاضح

فما أنا من رزء وإن جل جازع

ولا بسرور بعد موتك فارح

كأن لم يمت حي سواك ولم تقم

على أحد إلا عليك النوائح

لئن حسنت فيك المراثي وذكرها

لقد حسنت من قبل فيك المدائح

سأبكيك ما فاضت دموعي فإن تقض

فحسبك مني ما تحن الجوانح

ولما أسر معاوية جميل بن كعب ومثل بين يديه قال: الحمد لله الذي أمكنني منك. ألست القائل يوم■ الجمل:

أصبحت الأمة في أمر عجب

والملك مجموع غدا لمن غلب

فقلت قولا صادقا غير كذب

إن غدا تهلك أعلام العرب

قال: لا تقل ذلك فإنها مصيبة. قال له معاوية: وأي نعمة أكبرمن أن يكون الله قد أمكنني من رجل، وأظفرني برجل قتل في ساعة واحدة عدة من حماة أصحابي. آضربوا عنقه. فقال: اللهم اشهد أن معاوية لم يقتلني فيك ولا لأنك ترضى قتلي على حطام الدنيا؛ فإن فعل فافعل به ما هو أهله؛ وإن لم يفعل، فافعل به ما أنت أهله. فقال معاوية: قاتلك الله لقد سببت فأبلغت في السب، ودعوت فبالغت في الدعاء. ثم أمر به فأطلق.

وتمثل معاوية بأبيات للنعمان بن المنذر ولم يقل النعمان غيرها فيما ذكر ابن الكلبي وهي:

تعفو الملوك عن الجلي

ل من الذنوب لفضلها

ولقد تعاقب في اليسي

ر وليس ذاك لجهلها

الا ليعرف فضلها

ويخاف شدة نكلها.

ثم قال إبراهيم بعد ذلك قصيدة يشكر فيها للمأمون صنعه به. ■

يقول فيها:

إن الذي قسم المكارم كلها

من صلب آدم للإمام الشافع

جمع القلوب عليك جامع أهلها

وحوى ودادك كل خير جامع

فبذلت أعظم ما يقوم بحمله

وسع النفوس من الفعال البارع

وعفوت عمن لم يكن عن مثله

عفو ولم يشفع إليك بشافع.

■ ألا ياليل هل لك من براح

وهل لأسير نجمك من سراح

ألا يا ليل طلت علي حتى

كأنك قد خلقت بلا صباح.

■ وكان أهل الجاهلية يسمون الملائكة جنا لا ستتارهم عن العيون. والجنين: الولد في الرحم، والجميع الأجنة. قال الله تعالى (أنتم أجنة في بطون أمهاتكم) ويقال: أجنت الحامل ولدها. وقال الشاعر:

وقد أجنت علقا ملقوحا ضمنه الأرحام والكشوحا

ويقال جن الولد يجن جنا، وكذلك جن الليل، وهو يجن جنا ومجنة، وجن عليه الليل، إن غطى عليه وستره بظلمته، وأجنه الليل: أي ستره. وجنة الليل أيضا بإسقاط الألف لغة، وبها قرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وجملة من الصحابة أبو هريرة، وغيره في قوله تعالى في سورة النجم (عندها جنة المأوى).

■ شكوتم إلينا مجانينكم

ونشكو إليكم مجانينا

فلولا المعافاة كناكهم

ولولا البلاء لكانوا كنا.

■ تألفت طيف غزال الحرم

فواصلني بعدما قد صرم

فغض الجفون على غفلة

وأعرض إعراضة المحتشم

فمازلت أبسطه مادحا

.وأفرط في اللهو حتى ابتسم

■ وأخذه أبو الحسن التهامي فقال:

أحيي ليالي بتها وتميتني

ويميتهن تبلج الأنوار

حتى رأيت الفجر ترفع كفه

بالضوء رفرف خيمة كالقار

والصبح قد غمر النجوم كأنه

.سيل طما فطفا على النوار

■ (قال الله تعالى وجل (وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم

قرأ حمزة، والكسائي، وخلف بن هشام في اختياره، وحفص عن عاصم بالتوحيد،

وقرأ سائر القراء بالجمع لأنها صلوات جماعة. والإفراد لأنه مصدر يقع على القليل والكثير. وقد وافق حمزة والكسائي

.وحفصا عن التوحيد، جماعة من غير السبعة، منهم الأعمش وحميد وابن وثاب

والتوحيد اختيار أبي عبيد. وقال: الصلاة بالتوحيد عندي، أكثر من الصلوات. ألا تسمع قول الله

.تعالى (وأقيموا الصلاة) للصلوات، لا يتكلم بها إلا على العدد، كقولك: ثلاث صلوات، وأربع وخمس

وقال صاحب العين سكن يسكن سكونا، إذا ذهبت حركته. ويقال: سكنت الريح، وسكن المطر،

وسكن الغضب وسكن في معنى سكت. وهو المستعمل في أشياء كثيرة وفي كتاب الله تعالى (ولما سكت عن موسى الغضب)، أي

.سكن. شبه سكوت الغضب، بسكوت الناطق، من حيث كان ثوره، كالناطق، وسكونه كالسكوت

وفي حديث علي رضي الله عنه، فيما روى سفيان، عن أبي رزين عنه، أنه كان يقرأ: (إياك نعبد وإياك نستعين) وكان ■

قرشيا قلبا يعني قرشيا خالصا محضا والذي يراد من هذا الحديث، أن عليا كان يقرأ إياك بالهمز وهو

قرشي، والقرشيون ليس من لغتهم الهمز وفي الحديث، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بأسير

يرعد، فقال: ادفوه يريد أدفئوه، من الدفء. فذهبوا به، فقتلوه، فوداه رسول الله صلى الله

عليه وسلم

قال أبو سليمان: ولو كان يريد معنى القتل، لقال دافوه، أو دافوه، بالتثقيل. يقال: دافيت الأسير،

ودافقته، إذا أجهزت عليه.

وحكى الحسن بن أبي مهران عن أحمد بن يزيد الحلواني عن عيسى بن مينا قالون، أنه قال: كان ■

أهل المدينة لا يهمزون، حتى همز ابن جندب فهمزوا.

وحكي أن رجلا من بني أمية، وقف للرشيد على طريقه، وبيده كتاب، وفيه أربعة أبيات: ■

يا أمين الله إني قائل

قول ذي صدق ولب وحسب

لكم الفضل علينا ولنا

بكم الفضل على كل العرب

عبد شمس كان يتلوها شما

وهما بعد لأم ولأب

فصل الأرحام منا إننا

عبد شمس عم عبد المطلب

فاستحسن قوله الرشيد، وأمر له لكل بيت بألف دينار. وقال: لو زدتنا لزدناك.

وذهب يونس بن حبيب البصري في لبيك؛ إلى أنه اسم مفرد، وليس بمثنى، وان ألفه إنما انقلبت ■

ياء لاتصالها بالمضمر على حد لدي وعلي.

.وذهب سيبويه؛ إلى أنه مثنى، بدليل قلب ألفه ياء مع المظهر، وأكثر الناس على مذهب سيبويه

.قال أبو بكر بن الانباري ثنوا لبيك كما ثنوا حنانيك: أي تحننا بعد تحنن

وأصل لبيك: لببك؛ فاستثقل الجمع بين ثلاث باءات؛ فأبدل من الثالثة ياء، كما قالوا من الظن

.تظنيت. والأصل تظننت

:قال الشاعر

يذهب بي في الشعر كل فن

حتى يرد عني التظني

أراد التظنن. ومثله تسريت سرية. والأصل تسررت من السر؛ وهوالنكاح. ومثله لبيك. واشتقاقها

كما اختلف في صيغتها. فقيل: معنى لبيك: اتجاهي وقصدي إليك؛ مأخوذ من قولهم: دارى تلب

دارك: أيتواجهها. وقيل: معناها محبتي لك؛ مأخوذ من قولهم: امرأة لبة؛ إذا كانت محبة لولدها،

.عاطفة عليه وقيل معنى لبيك: إخلاصي لك؛ مأخوذ من قولهم: حسبه لباب؛ اذا كان خالصا محضا

.ومن ذلك لب الطعام، ولبابه: أي خالصه

.وقيل معنى لبيك أي أنا مقيم على طاعتك

■ وحكى إبراهيم بن المهدي عند نفسه قال: خرجت في بعض الأيام، من عند المامون، فطفت في أزقة

بغداد متنزها، حتى أتيت الى زقاق، وفيها دار بأعلاها شباك مطل. فنظرت إلى الشباك، فرأيت كفا

ومعصما، دله عقلي،

وكدت لا أتمسك على مركوبي فالتفت إلى خائط بمقربة من الدار، فمشيت إليه،

.وسألته عن صاحب الدار. فقال لي: هو رجل من تجار البز. فسألته عن اسمه. فقال: فلان بن فلان

:فقلت: أهو ممن يشرب النبيذ؟ قال لي: نعم، وأحسب أن عنده اليوم راحة. فقلت

ومن ينادمه؟ فقال: تجار مثله. فبينما أنا واقف مع الخائط أسأله، إذ أقبل فتيان راكبان في أول

الدرب. فقال الخائط: هذان منادماه اليوم. فسألته عن أسمائهما. فقال: فلان وفلان. فقلت: أكون اليوم

- طفيليا. فحركت دابتي، وداخلتهما. وقلت لهما: جعلت فداكما قد استبطاكما أبو فلان - أعزه الله

أعني صاحب الدار. وسايرتهماحتى بلغنا الباب، فأجلاني وقدماني. فدخلت، ودخلا. فلما رآني معهما،

لم يشك أني منهما، بسبيل أو قادم قدمت عليهما، فرحب بي، وأقعدني في أجل المراتب، ثم جيء

بالطعام، فأكلنا طعاما مختلف الألوان لا أدري، أطعمه طيب، أم رائحته. وكنت قبل أن أدخل المنزل، قد شممت رائحة تلك الألوان، فتمنيتها، وشغلني عنها الكف والمعصم. فقلت حينئذ: هذه الألوان! فمن لي بالكف والمعصم. ثم سرنا الى مجلس المنادمة، فحللنا في أحسن منزل فشربنا أقداحا، ثم أقبلت جارية راعني جمالها، كأنها قمر، فسلمت، وقعدت، وجئ بعود، فوضع في حجرها، فجسته، فاستبنت حذقها في جسها للعود، ثم اندفعت تغني:

توهمه طرفي فأصبح خده

وفيه مكان الوهم من ناظري أثر

وصافحه كفي فآلم كفه

فمن لمس كفي في أنامله عقر

ومر بفكري خاطرا فجرحته

ولم أر شيئا قط يجرحه الفكر

فهيجت بلابلي، وطربت بحسن شعرها، ثم غنت:

أشرت اليها هل عرفت مودتي

فردت بطرف العين إني على العهد

فجدت عن الإظهار حفظا لسرها

وحادت عن الإظهار أيضا على عمد

فصحت: السلاح وفجأني من الطرب، ما لم أملك به نفسي، ثم اندفعت تغني:

أليس عجيبا أن بيتا يضمني

وإياك لا نخلو ولا نتكلم

سوى أعين تشكو الهوى بجفونها

وتقطيع أنفاس على النار تضرم

إشارة أفواه وغمز حواجب

وتكسير أجفان وكف يسلم

فحسدتها - والله - على معرفتها بالغناء، وإصابتها المعنى، وأنها لم تخرج عن المعنى الذي ابتدأت به غناءها. فقلت: بقي عليك يا جارية، فضربت بعودها الأرض، وقالت: متى كنتم تحضرون

مجالسكم البغضاء؟ فتغير القوم لذلك، فندمت على ما كان مني، ثم قلت: أما عندكم عود غير هذا؟

قالوا: بلى. فأتيت بعود، وأصلحت من شأنه، ثم غنيت:

ما للمنازل لا يجبن حزينا

أصممن أم بعد المدى فبلينا

روحوا العشية روحة مذكورة

إن متن متنا وإن حيين حيينا

فما أتممت الغناء، حتى قامت الجارية، فأكبت على رجلي تقبلهما. وقالت: معذرة يا سيدي. فوالله ما سمعت أحدا يغني هذا الشعر غناءك. وقام مولاها، والرجلان، ففعلوا كفعلها وطربوا، واستحسنوا الشراب، فشربوا بالطاسات، ثم اندفعت أغني:

أفي الحق أن أمسي ولا تذكرينني

وقد سجمت عيناي من ذكرك الدما

إلى الله أشكو بخلها وسماحتى

لها عسل مني وتبذل علقما

فداوي مصاب العقل أنت دواؤه

ولا تتركيه ذاهل العقل مغرما

إلى الله أشكو أنها أجنبية

وإني لها بالود ما عشت مكرما

فطرب القوم حتى خرجوا عن عقولهم، أو كادوا. فأمسكت عنهم ساعة، حتى تراجعوا ثم غنيت:

هذا محبك مطويا على كمده

فاضت مدامعه سحا على جسده

له يد تسأل الرحمان راحته

مما به ويد أخرى على كبده

فجعلت الجارية تصيح: هذا والله، هذا والله، لا ما كنا فيه. وسكر القوم، وكان صاحب المنزل حسن الشرب، صحيح العقل. فأمر الغلمان أن

يخرجوا الرجلين الى منازلهما، وخلوت معه، فشربنا ساعة،

ثم قال لي: يا سيدي ذهب ما مضى من أيامي باطلا، اذ كنت لا أعرفك. فمن أنت يا مولاي؟ ولم يزل يلح علي، حتى أخبرته الخبر. فبادر الي، وجعل يقبل رأسي، ويقول: يا سيدي، ولا تكون هذه المحاسن إلا لمثلك. وإني لجالس مع الخلافة، ولا أشعر.

ثم سألني عن قصتي، فأخبرته بما رأيت من الكف والمعصم. فقال للجارية: قومي، فقولي لفلانة تنزل. فلم يزل ينزل إلي جواريه، واحدة بعد أخرى، فأنظر إلى كفها ومعصمها وأقول: ليس هي، حتى قال لي: والله ما بقي غير أمي، وأختي. ووالله لأنزلتهما اليك. فعجبت من كرمه، وسعة صدره. فقلت: جعلت فداك أبدأ بالأخت قبل الأم، فعسى أن تكون هي. فبرزت، فلما رأيت كفها ومعصمها. قلت: هي هذه. فأمر غلمانه، فصاروا إلى عشرة من جيرانه، فأقبلوا معهم، وأمر ببدرتين، فيهما عشرون ألف درهم. ثم قال للمشائخ: هذه أختي فلانة، أشهد كم أني قد زوجتها من سيدي ابراهيم بن المهدي. وأمهرتها عنه عشرة آلاف درهم فرضيت، وقبلت النكاح. ودفع إليها البدرة، وفرق الأخرى على المشايخ. وقال: انصرفوا راشدين، بارك الله عليكم. ثم قال: يا سيدي، أمهد لك في بعض البيوت، فتنام مع أهلك. وأحشمني ما رأيت من كرمه. فقلت: بل أحضر عمارية، وأحملها الى منزلي. فقال: ذلك لك. فكان ما أمرت به. فوالله لقد تبعها من الجهاز ماضاقت عنه البيوت. فجاءني منها ولد، يقوم رأس أمير المؤمنين، أيده الله.

حدث إبراهيم بن المهدي بهذه الحكاية، في مجلس: أبي العباس المأمون في اليوم الذي أذخل عليه الزنادقة العشرة، والطفيلي معهم، ساعة جيء بالرجل الطفيلي فقال المأمون من هؤلاء القوم قد نفذت عدتهم؟ فقيل له:

وجد مع القوم، فجيء به. فسأله المأمون عن قصته، فقال له: أنا رجل طفيلي.

وخبره مشهور. فأمر المأمون بتأذيبه، على فرط تطفيله، ومخاطرته بنفسه وكان إبراهيم بن المهدي قائما، بين يدي المأمون. فقال: يا أمير المؤمنين هب لي ذنبه، وأحدثك بحديث عجيب في التطفيل عن نفسي. قال: قل يا إبراهيم. فحدثه الحكاية المذكورة فتعجب؛ المأمون من كرم ذلك الرجل. وأطلق الطفيلي، وأعطاه عطية سنية، وأمر ابراهيم باحضار ذلك الرجل فصار بعد ذلك اليوم من خواص المأمون وأهل مودته ولم يزل معه على أحسن الأحوال في المنادمة وغيرها.

تعدو الذئاب على من لا كلاب له. ■

وإني لأهواها وأهوى لقاءها ■

كما يشتهي الصادي الشراب المبردا

علاقة حب لج في سنن الصبا

فأبلى وما يزداد إلا تجددا

اذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى

فكن حجرا من يابس الصخر جلمدا

قال فبكى ثم قال:

ولو أن مابي بالحصى فلق الحصى

وبالريح لم يسمع لهن هبوب

ولو أننى أستغفر الله كلما

ذكرتك لم تكتب علي ذنوب.

قال: والأبيات التي أنشدها عمر بن عبد العزيز رحمه الله هي لعبد الله بن عبد الأعلى القرشي،■

وهي عشرة أبيات قرأتها في النوادر لأبي علي البغدادي وأولها:

تجهزي بجهاز تبلغين به

يا نفس قبل الردى لم تخلقي عبثا

وسابقي بغية الآمال وانكمشي

قبل اللزام فلا منجى ولا غوثا

ولا تكدي لمن يبقى وتفتقري

إن الردى وارث الباقي وما ورثا

واخشي حوادث صرف الحينفي مهل

واستيقني لا تكوني كالذي انتجثا

عن مدية كان فيها قطع مدته

فوافق الحرث محروثا كما حرثا

لا تأمني فجع دهر مورط خبل

قد استوى عنده من طاب أو خبثا

يارب ذي أمل فيه على وجل

أضحى به آمنا أمسى وقد جئثا

من كان حين تصيب الشمس جبهته

أو الغبار يخاف الشمس والشعثا

ويألف الظل كي تبقى بشاشته

فسوف يسكن يوما راغما جدثا

في قعر موحشة غبراء مقفرة

يطيل تحت الثرى في جوفها اللبثا.

يا دولة العز من بعد الخمول ويا■

إقبال دنيا بلا شيء من الكدر

يا فرحة الصب بالمحبوب إذ ظفرت

منه اليدان به في ساعة الظفر

يابرد غلة أم غاب واحدها

مسافرا ثم وافاها من السفر

ياراحة النفس يا برد العليل إذا

أتاه بعد اتصال الوصل بالسهر

يافرحة في قلوب الناس كلهم

ياطلعة الشمس بل يا طلعة القمر

أصبحت أملح من في الناس من بشر

كأنك الأمن بعد الخوف والحذر

غصن من البان تثنيه الرياح على

زهر الرياض اذا هبت مع السحر.

■ قول أبي تمام:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى

ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى

وحنينه أبدا لأول منزل.

قال عليه السلام: "اطلبوا الحوائج عند حسان الوجوه" ونظم هذا بعض الشعراء■

فقال:

حسن ظني اليك أصلحك الل

هـ إذ قال مفصح إفصاحا

ودعاني اليك قول رسول الل

هـ دعاني فلا عدمت النجاحا

إن أردتم حوائجا عند قوم

فتلقوا بها الوجوه الصباحا

وقال الآخر:

سلوا الحاجات أصبحهم وجوها

ولا تسلو اللئام ولا القباحا

وقال الآخر:

حدثنا عن خلد خالد

وخالد حدث عن عامر

إن رسول الله في مجلس

قد قال للبادي وللحاضر

إذا أردتم حاجة فاقصدوا

كل صبيح حسن الناظر

وقال:

لقد صدق الرسول وقال حقا

وخير القول ما قال الرسول

إذا الحاجات عزت فاطلبوها

إلى من وجهه حسن جميل.

■ يقول القاضي أبو محمد عبد الوهاب المالكي رحمه الله:

وكل مودة في الله تبقى على الأيام من سعة وضيق

، وكل مودة فيما سواه فكالحلفاء في لهب الحريق.

وقال أبو الحسن التهامي في معناه:

شيئان ينقشعان أول وهلة

ظل الشباب وخلة الأشرار.

■وقوله في أول القطعة: (ولا ما كابدت كبدي). يقال منه: كابد يكابد مكابدة. والكبد: المشقة والشدة.

قال الله تعالى (لقد خلقنا الإنسان في كبد). قال ابن عباس: معناه في شدة من حمله وولادته، ورضاعته ونبت أسنانه، وقيل:

يكابد أمر الدنيا والآخرة.

■ وقال الشاعر:

لقيتهم والمنايا غير دافعة

لما أمرت به والملتقى كبد

أي شديد، ويقال للخصوم: إنهم لفي كبد من أمرهم، وبعضهم يكابد بعضا. والرجل يكابد الليل، إذا

بات ساهرا مغموما.

قال الشاعر:

أكابد هذا الليل حتى كأنما

على نجمه ألا يغور يمين.

■ سلام على حمص وإن غير البلى

معاهد منها نلت فيها الأمانيا

وحق لهامني السلام لأنني

وردت بها ماء الشبيبة صافيا

وفي وجنات الدهر إذ ذاك رونق

كما رونق الصقل الحسام اليمانيا.

■ وقال القاضي أيضا:

قوس الشيب قناتي

بعد أن كانت سويه

وغدا يشدو برأسي

أنا عنوان المنيه

وقال أيضا في المعنى:

تعجبت أن رأت مشيبي

يضحك في مفرقي سميه

لا تعجبي فالبياض زي

من زي قومي بني أميه.

■ يا من أتى يخرص الزيتون فارغة

ويستدل على ما فات بالورق

أتعلم الغيب دون الناس كلهم

لا والذي خلق الإنسان من علق

وإنما أنت فيما تستدل به

كثاقب الدر في داج من الغسق

فتب إلي الله واحذر من عواقبه

(من يركب البحر لا يأمن من الغرق).

كمل السفر الأول من النسخة الكبرى من كتاب "كنز الكتاب ومنتخب الآداب" بحمد الله وعونه ■

والصلاة على سيدنا ومولانا محمد نبيه المصطفى وعلي آله وصحبه وسلم تسليما.

وفي يوم الجمعة الثالث والعشرين من شهر المحرم مفتتح عام ثلاثة وتسعين وتسعمائة عرف الله بركته وخيره.

موجز مصارع العشاق

جعفر بن أحمد بن الحسين السراج القاري البغدادي، أبو محمد (المتوفى: 500هـ)

يا قلب لم عرضت نفسك للهوى■

أوما رأيت مصارع العشاق؟.

مررت بقبرٍ مشرقٍ وسط روضة ■

عليه من النوار ثوب شقائق.

فقلت: لمن هذا؟ فجاوبني الثرى

ترحم عليه إنه قبر عاشق.

جلست لها كيما تمر لعلي ■

أخالسها التسليم، إن لم تسلم

فلما رأتني والوشاة تحدرت

مدامعها خوفا ولم تتكلم

مساكين أهل العشق ما كنت أشتري

حياة جميع العاشقين بدرهم.

■ زموا المطايا واستقلوا ضحى

ولم يبالوا قلب من تيموا.

ما ضرهم، والله يرعاهم،

لو ودعوا بالطرف أو سلموا.

ما زلت أذري الدمع في إثرهم،

حتى جرى من بعد دمعي دم.

ما أنصفوني، يوم بانوا ضحى،

ولم يفوا عهدي ولم يرحموا.

شيعتهم من حيث لم يعلموا،

ورحت، والقلب بهم مغرم.

سألتهم تسليمة منهم

علي، إذ بانوا، فما سلموا.

ساروا، ولم يرثوا لمستهتر،

ولم يبالوا قلب من تيموا.

واستحسنوا ظلمي، فمن أجلهم

أحب قلبي كل من يظلم.

■ لا تعذليه :

لا تعذليه، فإن العذل يولعه

قد قلت حقا، ولكن ليس يسمعه.

جاوزت في نصحه حدا أضر به

من حيث قدرت أن النصح ينفعه.

قد كان مضطلعا بالخطب يحمله،

فضلعت بخطوب البين أضلعه.

ما آب من سفر إلا وأزعجه

عزمٌ إلى سفر بالرغم يزمعه.

كأنما هو في حل ومرتحل

موكل بقضاء الله يذرعه.

أستودع الله، في بغداد، لي قمرا

بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه.

وكم تشفع بي أن لا أفارقه،

وللضرورات حال لا تشفعه.

وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحى،

وأدمعي مستهلات وأدمعه.

أعطيت ملكا فلم أحسن سياسته،

وكل من لا يسوس الملك يخلعه.

ومن غدا لابسا ثوب النعيم بلا

شكر عليه، فعنه الله ينزعه.

كأنك لم تسمع بكاء حمامة ■

بليل، ولم يحزنك إلف مفارق.

ولم تر مفجوعا بشيء يحبه

سواك، ولم يعشق كعشقك عاشق.

علاج العشق ■ :

وحكى بعضهم عن شيخ من أهل اليمن أنه وجد في كتاب بالمسند، وهي لغة حمير، كلاما كانت حمير ترقي به العاشق، فيسلو. وهو:

ما أحسنت سلمى إليك صنيعا،

تركت فؤادك بالفراق مروعا

قال: فحدثت بهذا الحديث كاهنة كانت هناك، فلما كان من غد ذلك اليوم، لقيتني فقالت: إني رأيت البارحة الشعر يحتاج أن يقلب كلامه وحروفه، حتى يسلو به العاشق. قلت: فكيف يقلب كلامه؟ قالت: يقول مروعا بالفراق فؤادك تركت صنيعا إليك سلمى. أحسنت ما.

: أجر العاشق المتعفف ■

قال الجوهري: وأنشدني محمد بن محمد الصائغ:

سأكتم ما ألقاه، يا فوز، ناظري،

من الوجد كيلا يذهب الأجر باطلا

فقد جاءنا عن سيد الخلق أحمد،

ومن كان برا بالعباد وواصلا

بأن من يمت في الحب يكتم وجده،

يموت شهيدا في الفراديس نازلا

رواه سويد عن علي بن مسهر،

فما فيه من شك لمن كان عاقلا

وماذا كثير للذي بات مفردا،

سقيما، عليلا، بالهوى متشاغلا

أكني بغيرك واعنيك■

وأخبرنا التنوخي قال: تقلت من خط أبي إسحق الصابي:

أكني بغيرك في شعري وأعنيك،

تقية، وحذارا من أعاديك

فإن سمعت بإنسان شغفت به،

فإنما هو ستر دون حبيك

غالطتهم دون شخص لا وجود له،

معناه أنت، ولكن لا أسميك

أخاف من مسعدي في الحب زلته،

وكيف آمن فيه كيد واشيك

ولو كشفت لهم ما بي وبحت به

لاستعبروا رحمة من محنتي فيك.

■ تشوق لما عضه القيد واجتوى

مراتعه من بين قف وأجرعا

ورام بعينيه جبالا منيفة،

وما لا يرى فيه أخو القيد مطمعا

إذا رام منها مطلعا رد شأوه

أمين القوى، عض اليدين فأوجعا

بأكبر من وجد بريا، وجدته،

غداة دعا داعي الفراق فأسمعا

خليلي قف، لا بد من رجع نظرة

مصعدة، شتى بها القوم أو معا

مغتصب قد عزه الشوق أمره،

يسر، حياء، عبرة إن تطلعا

تهيج له الأحزان والذكر، كلما

ترنم، أو أوفى من الأرض ميفعا

تلفت للإصغاء، حتى وجدتني

وجعت من الإصغاء ليتا وأخدعا

قفا ودعا نجدا ومن حل بالحمى،

وقل لنجد عندنا أن يودعا

حننت إلى ريا، ونفسك باعدت

مزارك من ريا وشعباكما معا

فما حسن أن تأتي الأمر طائعا،

وتجزع إن داعي الصبابة أسمعا

وليست عشيات الحمى برواجع

عليك، ولكن خل عينيك تدمعا

بكت عيني اليسرى، فلما زجرتها

عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا

وأذكر أيام الحمى ثم أنثني

على كبدي من خشية أن تصدعا.

■

قمرٌ نام في قمر■

قمر نام في قمر

من نعاس ومن سكر

ليس يدري محبه،

وهو ذو فطنة، خبر

أبهذا انجلى الدجى،

أم بذا أشرق القمر.

لقد كنت حسب النفس، لو دام ودنا، ■

ولكنما الدنيا متاع غرور

وكنا جميعا قبل أن يظهر الهوى،

بأنعم حالٍ غبطة وسرور

فما برح الواشون حتى بدت لنا

بطون الهوى مقلوبة لظهور.

■ سمعت أبا بكر بن عياش يقول: كنت في زمن الشباب، إذا أصابتني مصيبة، تجلدت، ودفعت البكى بالصبر، وكان ذلك يؤذيني ويؤلمني، حتى رأيت أعرابيا بالكناسة واقفا على نجيب وهو ينشد:

خليلي عوجا من صدور الرواجل،

بجمهور حزوى، وابكيا في المنازل

لعل انحدار الدمع يعقب راحة،

من الوجد أو يشفي نجي البلابل

فأصابتني بعد ذلك مصائب فكنت أبكي، فأجد لذلك راحة، فقلت: قاتل الله الأعرابي ما كان أبصره!

■والأبيات لعبد الصمد بن المعذل:

يا بديع الدل والغنج!

لك سلطان على المهج

إن بيتا أنت ساكنه

غير محتاج إلى السرج

وجهك المعشوق حجتنا

يوم يأتي الناس بالحجج.

والصوفية إذا قالوا: وجهك المأمول، نقلوه إلى ما لهم في ذلك من المعاني.

■ فقال هذا الشيخ مخاطبا له:

إن الذين بخير كنت تذكرهم

قضوا عليك وعنهم كنت أنهاكا

فقال له الفتى: ما أصنع الآن؟ فقال له:

لا تطلبن حياة عند غيرهم،

فليس يحييك إلا من توفاكا

أرى الإلف يسلو للتنائي وللغنى، ■
ولليأس، إلا أنني لست ساليا
بنفسي ومالي قاسيا لو وجدته
على النحر فاستسقيته ما سقانيا
ومن لو رأى الأعداء ينتضلونني
لهم غرضا، يرمونني لرمانيا
ومن لو أراه عانيا لكفيته،
ومن لو رآني عانيا ما كفانيا
ومن قد عصيت الناس فيه جماعة،
وصرمت خلانا له، وجفانيا

أنشدت لقيس بن الملوح: ■
فماذا عسى الواشون أن يتحدثوا
سوى أن يقولوا إنني لك عاشق
نعم! صدق الواشون! أنت كريمة
علي، وأهوى منك حسن الخلائق

ثلاث كبكرات الهجان عطابل، ■
نواعم يقتلن اللئيم المسببا
خلون، وقد غابت عيون كثيرة،
من اللاء قد يهوين أن يتغيبا
فبحن بما يخفين من لاعج الهوى،
معا، واتخذن الشعر ملهى وملعبا

عجبت له أن زار في النوم مضجعي،

ولو زارني مستيقظا كان أعجبا

وإذ أخبرت ما أخبرت وتضاحكت،

تنفست الأخرى، وقالت تطربا:

وما زارني في النوم إلا خياله،

فقلت له: أهلا وسهلا ومرحبا

وشوقت الأخرى وقالت مجيبة

لهن بقول كان أشهى وأعذبا:

بنفسي وأهلي من أرى كل ليلة

حبيبي)، ورياه من المسك أطيبا)

فلما تبينت الذي قلن وانبرى

لي الحكم لم أترك لدى القول معتبا

قضيت لصغراهن بالظرف، إنني

رأيت الذي قالت إلى القلب أطربا

■ رثاء :

إني وإن عرضت أشياء تضحكني، ■

لموجع القلب مطوي على الحزن

إذا دجا الليل أحيا لي تذكره،

والصبح يبعث أشجانا على شجن

وكيف ترقد عين صار مؤنسها

بين التراب، وبين القبر والكفن

أبلى الثرى وتراب الأرض جدته،

كأن صورته الحسناء لم تكن.

كلنا هجائن و مولدين: ■

حدثني الحسن الوصيف حاجب المهدي قال: كنا بزيالة، وإذا أعرابي يقول: يا أمير المؤمنين، جعلني الله ■ فداءك! إني عاشق. قال: وكان يحب ذكر العشاق والعشق، فدعا الأعرابي، فلما

دخل عليه قال: سلام عليك، يا أمير المؤمنين، ورحمة الله وبركاته، ثم قعد. فقال له: ما اسمك؟ فقال: أبو مياس. قال: يا أبا مياس! من عشيقتك؟ قال: ابنة عمي، وقد أبى أبوها أن يزوجنيها. قال: لعله أكثر منك مالا؟ قال: لا! قال: فما القصة؟ قال: أدن مني رأسك؟ قال: فجعل المهدي يضحك وأصغى إليه رأسه، فقال: إني هجين، قال: ليس يضرك ذاك، إخوة أمير المؤمنين وولده أكثرهم هجن. يا غلام علي بعمه.

قال: فأتي به، فإذا أشبه خلق الله بأبي مياس كأنهما باقلاة فلقت. فقال المهدي: ما لك لا تزوج أبا مياس وله هذا اللسان والأدب وقرابته منك؟ قال: إنه هجين. قال: فإخوة أمير المؤمنين وولده أكثرهم هجن، فليس هذا مما ينقصه، زوجها منه، فقد أصدقتها عنه عشرة آلاف درهم، قال: قد فعلت. فأمر له بعشرين ألف درهم، فخرج أبو مياس، وهو يقول:

ابتعت أسواق القباح لأهلها؛

إن القباح وإن رخصن غوال.

اعشقوا، فإن العشق يطلق اللسان العيي ويفتح حيلة البليد والمخبل، ويبعث على التنظف وتحسن اللباس، ■ وتطييب المطعم، ويدعو إلى الحركة والذكاء، وتشرف الهمة، وإياكم والحرام.

أخبرنا زياد بن صالح الكوفي قال: كان العلاء بن عبد الرحمن التغلبي من أهل الأدب والظرف، فواصلته ■

جارية من جواري القيان، فكان يظهر لها ما ليس في قلبه، وكانت الجارية على غاية العشق له، والميل إليه، فلم يزالا على ذلك حتى ماتت الجارية عشقا له ووجدا به، فذكرها بعد ذلك وأسف على ما كان كمن جفائه لها وإعراضه عنها، فرآها ليلة في منامه، وهي تقول له:

أتبكي بعد قتلك لي عليا، ... فهلا كان ذا إذ كنت حيا.

سكبت دموع عينك في انهلال، ... ومن قبل الممات تسي إليا.

أقل من النياحة والمراثي، ... فإني ما أراك صنعت شيا.

قال: وأنشدني بعض أصحابنا لبسار: ■

وكأن حلو حديثها،

قطع الرياض كسين زهرا.

وكأن تحت لسانها

هاروت ينفث فيه سحرا.

وتخال ما جمعت علي

ه ثيابها ذهبا وعطرا.

وكأنها برد الشرا

ب صفا ووافق منك فطرا.

العشاق الأعفاء■

قال وأنشدنا إبراهيم بن محمد بن عرفة لنفسه:

كم قد ظفرت بمن أهوى فيمنعني

منه الحياء وخوف الله والحذر.

وكم خلوت بمن أهوى فيقنعني

منه الفكاهة والتحديث والنظر.

كذلك الحب لا إتيان معصية،

لا خير في لذة من بعدها سقر.

عاشقان يصليان■

أنبأنا أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت قال: أخبرنا أبو الحسن علي بن أيوب قال: حدثنا محمد بن عمران قال: حدثني أحمد بن محمد الجوهري قال: حدثنا الحسن بن عليل العنزي قال: رأيت عاشقين اجتمعا، فجعلا يتحدثان من أول الليل إلى الغداة، ثم قاما إلى الصلاة.

ماذا أردت إلى روح معلقة■

عند التراقي، وحادي الموت يحدوها

حثثت حاديها ظلما، فجد بها

في السير، حتى تولت عن تراقيها

حجبت من كان يحيي عند رؤيته

روحي، ومن كان يشفيني تلاقيها

فالنفس ترتاح نحو الظلم جاهلة،

والقلب مني سليم ما يؤاتيها

والله لو قيل لي تأتي بفاحشة،

وإن عقباك دنيانا وما فيها

لقلت: لا والذي أخشى عقوبته

ولا بأضعافها ما كنت آتيها

لولا الحياء لبحنا بالذي كتمت

بنت الفؤاد، وأبدينا تمنيها

إني جعلت همومي ثم أنفاسي■

في الصدر مني ولم يظهره قرطاسي

ولم أكن شاكيا ما بي إلى أحد

إني إذا لقليل العلم بالناس

فاستعصمي الله، مما قد بليت به،

واستشعري الصبر، عما قلت، بالياس

إني عن الحب في شغل يؤرقني

تذكار ظلمة قبر فيه أرماسي

ففيه لي شغل لا زلت أذكره،

من السؤال ومن تفريق أحلاسي

وليس ينفعني فيه سوى عملي،

هو المؤانس لي من بين أناسي

فاستكثري من تقى الرحمن واعتصمي،

ولا تعودي، فبي شغل عن الناس.

بنفسي من يدعوه حبي إلى التقى■

وخوف عذاب الله في ساعة الحشر

ويترك ما يهوى له ويخافه،

ويقنع بالتذكار والنظر الشزر

ولم يزد التذكار إلا تهيجا

لزفرته بين الجوانح والصدر

لئن قنعت نفس المحب من الهوى

بهاجسة التذكار أو دمعة تجري

ولم تتهيج للمحارم، إنه

لذو خيفة لله في السر والجهر.

ليلى الأخيلية والحجاج ■

فأنشأت ليلى الأخيلية تقول:

أحجاج لا يفلل سلاحك إنما ال

منايا بكف الله حيث تراها.

أحجاج لا تعط العصاة مناهم،

ولا الله يعطي للعصاة مناها.

إذا هبط الحجاج أرضا مريضة

تتبع أقصى دائها فشفاها.

شفاها من الداء العضال الذي بها

غلام إذا هز القناة سقاها.

سقاها، فرواها بشرب سجاله

دماء رجال حيث قال حماها.

إذا سمع الحجاج رز كتيبة،

أعد لها قبل النزول قراها.

أعد لها مسمومة فارسية

.بأيدي رجال يحلبون صراها

فما ولد الأبكار والعون مثله،

.بنجد ولا أرض يجف ثراها

قال: فلما قالت هذا، قال الحجاج: قاتلها الله! ما أصاب صفتي شاعر مذ دخلت العراق غيرها، ثم التفت إلى .عنبسة بن سعيد فقال: والله إني لأعد للأمر عسى أن لا يكون أبدا، ثم التفت إليها فقال: حسبك

قالت: إني قد قلت أكثر من هذا، قال: حسبك، ويحك حسبك، ثم قال: يا غلام اذهب إلى فلان فقل له اقطع لسانها. قال: فأمر بإحضار الحجام، فالتفتت إليه فقالت: ثكلتك أمك! أما سمعت ما قال؟ إنما أمرك أن تقطع لساني بالصلة. فبعث إليه يستثبته، فاستشاط الحجاج

غضبا، وهم بقطع لسانه وقال: ارددها، فلما دخلت عليه قالت: كاد، وأمانة الله، يقطع مقولي. ثم أنشأت :تقول

حجاج! أنت الذي ما فوقه أحد

.إلا الخليفة والمستغفر الصمد

حجاج! أنت شهاب الحرب إذ لقحت،

.وأنت للناس في جنح الدجى تقد

ثم أقبل الحجاج على جلسائه فقال: أتدرون من هذه؟ قالوا: لا والله أيها الأمير إلا أنا بم نر امرأة قط أفصح لسانا ولا أحسن محاورة ولا أملح وجها ولا أرصن شعرا منها. فقال: هذه ليلى الأخيلية التي مات توبة الخفاجي من حبها، ثم التفت إليها فقال: أنشدينا يا ليلى بعض ما قال فيك توبة. فقالت: نعم أيها الأمير، هو :الذي يقول

وهل تبكين ليلى إذا ما بكيتها

.وقام على قبري النساء النوائح

كما لو أصاب الموت ليلى بكيتها،

.وجاد لها دمع من العين سافح

وأغبط من ليلى لا أناله،

.بلى! كل ما قرت به العين صالح

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت

.علي، ودوني تربة وصفائح

لسلمت تسليم البشاشة أو زقا

إليها صدى من جانب القبر صائح.

وأنبأنا القالي، أخبرنا ابن دريد حدثنا أبو حاتم للعوام بن عقبة بن كعب: ■

أإن سجعت في بطن واد حمامة

تجاوب أخرى ماء عينيك دافق.

كأنك لم تسمع بكاء حمامة

بليل، ولم يحزنك إلف مفارق.

ولم تر مفجوعا بشيء يحبه

سواك، ولم يعشق كعشقك عاشق.

بلى فأفق عن ذكر ليلى، فإنما

أخو الصبر من كف الهوى وهو تائق.

كان خضر بن زهرة الشيباني من أعبد الصوفية، وأنسكهم وأشدهم اجتهادا، وأملكهم لنفسه، وكان مقبول ■ القول مطاعا في بلده، فارسا شجاعا، ذا مال وافر، فنشأ له غلام قد رباه كأحسن ما رؤي من الغلمان في حفظ القرآن وحفظ الحديث وحجسن المناظرة والأدب والعبادة، وكان قد أخذ عنه، وسمع حتى كان بعض الناس يوازيه به في الفروسية والشجاعة والمعرفة، وكانا ملازمين لغزو، فخرجا في بعض السرايا، فأصيبت السرية، وأفلت منها جرحى، وفيها خضر وغلامه جريحان، مثخنان،

فكمنا في بعض الغياض، فاشتدت علة الغلامن وضعف عن الحركة والنهوض، فأقمنا عليه ثلاثا، ونزل به الموت، فأقبل يضحك أحيانا، ويبكي أحيانا، فقال له خضر: مم تضحك يا بني؟ قال: أضحك إلى جوار يضحكن إلي، ويقبلن بوجوههن علي.

قال: فما يبكيك؟ قال: أبكاني فراقك وحبسك في الدنيا بعدي.

قال: أما لئن قلت ذلك يا بني ليكونن عمري بعدك قصيرا، وحزني عليك كثيرا، وفرحي بعدك قليلا، وقلبي بفراقك عليلا، فسبحان من أبقاني بعدك للأحزان، وعرضني لنوائب الزمان، وجعلني غرضا لنوازل الحدثان.

وبكى حتى انقطع عن الكلام، فقال له: لا تبك فإن لقاءنا قريب، واجتماعنا سريع.

فقال: أتوصي بشيء يا بين حتى أبلغ فيه محبوبك؟ قال: نعم! قال: قل! قال: عليك بالصبر بعدي، فغنها درجة الأبرار، ومعقل الأخيار، وإياك والجزع، فإنه سبيل لكل ضعيف، ومعول كل حاطئ، وغياك والزيغ،

والزم ما أنت عليه، فإنه يوشك أن يقدم بك على غبطة وسرور وسعادة وحبور، فلو رأيت ما أعد الله تعالى لي من الكرامة، وتفضل علي به من الرحمة، لأحببت أن تكون المقدم إليه قبلي.

فقال: لقد سررتني يا بني بما وصفت، وغبطتك بما قد بلغت، فهل بقي سبيل أمر من أمور الدنيا تحب أن تبلغه حتى أبلغه لك إن رزقني الله العافية، وتخلصت سالما، ووهبت لي الحياة.

قال: نعم! تجعل لي معك سالما، ووهبت لي الحياة.

قال: نعم! تجعل لي معك سهما في حجك وغزوك وصدقتك.

قال: قد فعلت، لوالدي الثلث ولك الثلث، مما تفضل الله به علي

من الأجر.

فقال: أما إذ بدا لك ما سألت، فإني أقول لم أكن قلته لك، ولا أطلعتك عليه: ما أتيت أمرا من أمور الخير إلا قلت: اللهم ما قسمت لي فيه من أجر فاجعله لمولاي دوني.

قال: بم استحققت ذلك منك يا بني؟

قال: لأنك ملكتني صغيرا، فاحسنت ملكي، وصحبتي كبيرا، فوقفت في صحبتي، وخفت مقام الله في، ونزهت نفسك عن السوء، وصنتني عن أفعال قد كانت عن غيرك مأثورة عنهم، ومحفوظة مشهورة، قد تحدث بها النساك عنهم وسمعوها منهم، وشهدت الحفظة وكتبتها الملائكة من هجومهم على السيئات وركوبهم الفاحشات، وجموحهم في الباطل وتركهم سبيل الحق، وإيثارهم لشهواتهم في جميع حالاتهم، وقد صحبتك على مر الأيام وكر السنين فلم أرك تؤثر شيئا من هواك على أمر آخرتم، ولم أر أحدا الله أهيب في قلبه منك، فنفعك الله بذلك، وجعله سببا للنظر إلى وجهه، والبلاغ إلى رحمته، والخلوة في داره، والمقام في جواره.

قال أبو محمد بن زرعة: فدنوت منه، وقلت: بابي أنت وأمي! اجعلني في شفاعتك.

قال: أنت الرفيق والصاحب، أنت أول من أشفع له بعد مولاي، ولهؤلاء الذين معك.

فقال له مولاه: يا بين! هل تجد للموت ألما، وترى من مقدماته علما؟ فإن كنت ترى شيئا، فحدثني بكل ما تراه قبل أن تغلب على الحديث، فلا يمكنك أن تخبرني بشيء مما تجد أو ترى.

قال: أما ما أجده قلبي كأنه سعفة في يوم ريح عاصف من خفقانه، أو ريشة في جناح طائر إذا أمعن في طيرانه، وأجد نفسي ساعة بعد ساعة تذبل كالسراج إذا أراد أن يطفأ، وأجد عيني كأن

الأسنة تنخسها، فما أقدر على جمرة تتوقد، واجد عظامي كأنه بين رحيين تطحنانها، وأجد أمعائي وأحشائي كأنها في أفواه سباع تمضغها.

فبكى خضر وقال: كف عني، لا تصف شيئا، فقد كاد عقلي أن يذهل بصفتك وقلبي يتصدع مما نزل بك.

فقلت له: أليس في ما سمعت وسمعنا أن الشهيد لا يجد من ألم السلاح إلا كما يجد أحدكم ألم الشوكة أو أقل؟ قال: بلى! قال: فقلت: أفلست شهيدا مثلهم؟ قال: بلى! قلتك فما بالك أنت تألم من بينهم؟ قال: إنما ذلك عند خروج النفس ورؤية ملك الموت، ولم أبلغ بعد إلى ذلك.

فقال له خضر: فهل ترى شيئا.

قال: أرى صورا مقبلة لها أجنحة تطير بها، ترفرف بين السماء والأرض.

قال: فهل قرب منك أحد منها؟ قال: نعم جماعة.

قال: صفهم لي.

قال: أرى صورا لم أر أحسن منها منظرا، بعضهم جناحاه من لؤلؤ وسائر بدنه من ياقوت، وبعشهم جناحاه من ياقوت وسائر بدنه من زمرد.

قال: فهل ترى ملك الموت؟ قال: ما أراه! أليس في ما كتبت من الحديث أن العبد إذا عاين ملك الموت شخص ثم أمسك ساعة فلم يتكلم؟ فقال له خضر: هل ترى شيئا؟ قال: أرى شخصا قد هبط من السماء إلى الأرض حتى سد ما بين الخافقين، قد نشر أجنحته، فأشرقت الشمس من حسنه وأضاءت الدنيا من نوره، وسكن عني ما أجد من الألم حتى كأنه لم يكن، فما أحس منه شيئا، ثم سكت، فلم يتكلم بكلمة حتى مات، رحمه الله.

■أنشدنا أحمد بن عبيد:

ضعفت عن التسليم يوم فراقها،

فودعتها بالطرف والعين تدمع.

وأمسكت عن رد السلام، فمن رأى

محبا بطرف العين قبلي يودع.

رأيت سيوف البين عند فراقها،

بأيدي جنود الشوق، بالموت تدفع.

عليك سلام الله مني مضاعفا،

إلى أن تغيب الشمس من حيث تطلع.

■ حدثني محمد بن الحسين في إسناد لا أحفظه قال: علق فتى من الحي بنت عم له، فخطبها إلى أبيها، فرغب بها عنه، فبلغ ذلك الجارية، فأرسلت إليه: قد بلغني حبك إياي، وقد أحببتك لذلك لا لغيره، فإن شئت خرجت إليك بغير علم أهلي، وإن شئت سهلت لك المجيء. فأرسل إليها: كل ذلك لا حاجة لي فيه، إني

أخاف أن يلقيني حبك في نار لا تطفأ وعذاب لا ينقطع أبداً. فلما جاءها الرسول بكت، ثم قالت: لا أراك راهبا، والله، ما أحد أولى بهذا الأمر من أحد، إن الخلق في الوعد والوعيد مشتركون.

قال: فتدرعت الشعر وأقبلت على العبادة، فكبر ذلك على أهلها

وعلى أبيها، فلم تزل تتعبد حتى ماتت. فكان الفتى يأتي قبرها كل ليلة، فيدعوه لها ويستغفر وينصرف. فأخبرنا أنه رآها في المنام فقال لها: فلانة؟ قالت: نعم، ثم قالت:

نعم المحبة، يا سؤلي، محبتكم،

حب يجر إلى خير

إلى نعيم وعيش لا زوال له،

في جنة الخلد خلد ليس بالفاني.

قال: فقلت لها: أيتها الحبيبة، أفتذكرينني هناك؟ قال: فقالت: والله إني لأتمناك على مولاي ومولاك، فأعني على نفسك بطاعته، فلعله يجمع بيني وبينك في داره، ثم ولت، فقت لها: متى أراك؟ قلت: تراني قريبا إن شاء الله. قال: فلم يلبث الفتى بعد هذه الرؤيا إلا قليلا حتى مات فدفن إلى جانبها.

ابن الرومي:

عيني لعينك حين تبصر مقتل

لكن عينك سهم حتف مرسل.

ومن العجائب أن معنى واحدا

هو منك سهم، وهو مني مقتل.

قال لنا أبو الحسين محمد بن علي بن الجاز وزادني أبو علي الحسن بن علي المتصوف:

والحرص في المرء، والأرزاق قد قسمت،

بغي، ألا إن بغي المرء يصرعه.

لو أنني لم تقع عيني على بلد

في سفرتي هذه إلا وأقطعه.

اعتضت من وجه خلي، بعد فرقته،

كأسا تجرع منها ما أجرعه.

: مجنون دير هرقل

ما أناخوا، قبيل الصبح، عيسهم،

ورحلوها، فسارت بالهوى الإبل.

وقلبت، من خلال السجف، ناظرها،

ترنو إلي ودمع العين منهمل.

فودعت ببنان عقدها عنم،

ناديت لا حملت رجلاك يا جمل.

ويلي من البين! ماذا حل بي وبها؟

يا نازح الدار حل البين وارتحلوا.

يا راحل العيس عرج كي أودعها،

يا راحل العيس في ترحالك الأجل.

إني على العهد لم أنقض مودتكم،

فليت شعري، وطال العهد، ما فعلوا؟

■ خلس الزمان أعز مختلس،

ويد الزمان كثيرة الخلس.

لله هالكة فجعت بها،

ما كان أبعدها من الدنس.

أتت البشارة والنعي بها،

يا قرب مأتمها من العرس.

ثم قالت الثانية:

ذهب الزمان بأنس نفسي عنوة،

وبقيت فردا ليس لي من مؤنس.

أودى بملك ولو تفادى نفسها،

لفديتها ممن أعز بأنفس.

■ رأيت في كتاب الأخبار لأبي أن المأمون لما خرج إلى خرسان كان في بعض الليل جالسا في ليلة مقمرة إذ سمع مغنيا يغني من خيمة له:

قالوا: خراسان أقصى ما تحاوله،

ودون ذاك، فقد جزنا خراسانا.

ما أقدر الله أن يدني بعزته

سكان دجلة من سكان جيحانا.

عينا أظن أصابتنا، فلا نظرت،

وعذبت بصنوف الهجر ألوانا.

متى يكون الذي أرجو وآمله،

أما الذي كنت أخشاه فقد كانا.

فخرج المأمون من موضعه حتى وقف على الخيمة، وعلمها، فلما كان من الغد وجه فأحضر صاحب الخيمة، وهو شاب، فسأله عن اسمه، فقال العباس بن الأحنف. قال: أنت الذي كنت تقول:

متى يكون الذي أرجو وآمله،

أما الذي كنت أخشاه فقد كانا.

قال: نعم. قال: ما شأنك؟ قال: يا أمير المؤمنين تزوجت ابنة عم لي، فنادى مناديك يوم أسبوعي في الرحيل إلى خراسان، فخرجت، فأعطاه رزق سنة، ورده إلى بغداد، وقال: أقم إلى أن تنفقها، فإذا نفدت رجعت.

■ أخبرنا أبو القاسم عبد العزيز بن علي بن شكر قال: حدثنا أبو الحسن علي بن عبد الله الهمذاني بمكة قال: حدثنا إبراهيم بن علي قال: حدثنا محمد بن جعفر الكاتب عن محمد بن الحسن البرجلاني عن جعفر بن معاذ قال: أخبرني أحمد بن سعيد العابد عن أبيه قال: كان عندنا بالكوفة شاب يتعبد ملازما للمسجد الجامع، لا يكاد يخلو منه، وكان حسن الوجه، حسن القامة، حسن السمت، فنظرت إليه امرأة ذات جمال، وعقل، فشغفت به، وطال ذلك عليها، فلما كان ذات يوم وقفت له على طريقه، وهو يريد المسجد، فقالت له: يا فتى اسمع مني كلمات أكلمك بها، ثم اعمل ما شئت. فمضى ولم يكلمها. ثم وقفت

له بعد ذلك على طريقه، وهو يريد منزله، فقالت له: يا فتى اسمع كلمات أكلمك بها. فأطرق فقال لها: هذا موقف تهمة، وأنا أكره أن أكون للتهمة موضعا. فقالت له: والله ما وقفت موقفي هذا جهالة مني بأمرك، ولكن معاذ الله أن يتشوف العباد إلى مثل هذا مني، والذي حملني على أن لقيتك في هذا الأمر بنفسي معرفتي

أن القليل من هذا عند الناس كثير، وأنتم، معاشر العباد، في مثال القوارير أدنى شيء يعيبه، وجملة ما أكلمك به أن جوارحي كلها مشغولة بك، فالله الله في أمري وأمرك.

قال: فمضى الشاب إلى منزله، وأراد أن يصلي فلم يعقل كيف يصلي، فأخذ قرطاسا وكتب كتابا، ثم خرج من منزله. فإذا بالمرأة واقفة في موضعها، فألقى إليها الكتاب، ورجع إلى منزله. وكان في الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم. اعلمي أيتها المرأة أن الله، تبارك وتعالى، إذا عصي حلم، فإذا عاود العبد المعصية ستر، فإذا لبس لها ملابسها غضب الله، عز وجل، لنفسه غضبة تضيق منها السموات والأرضون والجبال والشجر والدواب، فمن ذا الذي يطيق غضبه؟ فإن كان ما ذكرت باطلا، فإني أذكرك يوما تكون السماء كالمهل، وتصير الجابل كالعهن، وتجثو الأمم لصولة الجبار العظيم، وإني والله قد ضعفت عن إصلاح نفسي، فكيف بصلاح غيري، وإن كان ما ذكرت حقا فإني أدلك على طبيب، هو ولي الكلوم الممرضة، والأوجاع المرمضة، ذلك الله رب العالمين، فاقصديه على صدق المسألة، فإني متشاغل عنك بقوله، عز وجل: وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع، يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور، والله يقضي بالحق، فأين المهرب من هذه الآية؟ ثم جاءت بعد ذلك بأيام فوقفت له على طريقه، فلما رآها من بعيد

أراد الرجوع إلى منزله لئلا يراها، فقالت: يا فتى لا ترجع، فلا كان الملتقى بعد هذا أبدا إلا بين يدي الله، عز وجل. وبكت بكاء كثيرا، ثم قالت: أسأل الله، عز وجل. الذي بيده مفاتيح قلبك أن يسهل ما قد عسر من أمرك. ثم تبعته فقالت: امنن علي بموعظة أحملها عنك، وأوصني بوصية أعمل عليها! فقال لها الفتى: أوصيك بحفظ نفسك من نفسك وأذكرك قوله عز وجل: وهو الذي يتوفاكم بالليل، ويعلم ما جرحتم بالنهار.

قال: فأطرقت، وبكت بكاء أشد من بكائها الأول، ثم أفاقت، فقالت: والله ما حملت أنثى ولا وضعت إنسا كمثلك في مصري وأحيائي. وذكرت أبياتا آخرها:

لألبسن لهذا الأمر مدرعة،

ولا ركنت إلى لذات دنيايا.

ثم لزمت بيتها فأخذت بالعبادة. قال: فكانت إذا أجهدها الأمر تدعو بكتابه فتضعه على عينيها، فيقال لها: وهل يغني هذا شيئا؟ فتقول: وهل لي دواء غيره؟ وكان إذا جن عليها الليل قامت إلى محرابها، فإذا صلت قالت:

يا وارث الأرض هب لي منك مغفرة،

وحل عني هوى ذا الهاجر الداني.

وانظر إلى خلتي، يا مشتكى حزني،

بنظرة منك تجلو كل أحزاني.

قال محمد بن حريث الشيباني عن أبيه عن أبي سعد البقال عن عكرمة عن ابن عباس قال: من عشق فعف فمات دخل الجنة.

ولي قطعة مفردة:

قل للظباء بذي الأرا

ك إذا مررت بهن جائز.

ألكن قتل العاشقي

ن محل في الشرع جائز.

أوعدتم فوفيتم،

والوعد منكم غير ناجز.

إن الذي رحل الخليط

بقلبه وأقام عاجز.

ألا تجشم في هواه

إثرهم قطع المفاوز.

حتى يظل يجيبه

قلقا، ويمسي الطرف غامز.

أترى متى أنا منكم

بوصالكم يا فوز فائز.

ولقد خلوت بها وأب

عدت العذارى والعجائز.

ليلا، فكان عفافنا

ما بيننا والصون حاجز.

حاشا صحيح الحب يو

ما أن يقام مقام ماعز.

يريد ماعز بن مالك الذي أقر على نفسه بالزنا ورجمه النبي، صلى الله عليه وسلم.

كنت مع سنان بن إبراهيم الصوفي فنظر إلى غلام فقال: الحمد لله على كل حال! كنا أحرارا بطاعته، فصرنا عبيدا بمعصيته لأحاظ قد بلغت بنا جهد البلاء، وأسلمتنا إلى طول الضناء، فلبثنا مع بلائنا وطول

ضنائنا لا نخسر الآخرة، كما تولت عنا الدنيا، ثم بكى، فقلت له: ما يبكيك؟ فقال: كيف لا أبكي، وأنا مقيم على غرور ومتخوف من نزول محذور من نظر شاغل أو بلاء شامل أو سخط نازل، ثم شهق وسقط إلى الأرض.

■حدثني الحسام بن قدامة المكي باليمن:

لا تلوما فلان حين ملامه

أقلق الحب نفسه المستهامه.

قتلتني بشكلهن الجواري،

والجواري في شكلهن عرامه.

فإذا مت فاجمعوا الحرمي

ات وصفوا مولدات اليمامه.

وذوات الحقائب المدني

ات ذوات المضاحك البسامه.

ثم قوموا على الحجون، فقولوا:

يا قتيل القيان، يا ابن قدامه.

■ أخبرنا أبو محمد جعفر بن عبد الله الصوفي الخياط قال: قال أبو حمزة محمد بن إبراهيم الصوفي: كنت مع محمد بن الفرج السائح، فنظر إلى جارية جميلة تعرض على رجل ليشتريها، فقال: بكم تباع هذه الجارية؟ فقيل له: بألف دينار، فرفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم! إنك تعلم أني لا أملكها، ولا تنالها يدي، وإني لأعلم من كرمك أني لو سألتك إياها لم تردني عنها ولم تمنعني منها، تفضلا منك علي وإحسانا إلي، وإني أسالك ما هو أنفس عندي منها، بادنة لا تمرض ولا تهرم ولا تموت، ومهرها أن لا تراني نائما بليل، ولا طاعما بنهار، ولا ضاحكا إلى أحد من خلقك أبدا، وأنا أجد في المهر من وقتي هذا، فأنجز لي، إذا لقيتك، ما سألتك يا كريم. قال: فما رأيناه نائما بليل، ولا طاعما بنها، ولا ضاحكا إلى أحد من الناس حتى لحق بالله، عز وجل.

■ وصف ذو النون المشتاقين فقال: سقاهم من صرف المودة شربة، فماتت شهواتهم في القلوب من خوف عواقب الذنوب، وذهلت أنفسهم عن الماطعم من حذر فوت المناعم، قد أنحلوا الأبدان بالجوع وصفوا القلوب من كل كدر، فهي معلقة بمواصلة المحبوب، ثم قال: يا حسن غراس الأشجان في رياض الكتمان! وذكر كلاما ثم تنفس وقال:

شوق أضر بمهجة المشتاق

فجرت سوابق عبرة الآماق.

لعبت يد العبرات في وجناته

وكذا به لعبت يد الأشواق.

■ قلت: لأبي الكميت الأندلسي، وكان جوالا في أرض الله، عز وجل: حدثني بأعجب ما رأيته من الصوفية! قال: صحبت رجلا منهم يقال له مهرجان، وكان مجوسيا، فأسلم وتصوف، فرأيت معه غلاما جميلا لا يفارقه، فكان إذا جاء الليل، قام فصلى ثم ينام إلى جانبه يقوم فزعا، فيصلي ما قدر له، ثم يعود فينام إلى جانبه أيضا، حتى يفعل ذلك في الليلة مرارا، فإذا أسفر الصبح، أو كاد أن يسفر، أوتر ثم رفع

يديه، فقال: اللهم إنك تعلم أن الليل قد مضى علي سليما لم أقارف فيه فاحشة، ولا كتبت الحفظة علي فيه معصية، وأن الذي أضمره في قلبي لو حملته الجبال لتصدعت، أو كان بالأرض لتدكدكت.

ثم يقول: يال ليل اشهد بما كان مني فيك، فقد منعني خوف الله، عز وجل، عن طلب الحرام والتعرض للآثام.

ثم يقول: يا سيدي! أنت بيننا على تقى، ولا تفرق بيننا يوم تجمع فيه الأحباب.

فأقمت معه مدة طويلة أراه يفعل ذلك في كل ليلة، وأسمع هذا القول، فلما هممت بالانصراف من عنده قلت له: سمعتك تقول، إذا انقضى الليل: كذا وكذا. فقال: أوقد سمعتني؟ قلت: نعم! قال: فوالله يا أخي إني لأدري من قلبي ما لو داراه سلطاننا من رعيته، لكان من الله حقيقا فقلت: وما الذي يدعوك إلى صحبة من تخاف على نفسك العنت من قبله؟

قال أبو حمزة الصوفي: رأيت ببيت المقدس فتى من الصوفية يصحب غلاما مدة طويلة، فمات الفتى، وطال الغلام عليه، حتى صار جلدا وعظما من الضنى

والكمد. فقلت له يوما: لقد طال حزنك على صديقك حتى أظن أنك لا تسلو بعده أبدا. فقال: وكيف أسلو عن رجل أجل الله تعالى أن يعصيه معي طرفة عين وصانني عن نجاسة الفسوق في طول صحبتي له وخلواتي معه في الليل والنهار.

■ أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن سعيد الحبال بمصر قال: أخبرنا أبو صالح محمد بن عدي السمرقندي قال: أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن القاسم بن أليسع قال: حدثنا أبو بكر أحمد بن محمد بن عمرو الدينوري قال: حدثنا أبو محمد جعفر بن عبد الله الصوفي الخياط قال: قال أبو حمزة الصوفي: رأيت مع أحمد بن علي الصوفي ببيت المقدس غلاما جميلا، فقلتك مذ كم صحبك هذا الغلام؟ فقال: منذ سنين، فقلت: لو صرتما إلى بعض المنازل فكنتما فيه بحيث لا يراكما الناس كان أجمل بكما من الجلوس في المساجد والحديث فيها.

فقال: أخاف احتيال الشيطان علي فيه في وقت خلوتي به، وإني لأكره أن يراني الله معه على معصية فيفرق بيني وبينه يوم يظفر المحبون بأحبابهم.

أنبأنا أحمد بن علي بن ثابت بالشام قال: حدثنا ابن أيوب القمي قال: أخبرنا أبو عبيد الله المرزباني قال: ■ حدثني أبو عبد الله الحكيمي قال: حدثنا أحمد بن إبراهيم قال: حدثنا أبو أسامة قال: كنا عند شيخ يقرئ، فبقي عنده غلام يقرأ عليه، وأردت القيام فأخذ بثوبي وقال: اصبر حتى يفرغ هذا الغلام، وكره أن يخلو هو والغلام.

حدثنا الأسود بن مالك الفزاري قال: حدثني أبي قال: حضرت أبا مسلم سعيد بن جويرية الخشوعي، وقد ■ نظر إلى غلام جميل فأطال النظر إليه، ثم قرأ: إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب، سبحان الله، ما أهجم طرفي على مكروه نفسه، وأقدمه على سخط سيده، وأغراه بما قد نهى عنه، وألهجه بالأمر الي حذر منه، لقد نظرت إلى هذا نظرا لا أحسبه إلا أنه سيفضحني عند جميع من عرفني في عرصة القيامة، ولقد تركني نظري هذا، وأنا أستحيي من الله، عز وجل، وإن غفر لي، وأراني وجهه، ثم صعق.

قلت فصف لي الحب! فقال: إليك عني، يا أخا العرب، جل عن أن يحد، وخفي أن يرى، كمن في الحشا ■ كمون النار في الحجر، إن قدحته أورى، وإن تركته توارى، ثم صفق وأنشأ يقول:

أأنت الذي أصفيت منك مودة

قلائعها في ساحة القلب تغرس.

وإن كان لي من فقد قلبي موحش،

فقد ظل لي من فكرتي فيك مؤنس.

أناجيك بالإضمار حتى كأنني

أراك بعيني فكرتي، حين أجلس.

ما رأيت أحدا صحا بعد غلبة فنطق بالحكمة أحسن من أبي العباس بن عطاء، فكان أول شيء قال بعد ■ صحوه من غلبته:

حقا أقول لقد كلفتني شططا

حملي هواك وصبري ذان تعجيب.

جمعت شيئين في قلب له خطر،

نوعين ضدين: تبريد وتلهيب.

نار تقلقلني، والشوق يضرمها،

فكيف قد جمعا، والعقل مسلوب.

لا كنت إن كنت أدري كيف يسلمني

صبري إليك كما قد ضر أيوب.

لما تطاول بلواه اقشعر لها،

فصاح، من حملها، غرثان مكروب:

قد مسني الضر والشيطان ينصب بي،

وأنت ذو رحمة، والعبد منكوب.

■ :حدثني زيد بن عمارة النهدي قال: اصطدت خشفا فأوثقته، وحملته، ثم اقبلت به، إذ استقبلني غلام كأنه فلقة قمر له ضفيرتان قد قاربتا عجيزته، فلما رأى الخشف، وقف ينظر إليه وتنفس الصعداء، ثم أنشأ يقول، وهو يبكي:

وذكرني من لا أبوح بذكره،

محاجر ظبي في حبائل قانص.

فقلت، ودمع العين يجري بحرقة،

ولحظي إلى عينيه لحظة شاخص:

ألا أيهذا القانص الظبي خله!

وإن كنت تأباه، فمر بقلائصي.

خف الله لا تحبسه! إن شبيهه

حياتي، وقد أرعدت فيه فراقي.

قال: ثم بكى، قال: فقلت: دونكه يا فتى فهو لك، قال: فعمد إليه فحله، ثم قبل عينيه، ثم ارسله.

قال: فمر الظبي وأتبعه بصره يبكي في أثره، قال: ثم سكن فقلت: يا فتى ألك حاجة؟ قال: نعم! قلت: ما هي؟ قال: تبلغ معي الحي. قال: فوصلت معه المنزل، قال: فلما كان من الغد، إذا به يسوق عشرا من الإبل حتى وقف علي، فقال: دونكها، فامتنعت، فأبى إلا قبولها.

قال: فسألت عنه، فقالوا: هذا فتى يهوى فتاة من الحي.

■ مات أبو العتاهية وعباس بن الأحنف وإبراهيم الموصلي في يوم واحد، فرفع خبرهم إلى الرشيد، فأمر المأمون بحضورهم والصلاة عليهم، فوافى المأمون، وقد صفوا له في موضع الجنائز، فقال: من قدمتم؟

قالوا: إبراهيم، قال: أخروه وقدموا عباسا! قال: فلما فرغ من الصلاة اعترضه بعض الظاهرية، فقال له: أيها الأمير بم قدمت عباسا؟ قال: يا فضولي بقوله:

سماك لي قوم وقالوا: إنها

لهي التي تشقى بها وتكابد.

فجحدتهم ليكون غيرك ظنهم،

إني ليعجبني المحب الجاحد.

نظرت رابعة إلى رياح القيسي، وهو يقبل صبيا من أهله، ويضمه إليه، فقالت: أتحبه يا رياح؟ قال: نعم ■ قالت: ما كنت أحسب أن

في قلبك فارغا لمحبة غيري. قال: فصاح رياح وسقط مغشيا عليه، ثم أفاق، وهو يمسح العرق عن وجهه، وهو يقول: رحمة منه، تعالى ذكره، ألقاها في قلوب العباد للأطفال.

فلما كانت الليلة التي أراد الدخول بها جاءها غسان في النوم، وقد أغفت، فقال: ■

غدرت، ولم ترعي لبعلك حرمة،

ولم تعرفي حقا، ولم تحفظي عهدا.

ولم تصبري حولا حفاظا لصاحب،

حلفت له يوما ولم تنجزي وعدا.

غدرت به لما ثوى في ضريحه،

كذلك ينسى كل من سكن اللحدا.

قال: فلما سمعت هذه الأبيات انتبهت مرتاعة مستحية منه كأنه بات معها في جانب البيت، وأنكر ذلك منها من حضرها من نسائها، فقلن: ما لك، وما حالك، وما دهاك؟ فقالت: ما ترك غسان لي في الحياة أربا، ولا بعده في سرور رغبة. أتاني في منامي الساعة، فأنشدني هذه الأبيات، ثم أنشدتها وهي تبكي بدمع غزير وانتحاب شديد، فلما سمعن ذلك منها أخذن بها في حديث آخر لتنسى ما هي فيه، فغافلتهن وقامت، فلم يدركنها حتى ذبحت نفسها حياء مما كادت أن تركب بعده من الغدر به والنسيان لعهده. فقالت امرأة منهن: قد بلغنا أن امرأة أتاها زوجها في المنام فلامها في مثل هذا، فقتلت نفسها.

كان عويمر العقيلي مشغوفا بابنة عم له، وكان يقال لها ريا، فزوجت برجل، فحملها إلى بلاده، فاشتد ■
وجده، واعتل علة أخذه الهلاس بها، فدعوا له طبيبا لينظر إليه، فقال له: أخبرني بالذي تجد، فرفع عقيرته فقال:

كذبت على نفسي فحدثت أنني

سلوت لكيما ينظروا حين أصدق.

وما عن قلى مني ولا عن ملالة،

ولكنني أبقي عليك وأشفق.

وما الهجر إلا جنة لي لبستها،

لتدفع عني ما يخاف ويفرق.

عطفت على أسراركم، فكسوتها

قميصا من الكتمان لا يتخرق.

ولي عبرتان ما تفيقان: عبرة

تفيض، وأخرى للصبابة تخنق.

ويومان: يوم فيه جسم معذب

عليل، ويوم للتفرق مطرق.

وأكثر حظي منك أني إذا سرت

لي الريح من تلقائكم أتنشق.

ثم ذهب عقله، فقال المتطبب لأهله ومن حضره: ارفقوا به، ثم انصرف. فما مكث إلا ليالي يسيرة حتى قضى.

خرج قيس بن ذريح إلى المدينة يبيع ناقة له، فاشتراها زوج لبنى وهو لا يعرفه، فقال له: انطلق معي ■
أعطك الثمن، فمضى معه. فلما فتح الباب، فإذا لبنى، وقد استقبلت قيسا، فلما رآها ولى هاربا، وخرج الرجل في أثره بالثمن ليدفعه إليه، فقال له قيس: لا تركب لي والله مطيتين

أبدا.

إن فتىً انصرف ليلة من صلاة العشاء، فمثلت له امرأة بين يديه، فعرضت له بنفسها، ففتن بها، ومضت ■
فاتبعها حتى وقف على بابها، فلما وقف بالباب أبصر وجلي عنه، ومثلت له هذه الآية: " إن الذين اتقوا إذا

مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون "، فخر مغشيا عليه، فنظرت إليه المرأة فإذا هو كالميت، فلم تزل هي وجارية لها تتعاونان عليه حتى ألقتاه على باب داره.

وكان له أب شيخ كبير يقعد لانصرافه، كل ليلة، فخرج، فإذا مر به ملقى على باب الدار لما به، فاحتمله فأدخله، فأفاق بعد ذلك، فسأله أبوه: ما الذي أصابك يا بني؟ قال: يا أبت لا تسألني، فلم يزل به حتى أخبره، وتلا الآية. وشهق شهقة خرجت معها نفسه؛ فدفن فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فقال ألا آذنتموني بموته؟ فذهب حتى وقف على قبره، فنادى: يا فلان، ولمن خاف مقام ربه جنتان.

■ أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي، حدثنا علي بن أيوب القمي، حدثنا المرزباني، حدثني عمر بن يوسف الباقلاني قال: قال أبو حمزة محمد بن إبراهيم: قلت لمحمد بن العلاء الدمشقي، وكان سيد الصوفية، وقد رأيته يماشي غلاما وضيئا مدة، ثم فارقه: لم هجرت ذلك الفتى الذي كنت أراه معك، بعد أن كنت له مواصلا، وإليه مائلا؟ قال: والله لقد فارقته عن غير قلى ولا ملل. قلت: ولم فعلت ذاك؟ قال: رأيت قلبي يدعوني إلى أمر إذا خلوت به وقرب مني. لو أتيته لسقطت من عين الله تعالى. فهجرته لذلك تنزيها لله تعالى، ولنفسي عن مصارع الفتن، وإني لأرجو أن يعقبني سيدي من مفارقته ما أعقب الصابرين عن محارمه عند صدق الوفاء بأحسن الجزاء، ثم بكى حتى رحمته.

■أم ترثي ولدها :

ورأيت امرأة عند القبرين، وهي تقول: بأبي لم تمتعك الدنيا من لذتها، ولم تساعدك الأقدار على ما تهوى، فأوقرتني كمدا، فصرت مطية للأحزان، فليت شعري كيف وجدت مقيلك، وماذا قلت وقيل لك؟ ثم قالت: استودعتك من وهبك لي.

■ عن جرير بن عبد الله البجلي قال: ...قلت: لا حول ولا قوة إلا بالله، ما شاء الله كان، وما لا يشاء لا يكون، قال: فسمعني هربذ من تلك الهرابذة، فقال: ما سمعت هذا الكلام من أحد منذ سمعته من السماء، فقلت له: وكيف ذلك؟ قال: إنه كان رجل، يعني نفسه، وإنه وفد عاما على كسرى بن هرمز، قال: فخلفه في أهله شيطان تصور على صورته، فلما قدم، لم يهش إليه أهله، كما يهش أهل الغائب إلى غائبهم إذا قدم، فقال لهم: ما شأنكم؟ قالوا: إنك لم تغب. قال: وظهر له الشيطان فقال: اختر أن يكون لك منها يوم، ولي يوم، وإلا أهلكتك، فاختار أن يكون له يوم، وله يوم، فأتاه يوما فقال: إني ممن يسترق السمع، وإن استراق السمع بيننا نوب، وإن نوبتي الليلة، فهل لك أن تجيء معنا؟ قلت نعم.

فلما أمسى أتاني فحملني على ظهره، فإذا له معرفة كمعرفة الخنزير، فقال: لا تفارقني، فتهلك. قال: ثم عرجوا حتى لصقوا بالسماء، فسمعت قائلا يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، ما شاء الله كان، وما لا يشاء لا يكون. قال: فلبج، ووجم، فوقعوا من وراء العمران في

غياض الشجر، فلما أصبحت رجعت إلى منزلي، وقد حفظت الكلمات، فكان إذا جاء قلتهن، فيضطرب، حتى تخرج من كوة البيت، فلم أزل أقولهن حتى ذهب عني.

■

مس الإنسي كمس الجني

أخبرنا أبو القاسم عبد العزيز بن علي الأزجي، رحمه الله تعالى، سمعت أبا الحسن الجهضمي الهمذاني بمكة يقول في المسجد الحرام: سمعت الخالدي يقول: سمعت أبا محمد الجريري يقول: إذا تمكن الذكر في القلب، وقوي سلطانه، فلا يأمنه العدو، ويصرع به كما يصرع الإنسي إذا مسه الجني، فتمر به الجن فيقولون: ما بال هذا؟ فيقال مسه الإنسي.

■ قيس بن ذريح:

لقد كنت حسب النفس لو دام ودنا،

ولكنما الدنيا متاع غرور

وكنا جميعا قبل أن يظهر الهوى

بأنعم حالي غبطة وسرور

فما برح الواشون حتى بدت لنا

بطون الهوى مقلوبة لظهور.

■ سمعت أبا بكر بن عياش يقول: كنت في الشباب إذا أصابتني مصيبة تجلدت، ودفعت البكاء بالصبر، فكان ذلك يؤذيني ويؤلمني، حتى رأيت أعرابيا بالكناسة، واقفا على نجيب، وهو ينشد:

خليلي عوجا من صدور الرواحل ... بجمهور حزوى فابكيا في المنازل

لعل انحدار الدمع يعقب راحة ... من الوجد أو يشفي نجي البلابل

فسألت عنه، فقيل: ذو الرمة، فأصابتني بعد ذلك مصائب، فكنت أبكي، وأجد لذلك راحة، فقلت: قاتل الله الأعرابي ما كان أبصره!

■ وبإسناده أنشدنا أبو علي لبشار:

لم يطل ليلي، ولكن لم أنم،

ونفى عني الكرى طيف ألم

ختم الحب لها في عنقي،

موضع الخاتم من أهل الذمم

إن في ثوبي جسما ناحلا

لو توكأت عليه لانهدم.

أنشدني الحسن بن صالح الأسدي لأبي العتاهية : ■:

سبحان جبار السماء

إن المحب لفي عناء

من لم يذق حرق الهوى،

لم يدر ما جهد البلاء

لو كنت أحسب عبرتي

لوجدتها أنهار ماء

كم من صديق لي أسا

رقه البكاء من الحياء

فإذا تفطن لامني،

فأقول: ما بي من بكاء

لكن ذهبت لأرتدي،

فأصبت عيني بالرداء

حتى أشككه، فيس

كت عن ملامي والمراء

يا عتب! من لم يبك لي

مما لقيت من الشقاء

بكت الوحوش لرحمتي،

والطير في جو السماء

والجن عمار البيو

ت، بكوا، وسكان الهواء

والناس، فضلا عنهم،

لم تبك إلا بالدماء

يا عتب! إنك لو شهد

ت علي ولولة النساء

وموجها مسترسلا

بين الأحبة للقضاء

لجزيتني غير الذي

قد كان منك من الجزاء

أفما شبعت، ولا روي

ت من القطيعة والجفاء

لم تبخلين على فتى

محض المودة والصفاء؟

■

حدثني أحمد بن عبد العزيز بن عبد الله المحرر، أخبرني بعض أصحابنا، أخبرني صديق لي من أهل المدينة قال: كان لنا عبد أسود يستقي الماء، فهوي جارية لبعض المدنيين سوداء، وكان يواصلها سرا منا، فلم يزالا كذلك حتى اشتهر أمرهما، وظهر، فشكا مولى الجارية الغلام إلى أبي، فضربه وحبسه وقيده، فمكث أياما على هذه الحال ثم دخلت إليه فقلت له: ويلك! قد فضحتنا وشهرتنا بحبك لهذه السوداء، وتعرضت فيها للمكروه، فهل تجد بك مثل وجدك بها؟ فبكى، وأنشأ يقول:

كلانا سواء في الهوى غير أنها

تجلد أحيانا، وما بي تجلد

تخاف وعيد الكاشحين، وإنما

جنوني عليها حين أنهى وأوعد

قال: فخبرت بذلك أبي، فحلف أنه لا يبيت أو يجمع بينهما، فاشتراها له أبي باثني عشر دينارا وزوجها منه.

بينما عمر بن الخطاب يطوف ذات ليلة في سكة من سكك المدينة، إذ سمع■

امرأة وهي تهتف من خدرها وتقول:

هل من سبيل إلى خمر فأشربها،

أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج

إلى فتى ماجد الأعراق مقتبل،

سهل المحيا، كريم، غير ملجاج

قال: فقال عمر، رحمة الله عليه: ألا أرى معي في المصر رجلا تهتف به العواتق في خدورهن؟ علي بنصر بن حجاج! فأتي به، فإذا هو أحسن الناس وجها وشعرا، فقال: علي بالحجام، فجز شعره، فخرجت له وجنتان كأنهما شقتا قمر، فقال: اعتم، فاعتم، ففتن الناس. فقال عمر: والله لا تساكنني ببلد أنا فيه. قال: ولم ذاك يا أمير المؤمنين! قال: هو ما قلت لك. فسيره إلى البصرة، وخشيت المرأة التي سمع منها عمر ما سمع أن يبدر إليها عمر بشيء، فدست إليه أبياتا تقول فيها:

قل للإمام الذي تخشى بوادره:

ما لي وللخمر أو نصر بن حجاج

إني عنيت أبا حفص بغيرهما،

شرب الحليب وطرف غيره ساجي

إن الهوى ذمة التقوى، فقيده

حتى أقر بإلجام وإسراج

لا تجعل الظن حقا، أو تبينه،

إن السبيل سبيل الخائف الراجي

قال: فبعث إليها عمر: قد بلغني عنك خبر، وإني لم أخرجه من أجلك، ولكن بلغني أنه يدخل على النساء، ولست آمنهن.

قال: وبكى عمر، وقال: الحمد لله الذي قيد الهوى حتى أقر بإلجام وإسراج. ثم إن عمر كتب إلى عامله بالبصرة كتبا، فمكث الرسول عنده أياما، ثم نادى مناديه: الا إن بريد المسلمين يريد أن يخرج، فمن كانت له حاجة فليكتب! فكتب نصر بن حجاج كتابا، ودسه في الكتب، ونصه: بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عمر أمير المؤمنين سلام عليك! أما

بعد فلعمري، يا أمير المؤمنين، لئن سيرتني أو حرمتني وما نلت مني عليك بحرام، وكتب بهذه الأبيات:

أإن غنت الذلفاء يوما بمنية،

وبعض أماني النساء غرام

ظننت بي الظن الذي ليس بعده

بقاء، فما لي في الندي كلام

ويمنعني مما تظن تكرمي،

وآباء صدق سالفون كرام

ويمنعها مما تظن صلاتها،

وحال لها في قومها وصيام

فهذان حالانا! فهل أنت راجعي،

فقد جب مني كاهل وسنام

فقال عمر، لما قرأ الكتاب: أما ولي سلطان فلا، فما رجع إلى المدينة إلا بعد وفاة عمر.

أجارتنا إنا غريبان ها هنا، ■

وكل غريب للغريب نسيب

فلا تزجريني عنك خيفة جاهل

إذا قال شرا أو أخيف لبيب

تزوج عمران بن حطان امرأة من الخوارج، وكانت من أجمل النساء، وأحسنهن عقلا، وكان عمران بن حطان من أسمج الناس وأقبحهم وجها، فقالت له يوما: غني نظرت في أمري وأمرك، فإذا أنا وأنت في الجنة. قال: وكيف؟ قالت: إني أعطيت مثلك فصبرت، وأعطيت مثلي فشكرت، فالصابر والشاكر في الجنة. ■

ألا أبلغا عني عقيلا رسالة، ■

وما لعقيل من حياء ولا فضل

نساؤهم شر النساء، وأنتم

كذلك، إن الفرع يجري على الأصل

أما فيكم حر يغار على اخته؛

وما خير حي لا يغار على الأهل.

فما ضر حاديهم، لا سقاه ■

على ظمأٍ عارض، لو رفق

وقد كنت أقنع من وصلهم،

بطيف الخيال، إذا ما طرق

. موجز مصارع العشاق

موجز حسن المحاضرة في أخبار ملوك مصر و القاهرة للعلامة جلال الدين السيوطي

ذكر الحوادث الغريبة الكائنة بمصر في ملة الإسلام

من غلاء ووباء وزلازل وآيات وغير ذلك

.وفي سنة ست وستين وقع الطاعون بمصر

.وفي سنة سبعين كان الوباء بمصر، قاله الذهبي

وفي سنة أربع وثمانين قتل عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي، وقطع رأسه، فأمر الحجاج فطيف به في العراق، ثم بعث به إلى عبد الملك بن مروان، فطيف به في الشام، ثم بعث به إلى عبد العزيز بن مروان وهو بمصر، فطيف به فيها، ودفن بمصر، وجثته بالرخج، فقال بعض الشعراء في ذلك:

هيهات موضع جثة من رأسها رأس بمصر وجثة بالرخج وفي سنة خمس وثمانين كان الطاعون بالفسطاط، ومات فيه عبد العزيز بن مروان أمير مصر.

وفي سنة خمس وأربعين ومائة، انتثرت الكواكب من أول الليل إلى الصباح، فخاف الناس. ذكره صاحب المرآة.

وفي سنة ثمانين ومائة كان بمصر زلزلة شديدة سقطت منها رأس منارة الإسكندرية.

وفي سنة ست عشرة ومائتين، وثب رجل يقال له عبدوس الفهري في شعبان ببلاد مصر، فتغلب على نواب أبي إسحاق بن الرشيد، وقويت شوكته، واتبعه خلق كثير، فركب المأمون من دمشق في ذي الحجة إلى الديار المصرية، فدخلها في المحرم سنة سبع عشرة، وظفر بعبدوس، فضرب عنقه، ثم كر راجعا إلى الشام.

وفي سنة سبع وثلاثين ومائتين ظهر في السماء شيء مستطيل دقيق الطرفين، عريض الوسط، من ناحية المغرب إلى العشاء الآخرة، ثم ظهر خمس ليل وليس بضوء كوكب، ولا كوكب له ذنب، ثم نقص. قاله في المرآة.

وفي سنة ثمان وثلاثين ومائتين، أقبلت الروم في البحر في ثلثمائة مركب، وأبهة عظيمة، فكبسوا دمياط، وسبوا واحرقوا وأسرعوا الكرة في البحر، وسبوا ستمائة امراة، واخذوا من الأمتعة والأسلحة شيئاً كثيرا، وفر الناس منهم في كل مكان، فكان من غرق في بحيرة تنيس أكثر ممن اسر، ورجعوا إلى بلادهم، ولم يعرض لهم أحد.

وفي سنة اثنين وأربعين ومائتين، زلزلت الأرض ورجمت السويداء (قرية بناحية مصر) من السماء، ووزن حجر من الحجارة فكان عشرة أرطال.

وفي سنة أربع وأربعين ومائتين، اتفق عيد الأضحى وعيد الفطر لليهود وشعانين النصارى في يوم واحد. قال ابن كثير: وهذا عجيب غريب. وقال في المرآة: لم يتفق في الإسلام مثل ذلك.

وفي سنة خمس وأربعين ومائتين زلزلت مصر، وسمع بتنيس ضجة دائمة طويلة، مات منها خلق كثير.

وفي سنة ست وستين ومائتين قتل أهل مصر عاملهم الكرخي.

وفي سنة ثمان وستين ومائتين، قال ابن جرير: اتفق ان رمضان كان يوم الأحد وكان الأحد الثاني الشعانين، والأحد الثالث الفصح، والأحد الرابع السرور، والأحد الخامس انسلاخ الشهر.

وفي سنة تسع وستين في المحرم، كسفت الشمس وخسف القمر، واجتماعهما في شهر نادر. قاله في المرآة.

وفي سنة ثمان وسبعين ومائتين، قال ابن الجوزي: لليلتين بقيتا من المحرم طلع نجم ذو جمة، ثم صارت النجمة ذؤابة. قال: وفي هذه السنة وردت الأخبار أن نيل مصر غار، فلم يبقى منه شيء، وهذا شيء لم يعهد مثله، ولا بلغنا في الأخبار السابقة، فغلت الأسعار بسبب ذلك. وفي أيام أحمد بن طولون تساقطت النجوم، فراعه ذلك فسأل العلماء والمنجمين عن ذلك، فما أجابوا بشيء، فدخل عليه الجمل الشاعر وهم في الحديث، فأنشد في الحال:

قالوا تساقطت النجـو م لحادث فظ عسـير فأجبت عند مقالـهـم بجواب محتنك خبير هذي النجوم الساقطـا ت نجوم أعداء الأمير فتفاءل ابن طولون بذلك، ووصله.

وفي سنة اثنتين وثمانين ومائتين، زفت قطر الندى بنت خمارويه بن أحمد ابن طولون، من مصر إلى الخليفة المعتضد، ونقل أبوها في جهازها ما لم ير مثله، وكان من جملته ألف تكة بجوهر وعشرة صناديق جوهر، ومائة هون ذهب، ثم بعد كل حساب معها مائة ألف دينار لتشتري بها من العراق ما قد تحتاج إليه مما لا يتهيأ مثله بالديار المصرية. وقال بعض الشعراء:

يا سيد العـرب الـذي وردت لـه باليمن والبركات سيدة الـعـجـم فأسعد بها كسعودهـا بـك إنـهـا ظفرت بما فوق المطالب والهمم شمس الضحى زفت إلى بدر الدجى فتكشفت بها عن الدنيا الـظـلـم

وفي سنة أربع وثمانين ومائتين ظهر بمصر ظلمة شديدة وحمرة في الأفق حتى جعل الرجل ينظر إلى وجه صاحبه فيراه أحمر اللون جدا، وكذلك الجدران، فمكثوا كذلك من العصر إلى الليل، فخرجوا إلى الصحراء يدعون الله ويتضرعون إليه حتى كشف عنهم. حكاه ابن كثير.

وفي سنة ثلاث وتسعين ومائتين، ظهر رجل بمصر يقال له الخلنجي، فخلع الطاعة واستولى على مصر، وحارب الجيوش، وأرسل إليه الخليفة المكتفي جيشاً فهزمهم ثم أرسل إليه جيشاً آخر عليهم فاتك المعتضدي ، فهزم الخلنجي، وهرب، ثم ظفر به وامسك، وسير إلى بغداد.

وفي سنة تسع وتسعين ومائتين، ظهر ثلاثة كواكب مذنبة، أحدها في رمضان، واثنان في ذي القعدة تبقى أياما، ثم تضمحل حكاه ابن الجوزي. وفيها استخرج من كنز بمصر خمسمائة ألف دينار من غير موانع، ووجد في هذا الكنز ضلع إنسان طوله أربعة عشر شبرا وعرضه شبر، فبعث به إلى الخليفة المقتدر، وأهدى معه من مصر تيساً له ضرع يحلب لبنا، حكى ذلك الصولي صاحب المرآة وابن كثير.

وفي سنة إحدى وثلاثمائة، سار عبد الله المهدي المتغلب على المغرب. في أربعين ألفا ليأخذ مصر، حتى بقي بينه وبين مصر أيام، ففجر تكين الخاصة الميل فحال الماء بينهم وبين مصر، ثم جرت حروب فرجع المهدي إلى برقة بعد أن ملك الإسكندرية والفيوم.

وفي سنة اثنتين وثلاثة مائة عاد المهدي إلى الإسكندرية، وتمت وقعة كبيرة، ثم رجع إلى القيروان.

وفي سنة ست وثلاثمائة أقبل القائم بن المهدي في جيوشه، فأخذ الإسكندرية وأكثر الصعيد، ثم رجع.

وفي سنة سبع كانت الحروب والأراجيف الصعبة بمصر، ثم لطف الله وأوقع المرض بالمغاربة، ومات جماعة من أمرائهم، واشتدت علة القائم.

وفيها انقض كوكب عظيم، وتقطع ثلاث قطع، وسمع بعد انقضاضه صوت رعد شديد هائل من غير غيم.

وفي سنة ثمان ملك العبيديون جزيرة الفسطاط، فجزعت الخلق، وشرعوا في الهرب والجفل.

وفي سنة تسع استرجعت الإسكندرية إلى نواب الخليفة، ورجع العبيدي إلى المغرب.

وفي سنة عشر وثلثمائة في جمادى الأولى ظهر كوكب له ذنب طوله ذراعان، وذلك في برج السنبلة، وفي شعبان منها أهدى نائب مصر إلى الخليفة المقتدر هدايا من جملتها بغلة معها فلوها يتبعها، ويرجع معها، وغلام يصل لسانه إلى طرف أنفه. حكاه صاحب المرآة وابن كثير.

وفي سنة ثلاث عشرة وثلثمائة في آخر المحرم انقض كوكب من ناحية الجنوب إلى الشمال قبل مغيب الشمس، فأضاءت الدنيا منه، وسمع له صوت كصوت الرعد الشديد.

وفي سنة ثلاث وثلثمائة في المحرم ظهر كوكب بذنب رأسه إلى المغرب وذنبه إلى المشرق، وكان عظيما جدا وذنبه منتشر، وبقي ثلاثة عشر يوما إلى أن اضمحل.

وفي سنة أربع وأربعين زلزلت مصر زلزلة صعبة هدمت البيوت، ودامت ثلاث ساعات، وفزع الناس إلى الله بالدعاء.

وفي سنة تسع وأربعين رجع حجيج مصر من مكة، فنزلوا واديا، فجاءهم سيل فأخذهم كلهم، فألقاهم في البحر عن آخرهم.

وفي سنة خمس وخمسين قطعت بنوا سليم الطريق على الحجيج من أهل مصر، واخذوا منهم عشرين ألف بعير بأحمالها، وعليها من الأموال والأمتعة ما لا يقوم كثرة، وبقية الحاج في البوادي، فهلك أكثرهم. وفي أيام كافور الإخشيدي كثرت الزلازل بمصر، فأقامت ستة اشهر، فأنشد محمد بن القاسم بن عاصم قصيدة منها:

ما زلزلت مصر من سوء يراد بها لكنها رقصت من عدله فرحـا كذا رايته في نسخة عتيقة، من كتاب مذهب الطالبيين، تاريخ كتابتها بعد الستمائة، ثم رأيت ما يخالف ذلك كما سأذكر.

وفي سنة تسع وخمسين انقض كوكب في ذي الحجة، فأضاء الدنيا حتى بقى له شعاع كالشمس، ثم سمع له صوت كالرعد.

وفي سنة ستين وثلثمائة، سارت القرامطة في جمع كثير إلى الديار المصرية، فاقتتلوا هم وجنود جوهر القائد قتالاً شديدا بعين شمس، وحاصروا مصر شهورا؛ ومن شعر أمير القرامطة الحسين بن أحمد بن بهرام:

زعمت رجال الغرب أني هبتهم فدمى إذن ما بينهم مـطـلـول يا مصر إن لم أسق أرضك من دم يروى ثراك فلا سقاني الـنـيل وفي هذه السنة سار رجل من مصر إلى بغداد، وله قرنان، فقطعهما وكواهما وكانا يضربان عليه. حكاه صاحب المرآة.

وفي سنة ثلاث وستين، خرج بنو هلال وطائفة من العرب على الحجاج، فقتلوا منهم خلقا كثيرا، وعطلوا على من بقى منهم الحج في هذا العام، ولم يحصل لأحد حج في هذه السنة سوى أهل درب العراق وحدهم.

وفي سنة سبع وستين كان أمير الحاج المصري الأمير باديس بن زيرى، فاجتمع إليه اللصوص، وسألوا منه أن يضمنهم الموسم هذا العام بما شاء من الأموال، فاظهر لهم الإجابة، وقال: اجتمعوا كلكم حتى أضمنكم كلكم، فاجتمع عنده بضع وثلاثون لصا، فقال: هل بقى منكم أحد؟ فخلفوا أنه لم يبق منهم أحد، فعند ذلك أمر

بقطع أيديهم كلهم. ونعما فعل! وفي سنة أربع وثمانين انفرد بالحج أهل مصر، ولم يحج ركب العراق ولا الشام لخوف طريقهم، وكذا في سنة خمس وثمانين والتي بعدها.

وفي سنة ست وثمانين قدمت مصر أربع عشرة قطعة من الأسطول، فقتلت ونهبت، وأحرقت أموال التجار، وأخذت سرايا العزيز وحظاياه، وكان حالاً لم ير اعظم منه. ذكره ابن المتوج.

وفي سنة تسعين أمر الحاكم بمصر بقتل الكلاب فقتلت كلها.

وفي سنة اثنتين وتسعين ليلة الاثنين ثالث ذي القعدة انقض كوكب أضاء كضوء القمر ليلة التمام، ومضى الضياء، وبقى جرمه يتموج نحو ذراعين في ذراع برأي العين، وتشقق بعد ساعة. وفي هذه السنة انفرد المصريون بالحج، ولم يحج أحد من بغداد وبلاد المشرق لعبث الأعراب بالفساد، وكذا في سنة ثلاث وتسعين.

وفي سنة ثلاث وتسعين أمر الحاكم يقطع جميع الكروم التي بديار مصر والصعيد والإسكندرية ودمياط، فلم يبق بها كرم، احترازاً من مصر الخمر. وفي هذه السنة أمر الحاكم الناس بالسجود إذا ذكر اسمه في الخطبة.

وفي سنة سبع وتسعين انفرد المصريون بالحج، ولم يحج أهل العراق لفساد الطريق بالأعراب، وكسا الحاكم الكعبة القباطي البيض.

وفي سنة ثمان وتسعين هدم الحاكم الكنائس التي ببلاد مصر، ونادى: من لم يسلم وإلا فليخرج من مملكتي، أو يلتزم بما أمر، ثم أمر بتعليق صلبان كبار على صدور النصارى، وزن الصليب أربعة أرطال بالمصري، وبتعليق خشبة على تمثال رأس عجل وزنها ستة أرطال في عنق اليهود. وفي هذه السنة كان سيل عظيم حتى غرق الخندق، ذكره أبن المتوج.

وفي سنة تسع وتسعين انفرد المصريون بالحج.

وفي سنة أربعمائة بنى الحاكم دار للعلم وفرشها، ونقل إليها الكتب العظيمة مما يتعلق بالسنة، وأجلس فيها الفقهاء والمحدثين، وأطلق قراءة فضائل الصحابة، وأطلق صلاة الضحى والتراويح، وبطل الأذان بحي على خير العمل، فكثر الدعاء له، ثم بعد ثلاث سنين هدم الدار، وقتل خلقا ممن كان بها من الفقهاء والمحدثين وأهل الخير والديانة، ومنع صلاة الضحى والتراويح.

وفي سنة إحدى وأربعمائة انفرد المصريون بالحج.

وفي سنة اثنتين وأربعمائة كتب محضر ببغداد في نسب خلفاء مصر الذين يزعمون أنهم فاطميون وليسوا كذلك، وكتب فيه جماعة من العلماء والقضاة والفقهاء والأشراف والأماثل والمعدلين والصالحين، شهدوا جميعا أن الناجم بمصر وهو منصور بن نزار المتلقب بالحاكم- حكم الله عليه بالبوار والدمار والخزي والنكال والاستئصال- ابن معد ابن إسماعيل بن عبد الرحمن بن سعيد- لا أسعده الله- فإنه لما صار إلى المغرب تسمى بعبيد الله، وتلقب بالمهدي، ومن تقدم من سلفه من الأرجاس الأنجاس- عليه وعليهم لعنة الله ولعنة اللاعنين- أدعياء خوارج، ولا نسب لهم في ولد علي بن أبي طالب، ولا يتعلقون منه بسبب، وأنه منزه عن باطلهم، وان الذي ادعوه من الانتساب إليه باطل وزور، وأنهم لا يعلمون أن أحدا من أهل بيوت الطالبيين توقف عن إطلاق القول في هؤلاء الخوارج انهم أدعياء، وقد كان هذا الإنكار لباطلهم شائعاً في

الحرمين، وفي أول أمرهم بالمغرب منتشرا انتشارا يمنع من أن يدلس على أحد كذبهم، أو يذهب وهم إلى تصديقهم، وان هذا الناجم بمصر هو وسلفه كفار وفساق فجار وملحدون زنادقة، معطلون وللإسلام جاحدون، ولمذهب الثنوية والمجوسية معتقدون، قد عطلوا الحدود وأباحوا الفروج، واحلوا الخمر، وسفكوا الدماء، وسبوا الأبناء، ولعنوا السلف، وادعوا الربوبية. وكتب في ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعمائة.

وقد كتب خطه في المحضر خلق كثيرون، فمن العلويين المرتضى والرضي وابن الأزرق الموسوي وأبو طاهر بن أبي الطيب ومحمد بن محمد بن عمرو بن أبي يعلي، ومن القضاة أبو محمد بن الأكفاني وأبو القاسم الحريري وأبو العباس بن السيوري. ومن الفقهاء أبو حامد الإسفراييني وأبو محمد بن الكشفلي وأبو الحسين القدوري وأبو عبد الله الصيمري وأبو عبد الله البيضاوي وأبو علي بن حمكان. ومن الشهود أبو القاسم التنوخي، في كثير.

وفي سنة ثلاث وأربعمائة، قال ابن المتوج: رسم الحاكم بالا تقبل الأرض بين يديه، ولا يخاطب مولانا ولا بالصلاة عليه، وكتب بذلك سجل في رجب. قال: وفيها حبس النساء ومنعهن من الخروج في الطرقات، وأحرق الزبيب وقطع الكرم، وغرق العسل. قال ابن الجوزي: وفي رمضان انقض كوكب من المشرق إلى المغرب غلب ضوءه على ضوء القمر، وتقطع قطعاً، وبقى ساعة طويلة.

وفي سنة خمس وأربعمائة زاد الحاكم في منع النساء من الخروج من المنازل ومن دخول الحمامات ومن التطلع من الطاقات والأسلحة ومنع الخفافين من عمل الخفاف لهن، وقتل خلقا من النساء على مخالفته في ذلك، وهدم بعض الحمامات عليهن، وغرق خلقا.

وفي سنة سبع وأربعمائة ورد الخبر بتشعيث الركن اليماني من المسجد الحرام، وبسقوط جدار بين قبر النبي صلى الله عليه وسلم، وبسقوط القبة الكبيرة على صخرة بيت المقدس. قال ابن كثير: فكان ذلك من أغرب الاتفاقات وأعجبها.

وفي سنة سبع أيضا أنفرد المصريون بالحج، ولم يحج أحد من بلاد العراق لفساد الطرقات بالأعراب؛ وكذا في سنة ثمان.

وفي سنة إحدى عشرة وأربعمائة، قال ابن المتوج: عز القوت، ثم هان بعد أراجيف عظيمة. وفي أيام الحاكم، قال ابن فضل الله في المسالك: زلزلت مصر حتى رجفت أرجاؤها، وضجت الأمة لا تعرف كيف جارها، فقال محمد بن قاسم بن عاصم شاعر الحاكم:

بالحاكم العدل أضحى الدين معتلياً نجل الهدى وسليل السادة الصلحا ما زلزلت مصر من كيد يراد بها وإنما رقصت من عدله فرحـا وكانت أيام الحاكم من سنة ست وثمانين وثلثمائة إلى سنة إحدى عشرة وأربعمائة.

وفي سنة ثلاث عشرة وأربعمائة. قال ابن كثير: جرت كائنة غريبة ومصيبة عظيمة؛ وهي أن رجلا من المصريين من أصحاب الحاكم اتفق مع جماعة من الحجاج المصريين على أمر سوء، فلما كان يوم الجمعة، وهو يوم النفر الأول، طاف هذا الرجل بالبيت، فلما انتهى إلى الحجر الأسود، جاء ليقبله فضربه بدبوس كان معه ثلاث ضربات متواليات، وقال، إلى متى يعبد هذا الحجر! ولا محمد ولا علي يمنعني عما أفعله، فإني أهدم اليوم هذا البيت، فاتقاه أكثر الحاضرين، وتأخروا عنه، وذلك أنه كان رجلاً طويلا جسيما، أحمر أشقر، وعلى باب المسجد جماعة من الفرسان وقوف ليمنعوه ممن أراده بسوء، فتقدم غليه رجل من أهل اليمن، معه خنجر، وفاجأه بها، وتكاثر عليه الناس فقتلوه، وقطعوه قطعاً، وتتبعوا أصحابه، فقتل منهم

جماعة ونهب أهل مكة ركب المصريين، وجرت فتنة عظيمة جداً، وسكن الحال، وأما الحجر الشريف فإنه سقط منه ثلاث فلق مثل الأظفار، وبدا ما تحتها أسمر بضرب إلى صفرة، محبباً، مثل الخشخاش، فاخذ بنو شيبة تلك الفلق، فعجنوها بالمشك واللك وحشوا بها تلك الشقوق التي بدت، وذلك ظاهر فيه إلى الآن.

وفي سنة سبع عشرة منع الظاهر صاحب مصر من ذبح البقر السليمة من العيوب التي تصلح للحرث، وكتب عن لسانه كتاب قرئ على الناس، فيه: "إن الله بسابغ نعمته، وبالغ حكمته، خلق ضروب الأنعام، وعلم بها منافع الأنام، فوجب أن تحمي البقر المخصوصة بعمارة الأرض المذللة لمصالح الخلق، فإن ذبحها غاية الفساد، وإضرار بالعباد والبلاد".

وفيها انفرد المصريون بالحج، ولم يحج أهل العراق والمشرق لفساد الأعراب، وكذا في سنة ثماني عشرة وفي سنة تسع عشرة لم يحج أحد من أهل المشرق ولا من أهل الديار المصرية أيضاً، إلا أن قوما من خراسان ركبوا في البحر من مدينة مكران، فانتهوا إلى جدة، فحجوا.

وفي سنة عشرين حج أهل مصر دون غيرهم.

وفيها في رجب انقضت كواكب كثيرة شديدة الصوت، قوية الضوء.

وفي سنة إحدى وعشرين تعطل الحج من العراق أيضا، وقطع على حجاج مصر الطريق، وأخذت الروم أكثره.

وفي سنة ثلاث وعشرين تعطل الحج من العراق أيضا. وفيها قال أبن المتوج؛ استحضر خليفة مصر الظاهر بن الحاكم كل من في القصر من الجواري، وقال لهم: تجتمعون لأصنع لكم يوماً حسنا لم ير مثله بمصر، وأمر كل من كان له جارية فليحضرها، ولا تجئ جارية إلا وهي مزينة بالحلي والحلل، ففعلوا ذلك حتى لم تترك جارية إلا أحضرت، فجعلهن في مجلس، ودعا بالبنائين، فبنى أبواب المجلس عليهن، حتى ماتوا عن آخرهن، وكان يوم جمعهن يوم الجمعة لست خلون من شوال، وعدتهن ألفان وستمائة وستون جارية، فلما مضى لهن ستة أشهر أضرم النار عليهن، فأحرقهن بثيابهن وحليهن، فلا رحمه الله ولا رحم الذي خلفه!.

وفي سنة خمس وعشرين كثرت الزلازل بمصر. وفيها انقض كوكب عظيم، وسمع له صوت مثل الرعد وضوء مثل المشاعل. ويقال: إن السماء انفرجت عند انقضاضه. حكاه في المرآة. ولم يحج أحد سوى أهل مصر، وكذا في سنة ست وعشرين وسنة ثمان وعشرين.

وفي سنة ثمان وعشرين بعث صاحب مصر بمال لينفق على نهر بالكوفة إن أذن الخليفة العباسي في ذلك، فجمع القائم بالله الفقهاء، وسألهم عن هذا المال، فأفتوا بان هذا فيء للمسلمين يصرف في مصالحهم، فأذن في صرفه في مصالح المسلمين.

وفي سنة ثلاثين وأربعمائة تعطل الحج من الأقاليم بأسرها، فلم يحج أحد، لا من مصر ولا من الشام ولا من العراق ولا من خراسان.

وفي سنة إحدى وثلاثين والتي تليها تفرد بالحج أهل مصر، وكذا في سنة ست وثلاثين وسبع وثلاثين وتسع وثلاثين وثلاث وستين بعدها.

وفي سنة إحدى وأربعين في ذي الحجة ارتفعت سحابة سوداء ليلاً، فزادت على ظلمة الليل، وظهر في جوانب السماء كالنار المضيئة، فانزعج الناس لذلك، واخذوا في الدعاء والتضرع، فانكشفت بعد ساعة.

وفي سنة خمس وأربعين وثلاث تليها انفرد أهل مصر بالحج.

وفي سنة ثمان وأربعين. قال في المرآة: علم الوباء والقحط مصر والشام وبغداد والدنيا، وانقطع ماء النيل. واتفقت غريبة، قال ابن الجوزي: ورد كتاب من مصر أن ثلاثة من اللصوص نقبوا بعض الدور، فوجدوا عند الصباح موتى؛ أحدهم على باب النقب، والثاني على راس الدرجة، والثالث على الثياب المكورة. وفيها، في العشر الثاني من جمادى الآخرة ظهر وقت السحر نجم له ذؤابة بيضاء، طولها في رأى العين نحو عشرة أذرع في نحو ذراع، ولبث على هذه الحال إلى نصف رجب ثم اضمحل.

وفي سنة إحدى وخمسين وسنتين بعدها، انفرد أهل مصر بالحج.

وفي شوال من هذه السنة لاح في السماء في الليل ضوء عظيم كالبرق يلمع في موضعين؛ أحدهما ابيض، والآخر أحمر إلى ثلث الليل، وكبر الناس وهللوا. حكاه في المرآة.

وفي سنة ثلاث وخمسين في جمادى الآخرة لليلتين بقيتاً منه، كسفت الشمس كسوفا عظيما، جميع القرص، فمكنت أربع ساعات حتى بدت النجوم، وأوت الطيور إلى أوكارها لشدة الظلمة.

وفي سنة خمس وخمسين وقع بمصر وباء شديد، كان يخرج منها في كل يوم ألف جنازة.

وفي سنة ست وخمسين وقعت فتنة عظيمة بين عبيد مصر والترك، واقتتلوا. وغلب العبيد على الجزيرة التي في وسط النيل بين مصر والجيزة، واتصل الحرب بين الفريقين.

وفي سنة ثمان وخمسين، في العشر الأول من جمادى الأولى ظهر كوكب كبير، له ذؤابة عرضها نحو عرضها نحو ثلاثة أذرع وطولها أذرع كثيرة، وبقي إلى أواخر الشهر، ثم ظهر كوكب آخر عند غروب الشمس، قد استدار نوره عليه كالقمر، فارتاع الناس وانزعجوا، فلما اعتم الليل، رمى ذؤابة نحو الجنوب، وأقام إلى أيام في رجب، وذهب.

وفي سنة ستين وأربعمائة كان ابتداء الغلاء العظيم بمصر، الذي لم يسمع بمثله في الدهور؛ من عهد يوسف الصديق عليه السلام، واشتد القحط والوباء سبع سنين متوالية بحيث أكلوا الجيف والميتات، وأفنيت الدواب، وبيع الكلب بخمسة دنانير والهر بثلاثة دنانير، ولم يبق لخليفة مصر سوى ثلاثة أفراس بعد العدد الكثير، ونزل الوزير يوما عن بغلته، فغفل الغلام عنها لضعفه من الجوع، فأخذها ثلاثة نفر اذبحوها وأكلوها، فاخذوا فصلبوا وأصبحوا وقد أكلهم الناس، ولم يبق إلا عظامهم. وظهر على رجل يقتل الصبيان والنساء ويبيع لحومهم ويدفن رءوسهم وأطرافهم فقتل. وبيعت البيضة بدينار، وبلغ الإردب القمح مائة دينار ثم عدم أصلاً، حتى حكى صاحب المرآة أن امرأة خرجت من القاهرة، ومعها مد جوهر، فقالت: من يأخذه بمد قمح؟ فلم يلتفت إليها أحد، وقال بعضهم يهنئ القائم ببغداد:

وقد علم المصري أن جنوده سنو يوسف هولا وطاعون عمواس أقامت به حتى استراب بنفسه وأوجس منها خيفة أي إيجاس وفي سنة اثنتين وستين، زلزلت مصر حتى نفرت إحدى زوايا جامع عمرو. وفيها ضرب صاحب مصر اسم ابنه ولي العهد على الدينار، وسمى الآمري، ومنع التعامل بغيره.

وفي سنة خمس وستين اشتد الغلاء والوباء بمصر حتى أن أهل البيت كانوا يموتون في ليلة، وحتى إن امرأة أكلت رغيفا بألف دينار، باعت عروضها قيمته ألف دينار، واشترت بها جملة قمح، وحمله الحمال على ظهره فنهبه الناس، فنهبت المرأة مع الناس فصح لها رغيف واحد، وكان السودان يقفون في الأزقة، يصطادون النساء بالكلاليب، فيأكلون لحومهن، واجتازت امرأة بزقاق القناديل، فعلقها السودان بالكلاليب، وقطعوا من عجزها قطعة، وقعدوا يأكلونها وغفلوا عنها، فخرجت من الدار، واستغاثت، فجاء الوالي وكبس الدار، فأخرج منها ألوفاً من القتلى.

وفي سنة ست وثمانين وسنتين بعدها انفرد المصريون بالحج.

وفي سنة إحدى وتسعين حدثت بمصر ظلمة عظيمة، غشيت أبصار الناس، حتى لم يبق أحد يعرف أين يتوجه.

وفي سنة سبع وتسعين عز القمح بمصر، ثم هان. وفيها تولى الآمر بمصر فضرب الفضة السوداء المشهورة بالآمرية.

وفي سنة خمس عشرة وخمسمائة هبت ريح سوداء بمصر، فاستمرت ثلاثة أيام، فأهلكت خلقاً كثيراً من الناس والدواب والأنعام. قاله ابن كثير.

وفي سنة سبع عشرة بلغ النيل ستة عشر ذراعاً سواء بعد توقف.

وفي سنة ثمان عشرة أوفى النيل بعد النيروز بتسعة أيام، وزاد عن الستة عشر ذراعا أحد عشر إصبعا لا غير، وعز السعر ثم هان. وفي حدود هذه السنين أحترق جامع عمرو.

وفي سنة خمس وستين حاصرت الفرنج دمياط خمسين يوما، بحيث ضيقوا أهلها، وقتلوا منهم، فأرسل نور الدين محمود الشهيد إليهم جيشاً عليهم صلاح الدين يوسف بن أيوب، فأجلوهم عنها، وكان الملك نور الدين شديد الاهتمام بذلك؛ حتى إنه قرا عليه بعض طلبة الحديث جزءا فيه حديث مسلسل بالتبسم، فطلب منه ان يبتسم ليتصل التسلسل، فامتنع من ذلك، وقال: إني لأستحي من الله أن يراني متبسما، والمسلمون تحاصرهم الفرنج بثغر دمياط. وذكر أبو شامة أن بعضهم رأى في تلك الليلة التي أجلي فيها الفرنج عن دمياط رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يقول له: سلم على نور الدين، وبشره بان الفرنج قد رحلوا عن دمياط، فقال له الرائي: يا رسول الله، بأي علامة؟ فقال: بعلامة لما سجد يوم كذا، وقال في سجوده: اللهم انصر دينك! فاصبح الرائي، وبشر نور الدين بذلك، وأعلمه بالعلامة، ففرح، ثم جاء الخبر بإجلائهم تلك الليلة. فرحم الله هذا الملك وأمثاله! وفي سنة ثلاث وثمانين، قال ابن الأثير في الكامل: كان أول يوم منها يوم السبت، وكان يوم النيروز؛ وذلك أول سنة الفرس، واتفق انه أول سنة الروم ايضا، وفيه نزلت الشمس برج الحمل، وكذلك كان القمر في برج الحمل أيضا، قال: وهذا شيء يبعد وقوع مثله.

وفي سنة ثلاث وتسعين ورد كتاب من [القاضي] الفاضل من مصر إلى القاضي محيي الدين بن الزكي يخبره فيه بأن في ليلة الجمعة التاسع من جمادى الآخرة أتى عارض فيه ظلمات متكاثفة، وبروق خاطفة، ورياح عاصفة، فقوى أهويتها، واشتد هبوبها، فتدافعت لها أعنة مطلقات، وارتفعت لها صواعق مصعقات، فرجفت لها الجدران واصطفقت، وتلاقت على بعدها واعتنقت، وثار بين السماء والأرض عجاج فقيل: لعل هذه على هذه أطبقت، ولا نحسب إلا أن جهنم قد سال منها واد، وعدا منها عاد، وزاد عصف الرياح إلى أن انطفأت سرج النجوم، ومزقت أديم السماء ومحت ما فوقه من الرقوم؛ فكنا كما قال الله: (يجعلون أصابعهم

في آذانهم من الصواعق)، وكما قلنا: ويردون أيديهم على أعينهم من البوارق، لا عاصم من الخطف للأبصار، ولا ملجأ من الخطب غلا معاقل الاستغفار، وفر الناس نساء ورجالا وأطفالا، ونفروا من دورهم خفافاً وثقالا، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، فاعتصموا بالمساجد الجامعة، وأذعنوا للنازلة بأعناق خاضعة، ووجوه عاينة، ونفوس عن الأهل والمال سالية، ينظرون من طرف خفي، ويتوقعون أي خطب جلي، قد انقطعت من الحياة علقهم، وعيت عن النجاة طرقهم، ووقعت الفكرة فيما هم قادمون، وقاموا إلى صلاتهم، وودوا أن لو كانوا من الذين هم عليها دائمون، إلى أن أذن الله في الركود، وأسعف الهاجدين بالهجود، واصبح كل ليسلم على رفيقه، ويهنئه بسلامة طريقه، ويرى انه قد بعث بعد النفخة، وأفاق بعد الصيحة والصرخة، وأن الله قد رد له الكرة، وأدبه بعد أن كان يأخذه على الغرة. ووردت الأخبار بأنها كسرت المراكب في البحار والأشجار في القفار، وأتلفت خلقا كثيرا من السفار، ومنهم من فر فلم ينفعه الفرار. إلى أن قال: ولا يحسب المجلس أني أرسلت القلم محرفاً، والقول مجزفا، فالأمر أعظم، ولكن الله سلم، ونرجوا أن يكون الله قد أيقظنا بما وعظنا، ونبهنا بما ولهنا، فما من عباده من رأى القيامة عيانا، ولم يلتمس عليها من بعده برهانا، إلا أهل بلد يافا، اقتص الأولون مثلها في المثلات، ولا سبقت لها سابقة في المعضلات، والحمد لله الذي من فضله جعلنا نخبر عنها ولا تخبر عنا، ونسأل الله أن يصرف عنا، عارضي الحرص والغرور إذا عنا.

وفي سنة ست وتسعين، قال الذهبي، في العبر: كسر النيل من ثلاثة عشر ذراعا غلا ثلاثة أصابع، فاشتد الغلاء، وعدمت الأقوات، ووقع البلاء وعظم الخطب، إلى أن آل بهم الأمر إلى أكل الآدميين الموتى. قال ابن كثير في هذه السنة والتي بعدها: كان بديار مصر غلاء شديد، فهلك الغني والفقير، وعم الجليل والحقير، وهرب الناس منها نحو الشام، ولم يصل منها إلا القليل من الفئام، وتخطفتهم الفرنج من الطرقات، وعزوهم في أنفسهم، واغتالوهم بالقلي بالقليل من الأقوات. وكان الأمير لؤلؤ أحد الحجاب بالديار المصرية يتصدق في هذا الغلاء في كل يوم باثني عشر ألف رغيف على أثنى عشر ألف فقير.

وفي سنة سبع وتسعين، قال الذهبي في العبر: كان الجوع والموت المفرط بالديار المصرية، وجرت أمور تتجاوز الوصف، ودام ذلك إلى نصف العام الآتي، فلو قال القائل: مات ثلاثة أرباع أهل الإقليم لما بعد، والذي دخل تحت قلم الحصرية في مدة اثنين وعشرين شهرا مائة ألف وأحد وعشرين ألفا بالقاهرة، وهذا نزر في جنب ما هلك بمصر والحواضر، وفي البيوت والطرقات ولم يدفن، وكله نزر في جنب ما هلك بالأقاليم. وقيل إن مصر كان فيها تسعمائة منسج للحصر، فلم يبق إلا خمسة عشر منسجاً، فقس على هذا؛ وبلغ الفروج مائة درهم، ثم عدم الدجاج بالكلية، لولا ما جلب من الشام، وأما أكل لحوم الآدميين فشاع وتواتر، هذا كلام الذهبي.

وقال صاحب المرآة: في هذه السنة كان هبوط النيل، ولم يعهد ذلك في الإسلام غلا مرة واحدة في دولة الفاطميين، ولم يبق منه إلا شيء يسير، واشتد الغلاء والوباء بمصر، فهرب الناس إلى المغرب والحجاز واليمن والشام، وتفرقوا وتمزقوا كل ممزق. قال: وكان الرجل يذبح ولده، وتساعده أمه على طبخه وشيه؛ وأحرق السلطان جماعة فعلوا ذلك ولم ينتهوا، وكان الرجل يدعوا صديقه وأحب الناس إليه إلى منزله ليضيفه، فيذبحه ويأكله، وفعلوا بالأطباء ذلك، وفقدت الميتات والجيف، وكانوا يخطفون الصبيان من الشوارع فيا كلونهم، وكفن السلطان في مدة يسيرة مائتي ألف وعشرين ألفا، وامتلأت طرقات المغرب والحجاز والشام برمم الناس، وصلى إمام جامع إسكندرية في يوم واحد على سبعمائة جنازة.

قال العماد الكاتب: في سنة سبع وتسعين وخمسمائة اشتد الغلاء، وامتد الوباء وحدثت المجاعة، وتفرقت الجماعة، وهناك القوى فكيف الضعيف! ونحف السمين فكيف العجيف! وخرج الناس حذر الموت من الديار، وتفرقت فرق مصر في الأمصار، ولقد رأيت الأرامل على الرمال، والجمال باركة تحت الأحمال، ومراكب الفرنج واقفة بساحل البحر على اللقم، تسترق الجياع باللقم.

قال صاحب المرآة وغيره: وكان في هذه السنة، في شعبان، زلزلة هائلة من الصعيد، هدمت بنيان مصر، فمات تحت الهدم خلق كثير.

وفي سنة تسع وتسعين في ليلة السبت سلخ المحرم ماجت النجوم في السماء شرقاً وغربا، وتطايرت كالجراد المنتشر يمينا وشمالا، ودام ذلك إلى الفجر، وانزعج الخلق، وضجوا بالدعاء، ولم يعهد مثل ذلك غلا في عام البعث وفي سنة إحدى وأربعين ومائتين. قاله صاحب المرآة وغيره.

وفي سنة ستمائة، كانت زلزلة عظيمة كانت زلزلة عظيمة بديار مصر، قاله ابن الأثير في الكامل، وفيها أخذت الفرنج فوة واستباحوها، دخلوا من فم رشيد في النيل. ذكره الذهبي في العبر.

وفي سنة سبع وستمائة، دخلت الفرنج من البحر من غربي دمياط، وساروا في البر فاخذوا قرية بورة، واستباحوا قتلاً وسبيا، وردوا في الحال، ولم يدركهم الطلب.

وفي سنة ثمان وستمائة، كانت زلزلة شديدة، هدمت بمصر والقاهرة دورا كثيرة، ومات خلق تحت الهدم.

وفي سنة خمس عشرة وستمائة، في جمادى الأولى، نزلت الفرنج على دمياط، واخذوا برج السلسلة، ثم استحوذوا على دمياط في سنة ست عشرة، فاستمرت بأيديهم إلى أن استردت منهم في سنة ثمان عشرة.

قال الذهبي في العبر: في سنة ست عشرة وستمائة، حاصر الفرنج أهل دمياط، ووقعت حروب كثيرة يطول شرحها، وجدت الفرنج في المحاصرة، وعملوا عليهم خندقاً كبيرا، وثبت أهل البلد ثباتا لم يسمع بمثله، وكثير فيهم القتل والجرح والموت، ودمت الأقوات، ثم سلموها بالأمان في شعبان، وطار عقل الفرنج، وتسارعوا إليها من كل فج، وشرعوا في تحصينها، وأصبحت دار هجرتهم، ورجوا بها أخذ ديار مصر، واشرف الإسلام على خطة خسف، وأقبل التتار من المشرق والفرنج من المغرب، وعزم المصريون على الجلاء؛ فثبتهم الكامل إلى أن سار إليه أخوه الأشرف والمعظم، وحصل الفتح ولله الحمد.

وفي سنة ثمان وعشرين وستمائة، كان غلاء شديد بديار مصر، قال ابن كثير. وبلغ النيل ستة عشر ذراعا وثلاثة أصابع فقط، بعد توقف عظيم، ووصل القمح خمسة دنانير الإردب، فرسم السلطان بفتح الأهراء وشون الأمراء، وأن يباع بثمانين درهما الإردب من غير زيادة، فانحط السعر إليه. ذكره ابن المتوج.

وفي سنة تسع وعشرين، وصل النيل ثمانية عشر ذراعا وستة أصابع، وتأخر نزوله حتى خاف الناس من عدم نزوله، فغلا السعر، ثم نزل، فانحط السعر.

وفي سنة إحدى وثلاثين، قدم إلى الملك الكامل هدية من الإفرنج، فيها دب ابيض وشعره مثل شعر السبع، ينزل البحر فيصعد بالسمك فيأكله.

وفي سنة اثنتين وثلاثين كان الوباء العظيم بمصر.

وفي سنة ثلاث وأربعين كان الغلاء بمصر، وقاسي أهلها شدائد.

وفي سنة سبع وأربعين نزلت الفرنج دمياط براً وبحرا، وملكوها، ثم استنقذت منهم.

وفي سنة تسع وأربعين، قال ابن كثير: صليت صلاة العيد يوم الفطر بعد العصر، قال: وهذا اتفاق غريب.

وفي سنة سبع وخمسين، حصلت بديار مصر زلزلة عظيمة جداً.

وفي سنة إحدى وستين، جهز الظاهر بيبرس رحمه الله تعالى أخشاباً وآلات كثيرة لعمارة المسجد النبوي بهد حريقه، فطيف بها بالديار المصرية، فرحاً بها، وتعظيما لشانها ثم ساروا بها إلى المدينة.

وفي سنة اثنتين وستين كان بديار غلاء عظيم، وفرق الظاهر الفقراء على الأمراء والأغنياء، وألزمهم بإطعامهم، وفرق هو قمحا كثيراً، ورتب كل يوم للفقراء مائة إردب تخبز وتفرق عليهم.

وفي هذه السنة ولد بمصر ولد ميت، له رأسان وأربعة أعين وأربعة أيد وأربعة أرجل.

وفي سنة ثلاث وستين وقع حريق عظيم ببلاد مصر، اتهم به النصارى، فعاقبهم السلطان عقوبة عظيمة، وفيها استجد الظاهر بمصر القضاة الثلاثة، من كل مذهب قاض.

وفي سنة أربع وستين، قال ابن المتوج: حفر الظاهر بحر مصر بنفسه، وعسكره ما بين الروضة والمنشأة.

وفي سنة خمس وستين كبا الفرس بالملك الظاهر، فانكسرت فخذه، وحصل له عرج.

وفي سنة ست وستين كانت كائنة الحبيس النصراني، كان كاهناً ثم ترهب وأقام بمفازة بجبل حلوان، فقيل إنه ظفر بكنز للحاكم صاحب مصر، فواسى منه الفقراء والمستورين من كل ملة، واشتهر أمره وشاع ذكره، وانفق في ثلاث سنين أموالاً عظيمة، فأحضره السلطان، وتلطف به، فأبى عليه أن يعرفه بجلية أمره، وأخذ يراوغه ويغالطه، فلما أعياه حنق عليه، وبسط عليه العذاب فمات. قال الذهبي: وقد أفتى غير واحد بقتله خوفاً على ضعفاء الإيمان من المسلمين أن يضلهم ويغويهم.

وفي سنة سبع وستين، رسم السلطان بإراقة الخمور، وإبطال المفسدات والخواطئ من الديار المصرية والشامية، وحبست الخواطئ حتى يتزوجن، وكتب إلى جميع البلاد بذلك، وأسقطت الضرائب التي كانت مرتبة عليها.

وفي هذه السنة حج السلطان فأحسن إلى أهل الحرمين، وغسل الكعبة بماء الورد بيده. وفي أواخر ذي الحجة من هذه السنة هبت ريح شديدة بديار مصر، غرقت مائتي مركب في النيل، وهلك فيها خلق كثير، ووقع مطر شديد جداً، وأصابت الثمار صعقة أهلكتها، حكاه ابن كثير.

وفي سنة تسع وستين شدد السلطان في أمر الخمور، وهدد من يعصرها بالقتل، وأسقط الضمان في ذلك، وكان ألف دينار كل يوم بالقاهرة وحدها، وكتب بذلك توقيع قرئ على منبر مصر والقاهرة، وسارت البرد بذلك إلى الآفاق.

وفي سنة سبعين، قال قطب الدين: في جمادى الآخرة ولدت زرافة بقلعة الجبل، وأرضعت من بقرة، قال: وهذا شيء لم يعهد مثله.

وفي سادس عشر شوال سنة خمس وسبعين، قال ابن كثير: طيف بالمحمل، وبكسوة الكعبة المشرفة بالقاهرة، وكان يوما مشهودا.

قلت: كان هذا مبدأ ذلك، واستمر ذلك كل عام إلى الآن.

وفي سنة تسع وسبعين، في يوم عرفة وقع ببلاد مصر برد كبار، اتلف كثيرا من الغلال، ووقعت صاعقة بالإسكندرية، وأخرى تحت الجبل الأحمر على حجر فأحرقته، فأخذ ذلك الحجر وسبك، فخرج منه من الحديد أواق بالرطل المصري.

وفي سنة ثمان وستمائة تربت جزيرة كبيرة ببحر النيل اتجاه قرية بولاق واللوق، وانقطع بسببها مجرى البحر، ما بين قلعة المقس وساحل باب البحر، واشتد ونشف بالكلية، واتصل ما بين المقص وجزيرة الفيل بالمشي، ولم يعهد فيما تقدم، وحصل لأهل القاهرة مشقة من نقل الماء لبعد النيل، فأراد السلطان حفره، فقالوا: إنه لا يفيد، ونشف إلى الأبد.

وفي سنة إحدى وثمانين في شعبان، طافوا بكسوة الكعبة، ولعبت مماليك الملك المنصور ايام الكسوة بالرماح والسلاح؛ وهو أول ما وقع ذلك بالديار المصرية، واستمر ذلك إلى الآن، يعمل سنين ويبطل سنين.

وفي سنة إحدى وتسعين في الرابع والعشرين من المحرم، وقع حريق عظيم بقلعة الجبل، أتلفت شيئاً كثيرا من الذخائر والنفائس والكتب.

وفي سنة ثلاث وتسعين، قال ابن المتوج: كثرت النفوس وردها أرباب المعائش، وجعلت بالميزان بربع نقرة كل أوقية، ثم بسدس الأوقية، وتحرك السعر بسبب ذلك. وكان القمح في أول السنة بثلاثة عشرة درهما الإردب، فأنتقل إلى ستين درهما الإردب. وفيها، قال ابن المتوج: كانت زلزلة بديار مصر.

وفي سنة أربع وتسعين، أوفى النيل في السادس من أيام النسيء وكسر، وبلغ مجموع زيادته ستة عشرة ذراعا وسبعة عشر إصبعا، وحصل في هذه السن بديار مصر غلاء شديد. واستهلت سنة خمس وتسعين وأهل الديار المصرية في قحط شديد ووباء مفرط، حتى أكلوا الجيف، ونفدت حواصل السلطان من العليق، فأقامت خيول السلطان ثلاثة أيام حتى أحضرت التقاوى المخلد في البلاد، وبلغ الإردب القمح مائة وسبعين درهما نقرة، وذلك عبارة عن ثمانية مثاقيل ذهب ونصف مثقال، والخبز كل رطل وثلث بالمصري بدرهم نقرة، وأكلت الضعفاء الكلاب، وطرحت الأموات في الطرقات، وكانوا يحفرون الحفائر الكبار، فيلقون فيها الجماعة الكثيرة. وبيع الفروج بالإسكندرية بستة وثلاثين درهما نقرة، وبالقاهرة بتسعة عشر، والبيض كل ثلاثة بدرهم، وفنيت الحمر والخيل والبغال والكلاب، ولم يبقى شيء من هذه الحيوانات يلوح، وفي جمادى الآخرة خف الأمر، وأخذ بالرخص، وانحط سعر القمح إلى خمسة وثلاثين درهما الإردب.

وفي سنة ست وتسعين، بلغت زيادة النيل إلى أول توت خمسة عشرة ذراعا وثمانية عشر إصبعا، ثم نقص ولم يوف.

وفي سنة سبع وتسعين توقف النيل، ثم أوفى آخر أيام النسيء.

وفي سنة ثمان وتسعين في المحرم، ظهر كوكب له ذؤابة.

وفي سنة إحدى وعشرين، كان بالقاهرة حريق كبير متتابع خارج عن الوصف، ودام أياما في أماكن، □ وأحرق جامع ابن طولون وما حوله بأسره، ثم ظفر بفاعليه، وهم جماعة من النصارى يعملون قوارير النفط، فقتلوا وأحرقوا، وهدم غالب كنائس النصارى بمصر، ونهب الباقي، وبقيت القاهرة أياماً لم يظهر فيها أحد من النصارى، وبقي لا يظهر نصراني غلا ضربه العوام، وربما قتلوه.

وفي هذه السنة، قال الذهبي في العبر: نقلت من خط بدر الدين العزازي أن كلبة ولدت بالقاهرة ثلاثين جروى، وإنها أحضرت بين يدي السلطان، فعجب منها وسأل المنجمين عن ذلك، فلم يكن عندهم علم منه.

وفي سنة اثنتين وعشرين أبطل السلطان المكس المتعلق بالمأكول بمكة، وعوض صاحبها ثلثي بلد دمامين، من صعيد مصر.

وفي سنة أربع وعشرين رسم السلطان بإبطال الملاهي بالديار المصرية، وحبس جماعة من النساء الزواني، وحصل بالديار المصرية موت كثير.

وفي هذه السنة، نودي على الفلوس أن يتعامل بها بالرطل، كل رطل بدرهمين، ورسم بضرب فلوس زنة الفلس منها درهم.

وفي سنة خمس وعشرين، وقع بالقاهرة مطر كثير، قل أن وقع مثله، وجاء سيل إلى النيل حتى تغير لونه، وزاد نحو أربعة أصابع.

وفي هذه السنة حضر السلطان القاسم بن قلاوون عند قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة، فسمع عليه عشرين حديثا من تساعياته، وخلع عليه خلعة عظيمة، وفرق من الذهب والفضة على الفقراء نحو ثلاثين ألف درهم.

وفي سنة سبع وعشرين، رسم بقتل الكلاب بالديار المصرية.

وفي سنة تسع وعشرين، رسم بالا يباع مملوك تركي لكاتب ولا لعامي.

وفي سنة أربعين، نودي على الذهب كل دينار بخمسة وعشرين درهما، وكان بعشرين درهما، وأن يتعامل به ولا يتعاملوا بالفضة، فشق ذلك على الناس، ثم بطل ذلك.

وفي سنة أربع وأربعين، اشتد آل ملك نائب السلطنة على وادي القاهرة في إراقة الخمر، ومنع المحرمات، وعاقب جماعة كثيرة على ذلك، واخرب خزانة النبوذ، وكانت دار فسق وفجور، وبنى مكانها مسجدا، ونادى: من أحضر سكرانا، أو من معه جرة خمر خلع عليه. فقعد العامة لذلك بكل طريق، وأتوه بجندي سكران، فضربه وقطع خبزه، وأخلع على الآتي به، وصار له مهابة عظيمة، وكف الناس عن أشياء كثيرة، حتى أعيان الأمراء، فقال بعض الشعراء في ذلك: آل ملك الحجاج غدا سـعـده يملأ ظهر الأرض فيما سلك

فالأمـر أمـن دونـه سـوقة والملك الظاهر هو آل ملك

وفي سنة سبع وأربعين قل ماء النيل، حتى صار ما بين المقياس ومصر يخاض، وصار من بولاق إلى المنشية طريقا يمشي فيه، وبلغت راوية الماء درهمين، وكانت بنصف درهم.

وفي سنة تسع وأربعين كان الطاعون بمصر وغيرها.

وفي سنة خمس وخمسين وسبعمائة أمر بأن يكون إزار النصرانية ازرق وإزار اليهودية أصفر، وإزار السامرية أحمر.

وفي سنة سبع وخمسين في ربيع الآخر، هبت ريح من جهة المغرب، وامتدت من مصر إلى الشام في يوم وليلة، وغرقت ببولاق نحو ثلاثمائة مركب، واقتلعت من النخيل والجميز ببلاد مصر وبلبيس شيئاً كثيرا.

وفي سنة إحدى وستين وقع الوباء بالديار المصرية.

وفي سنة أربع وستين كان الطاعون بديار مصر.

وفي سنة خمس وستين وقع الفناء في البقر، فهلك منه شيء كثير.

وفي سنة سبع وستين أخذت الفرنج مدينة إسكندرية، وقتلوا وأسروا، فخرج السلطان والعسكر لقتالهم، ففروا وتركوها.

وفي سنة تسع وستين وقع الوباء بالديار المصرية.

ذكر معاملة مصر□

قال ابن فضل الله في المسالك: معاملة مصر الدراهم، ثلثاها فضة وثلثها نحاس، والدرهم ثماني عشرة حبة خرنوبة، والخرنوبة ثلاث قمحات، والمثقال أربعة وعشرون خرنوبة، والدرهم منها قيمته ثمانية وأربعون فلسا، والدينار الحبشي ثلاثة عشر درهما وثلث درهم. وأما الكيل فيختلف بمصر: الإردب، وهو ست ويبات، الويبة أربعة أرباع، الربع أربعة أقداح، القدح مائتان واثنان وثلاثون درهما؛ هذا إردب مصر، وفي أريافها يختلف الإردب من هذا المقدار إلى أنهى ما ينتهي ثلاث ويبات. والرطل أثنى عشر أوقية، والأوقية أثنى عشر درهما.

قال صاحب المرآة: في سنة خمس وسبعين من الهجرة ضرب عبد الملك بن مروان على الدنانير والدرهم اسم الله تعالى، قال الهيثم: وسببه أنه وجد دراهم ودنانير تاريخها قبل الإسلام بأربعمائة سنة، عليها مكتوب "باسم الأب والابن وروح القدس"، فسبكها ونقش عليها اسم الله تعالى وآيات من القرآن واسم الرسول صلى الله عليه وسلم. واختلف في صورة ما كتب ، فقيل جعل في وجهه: "لا إله إلا الله" وفي الآخر "محمد رسول الله" وأرخ وقت ضربها. وقيل جعل في وجه "قل هو الله أحد" وفي الآخر "محمد رسول الله".

وقال القضاعي: كتب على أحد الوجهين "الله أحد من غير قل"، ولما وصلت إلى العراق أمر الحجاج فزيد فيها في الجانب الذي فيه محمد رسول الله في جوانب الدرهم مستديرا: "أرسله بالهدى ودين الحق . . ." الآية. واستمر نقشها كذلك إلى زمن الرشيد، فأراد تغييرها فقيل له: هذا أمر قد استقر وألفه الناس، فأبقاها على ما هي عليه اليوم، ونقش عليها اسمه.

وقيل: أول من غير نقشها المنضور، وكتب عليها اسمه.

وأما الوزن فما تعرض أحد لتغييره. انتهى كلام صاحب المرآة.

ذكر كوكب الذنب■

قال صاحب المرآة: إن أهل النجوم يذكرون أن كوكب الذنب طلع في وقت قتل قابيل، هابيل، وفي وقت الطوفان، وفي وقت نار إبراهيم الخليل، وعند هلاك قوم هاد وثمود وقوم صالح، وعند ظهور موسى وهلاك فرعون، وفي غزوة بدر، وعند قتل عثمان وعلي، وعند قتل جماعة من الخلفاء، منهم الرضى والمعتز والمهتدي والمقتدر.

قال: وأدنى الأحداث عند ظهور هذا الكوكب الزلازل والأهوال.

قلت: يدل لذلك ما أخرجه الحاكم في المستدرك، وصححه من طريق ابن أبي مليكه، قال: غدوت على ابن عباس، فقال: ما نمت البارحة! قلت: لم؟ قالوا: طاح الكوكب ذو الذنب، فخشيت أن يكون الدجال قد طرق.

■ وقال بعض من سكن مصر: لولا ماء طوبة، وخروف أمشير، ولبن برمهات، ووردة برمودة، ونبق بشنس، وتين بؤونة، وعسل أبيب، وعنب مسرى، ورطب توت، ورمان بابة، وموز هاتور، وسمك كيهك، ما أقمت بمصر.

■ والعصفور يفرخ بمصر في كانون، وليس ذلك في بلد إلا بها.

■ وليس في الدنيا فرس في نهاية الصورة في العنق غير الفرس المصري، وليس في الدنيا فرس لا يردف غير المصري، وسبب ذلك قصر ساقيه وبلاغة صدره وقصر ظهره. ويحكى أن الوليد عزم على إجراء الحلبة، فكتب إلى الأمصار أن يوجه إليه بخيار خيل كل بلد، فلما اجتمعت عرضت عليه، فمرت عليه المصرية، فلما رآها دقيقة العصب، لينة المفاصل والأعطاف، قال: هذه خيل ما عندها طائل، فقال له عمر بن عبد العزيز: وأين الخير كله إلا لهذه! فقال له: ما تترك تعصبك لمصر يا أبا حفص! فلما أجريت الخيل جاءت المصرية كلها سابقة ما خالطها غيرها.

■ وذكر أن مريم عليها السلام شكت إلى ربها قلة لبن عيسى، فألهمها أن غلت النيدة فأطعمته إياها.

■ قال: بأرض مصر حجر القيء، إذا أخذه الإنسان بيده غلب عليه الغثيان، حتى يتقيأ جميع ما في بطنه، فإن لم يلقه من يده خيف عليه التلف.

وقال الكندي: جعل الله مصر متوسطة الدنيا، وهي في الإقليم الثالث والرابع، فسلمت من حر الإقليم الأول والثاني، ومن برد الإقليم الخامس والسادس، فطاب هواؤها وبقى حرها. وضعف حرها، وخف بردها، فسلم أهلها من مشاتي الجبال ومصائف عمان وصواعق تهامة ودماميل الجزيرة وجرب اليمن، وطواعين الشام وغيلان العراق.

وعقارب عسكر مكرم، وطلب البحرين وحمى خيبر، وأمنوا من غارات الترك، وجيوش الروم وطوائف العرب، ومكابرة الديلم، وسرايا القرامطة، وبثوق الأنهار، وقحط الأمطار، وقد أكتنفها معادن رزقها؛ وقرب تصرفها، فكثر خصبها، ورغد عيشها، ورخص سعرها.

■ وقال الجاحظ في مصر: إن أهلها يستغنون عن كل بلد، حتى لو ضرب بينها وبين بلاد الدنيا سور لغنى أهلها بما فيها عن سائر بلاد الدنيا، وفيها ما ليس بغيرها، وهو حيوان السقنقور والنمس، ولولاه لأكلت الثعابين أهلها، وهو لها كقنافذ سجستان لأفاعيها، والسمك الرعاد والحطب الصنط الذي أوقد منه يوما أجمع ما وجد من رماده ملء كف، صلب العود، سريع الوقود، بطئ الخمود. ويقال إنه الأبنوس.

■ ويقال: لو لم يكن من فضل مصر إلا أنها تغني في الصيف عن الخيش والثلج وبطون الأرض، وفي الشتاء عن الوقود الفراء لكفاها.

ومما وصفت به أن صعيدها حجازي كحر الحجاز، ينبت النخل والدوم وهو شجر المقل، والعشر، والقرظ والإهليلج والفلف والخيار شنبر، واسفل أرضها شامي يمطر مطر الشام، ويقع فيه الثلوج، وينبت التين والزيتون والعنب والجوز واللوز والفستق وسائر الفواكه، والبقول الرياحين.

وحكى ابن زولاق في كتابه، ان أمير مصر موسى بن عيسى كان واقفاً بالميدان عند بركة الحبش، ■ فالتفت يمينا وشمالا، وقال لمن معه من جنده، أترون ما أرى؟ قالوا: وما يرى الأمير؟ قال: أرى عجبا، ما في شيء من الدنيا مثله، فقالوا: يقول الأمير، فقال: ارى ميدان أزهار، وحيطان نخل وبستان شجر، ومنازل سكنى، وجبانة أموات، ونهراً عجاجاً وأرض زرع ومراعى ماشية، ومرابط خيل، وساحل بحر، وقانص وحش، وصائد سمك، وملاح سفينة، وحادي إبل، ومقابر ورملا وسهلا وجبلا، فهذه سبعة عشر؛ مسيرها في أقل من ميل في ميل.

ولهذا قال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي يصف الرصد الذي بظاهر مصر:

يا نــــزهة الــــرصـــد الــــتـــي قـــد نــــــــزهــــــت

عن كــل شــــيء خـــلا فـــــــي جـــــــانـــب الــــوادي

فذا غـــــدير وذا روض وذا جـــبـــل فالضب والنون والملاح والحادي

ذكر جزيرة مصر ■

وهي المسماة الآن بالروضة

قال المقريزي: اعلم أن الروضة تطلق في زماننا على الجزيرة التي بين مدينة مصر وبين مدينة الجيزة، وعرفت في أول الإسلام بالجزيرة وجزيرة مصر، ثم قيل لها جزيرة الحصن، وعرفت الروضة من زمن الأفضل بن أمير الجيوش إلى اليوم. انتهى.

والجزيرة كل بقعة في وسط البحر لا يعلوها البحر، سميت بذلك لأنها جزرت، أي قطعت وفصلت من تخوم الأرض، فصارت منقطعة.

وفي الصحاح: الجزيرة: واحدة جزائر البحر؛ سميت بذلك لانقطاعها عن معظم الأرض.

وقال القضاعي: حصن الجزيرة بناه أحمد بن طولون في سنة ثلاث وستين ومائتين، ليحرز فيه حريمه ■ وماله، وكان سبب ذلك مسير موسى بن بغا من العراق والياً على مصر، وجميع أعمال ابن طولون، وذلك في خلافة المعتمد على الله، فلما بلغ احمد بن طولون مسيره تأمل مدينة فسطاط مصر، فوجدها لا تأخذ غلا من جهة النيل، فبنى الحصن بالجزيرة التي بين الفسطاط والجيزة ليكون معقلاً لحريمه وذخائره، واتخذ مائة مركب حربية سوى ما يضاف إليها من العشاريات وغيرها؛ فلما بلغ موسى بن بغا بالرقة تثاقل عن المسير لعظم شأن ابن طولون وقوته، ثم لم يلبث موسى أن مات، وكفى ابن طولون أمره.

وقال محمد بن داود لأحمد بن طولون:

لما قضى ابن بغا بالرقتين ملا ساقيه درقاً إلى الكعبين والعقب بنى الجزيرة حصناً يستجن به بالعسف والضرب، والصناع في تعب وواثب الجيزة القصوى فخندقها وكاد يصعق من خوف ومن رعب له مراكب فوق النيل راكدة لما سوى القار للنظار والخشب ترى عليها لباس الذل مذ بنيت بالشط ممنوعة من عزة الطلب فما بناها لغزو الروم محتسباً لكن بناها غداة الروع للهرب

قال الحافظ جمال الدين يوسف بن أحمد اليغموري: سمعت الأمير جمال الدين موسى بن يغمور بن ■ جلدك، يقول: من عجيب ما شاهدته من الملك الصالح، أنه أمرني أن اهدم مسجدا بجزيرة مصر، فأخرت ذلك، وكرهت ان يكون هدمه على يدي، فأعاد الأمر، وأنا كاسر عنه؛ فكأنه فهم عني ذلك، فأستدعى بعض خدمه وأنا غائب، وأمره ان يهدم ذلك المسجد.

وفي الروضة يقول الأسعد بن مماتي ■:

جزيرة مصر واعدتك مسرة ولا زالت اللذات فيك اتصالها فكم فيك من شمس على غصن بانة يميت ويحيى هجرها ووصالها مغانيك فوق النيل أضحت هوادجاً ومختلفات الموج فيها جمالها ومن اعجب الأشياء جنة ترف على أهل الضلال ظلالها

قال صاحب مباهج الفكر: كان الخليفة المتوكل قد حمى الورد، ومنعه من الناس كما حمى النعمان بن ■ المنذر الشقيق واستبد به، وقال: لا يصلح للعامة، فكان لا يرى غلا في مجلسه. وكان يقول: أنا ملك السلاطين، والورد ملك الرياحين، وكل منا أولى بصاحبه. وغلى هذا أشار ابن سكرة بقوله:

للورد عندي محل لأنه لا يمل كل الرياحين جند وهو الأمير الأجل إن جاء عزوا وتاهوا حتى إذا غاب ذلوا قال ابن البيطار في مفرداته: الورد أصناف: أحمر، وأبيض، واصفر، وأسود. زاد غيره: وأزرق.

ومن كتاب السجع الجليل فيما جرى من النيل ■:

أما دير الطين فقد ليس سقوف حياطنه، واقتلع أشجار غيطانه، واتى على ما فيه من حاصل وغلة، وتركه ملقة فكان كما قيل: زاد الطين بلة.

قال ابن عبد الحكم: كان أول من قاس النيل بمصر يوسف عليه السلام، ووضع مقياسا بمنف، ثم وضعت ■ العجوز دلوكة أبنة زباء مقياسا بأنصنا؛ وهو صغير الذرع ومقياسا بأخميم. ووضع عبد العزيز بن مروان مقياسا بحلوان وهو صغير، ووضع أسامة أبن زيد التنوخي في خلافة الوليد مقياسا بالجزيرة؛ وهي المسماة الآن بالروضة، وهو أكبرها؛ حدثنا يحيى بن بكير، قال: أدركت القياس يقيس في مقياس منف ويدخل بزيادته إلى الفسطاط.

هذا ما ذكره أبن عبد الحكم.

قال التيفاشي: ثم هدم المأمون مقياس الجزيرة، وأسسه ولم يتمه، فأتم المتوكل بناءه وهو الموجود الآن.

وقال صاحب مباهج الفكر: المقياس الذي بأنصنا ينسب لأشمون بن قفطيم بن مصر ويقال إنه من بناء دلوكة، وبناؤه كالطيسان، وعليه أعمدة بعدد أيام السنة من الصوان الأحمر.

وقال الكندي في فضل مصر: بمصر العجائب والبركات، فجلبها المقدس، ونيلها المبارك، وبها الطور ■ الذي كلم الله عليه موسى؛ فإن أهل العلم ذكروا ان الطور من المقطم، وانه داخل فيما وقع عليه القدس؛ قال

كعب: كلم الله موسى عليه السلام من الطور إلى أطراف المقطم من القدس. وبها الوادي المقدس، وبها ألقى موسى عصاه، وبها فلق البحر لموسى، وبها ولد موسى وهرون، وبها ولد عيسى، وبها كان ملك يوسف، وبها النخلة التي ولدت مريم عيسى تحتها بريف من كورة اهناس، وبها اللبخة التي أرضعت عندها مريم عيسى باشمون، فخرج من هذه اللبخة الزيت، وبها مسجد إبراهيم، ومسجد يعقوب، ومسجد موسى، ومسجد يوسف، ومسجد مارية سرية رسول الله صلى الله عليه وسلم حفن، أوصت أن يبني بها مسجد فبني، وبها مجمع البحرين وهو البرزخ الذي قال الله: (مرج البحرين يلتقيان، بينهما برزخ لا يبغيان) وقال: (وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا).

وقال غيره: لأهل مصر القلم المعروف بقلم الطير، وهو قلم البرابي، وهو قلم عجيب الحرف.

قال: ومصر عند الحكماء العالم الصغير، سليل العالم الكبير؛ لأنه ليس في بلد غني غريب إلا وفيها مثله واغرب منه، وتفضل على البلدان بكثرة عجائبها ومن عجائبها النمس؛ وهو أقتل للثعابين بمصر من القنافد للأفاعي بسجستان.

وبمصر جبل يكتب بحجارته كما يكتب بالمداد، وجبل يؤخذ منه الحجر، فيترك في الزيت فيقد كما يقد السراج.

ويقال: إنه ليس على وجه الأرض نبت ولا حجر إلا وفي مصر مثله، وليس تطلب في سائر الدنيا الأموال المدفونة إلا بمصر.

ويقال: إن بمصر بقلة؛ من مسها بيده ثم مس السمك الرعاد لم ترعد يده، وبها حجر الخل يطفأ على الخل. وبها حجر القيء إذا امسكه الإنسان بيديه تقيأ كل ما في بطنه، وبها خرزة تجعلها المرأة على حقوقها فلا تحبل. وبها حجر يوضع على حرف التنور فيتساقط خبزه، وكان يوجد بصعيدها حجارة رخوة تكسر فتقد كالمصابيح.

■ وعن أبن القرية قال: الهند بحر هادر، وجبلها ياقوت، وشجرها عود، وورقها عطر. وكرمان ماؤها وشل، وثمرها دقل، ولصها بطل. وخراسان ماؤها جامد، وعدوها جاهد. وعمان حرها شديد، وصيدها عتيد. والبحرين كناسة بين المصرين. والبصرة ماؤها ملح، وحربها صلح، مأوى كل تاجر، وطريق كل عابر. والكوفة ارتفعت عن حر البحرين، وإسفلت عن برد الشام، وواسط جنة، بين كماة وكنة، والشام عروس، بين نساء جلوس، ومصر هواؤها راكد، وحرها متزائد، تطول الأعمار، وتسود الابشار.

وقال بعضهم: يقال في خصائص البلاد في الجوهر: فيروزج نيسابور، وياقوت سرنديب، ولؤلؤ عمان، وزبرجد مصر، وعقيق اليمن، وجزع ظفار، وكاري بلخ، ومرجان إفريقية.

وفي ذوات السموم: أفاعي سجستان، وحيات اصبهان، وثعابين مصر، وعقارب شهر زور، وجرارات، الاهواز، وبراغيث أرمينية، وفار أردن، ونمل ميافارقين، وذباب تل بابان، واوزاغ بلد.

وفي الملابس برود اليمن، ووشى صنعاء، وريط الشام وقصب مصر، وديباج الروم، وقز السوس، وحرير الصين، وأكسية فارس، وحلي البحرين وسقلاطون بغداد، وعمائم الابلة والري، وملحم مرو، وتكك أرمينية، ومناديل الدامغان، وجوارب قزوين.

وفي المراكيب عتاق البادية، ونجائب الحجاز، وبراذين طخارستان، وحمير مصر، وبغال برزعة.

وفي الأمراض طواعين الشام، وطحال البحرين، ودماميل الجزيرة، وحمى خيبر، وجنون حمص، وعرق اليمن، ووباء مصر، وبرسام العراق، والنار الفارسية، وقروح بلخ.

قال التيفاشي في كتاب سجع الهديل: لم يسم نهر من الأنهار في القرآن سوى النيل في قوله تعالى: ■ (وأوحينا إلى أم موسى أن ارضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم) قال: أجمع المفسرون على ان المراد باليم هنا نيل مصر.

وللنيل ثماني خلجانات: خليج الإسكندرية، وخليج دمياط، وخليج منف، وخليج المنهى- حفره يوسف عليه ■ السلام- وخليج أشموم طناح، وخليج سردوس- حفره هامان لفرعون- وخليج سخا، وخليج حفره عمرو بن العاصي زمن عمر بن الخطاب. ويحصل لأهل مصر يوم وفائه الستة عشر ذراعا التي هي قانون الري سرور شديد بحيث يركب الملك في خواص دولته الحراريق المزينة إلى المقياس، ويمد فيه سماطا ويخلق العمود الذي يقاس فيه ويخلع على القياس، ويعطيه صلة مقررة له.

وقد ذكر بعض المفسرين انه يوم الزينة، الذي وعد فرعون موسى بالاجتماع فيه.

هذا كله كلام مباهج الفكر.

قال: وجميع الأنهار تجري إلى القبلة سواه، فإنه يجري إلى ناحية الشمال. وكان القاضي بحماه قال: ■ ومتى بلغ ستة عشر ذراعا استحق السلطان الخراج، وإذا بلغ ثمانية عشر ذراعا قالوا: يحدث بمصر وباء عظيم، وإذا بلغ عشرين ذراعا مات ملك مصر.

ومن عجائب هذا النيل سمكة تسمى الرعاد من مسها بيده أو بعود متصل بيده أو جذب شبكة هي فيها، ■ أو قصبة أو سنارة وقعت فيها رعدت يده ما دامت فيها، وبمصر بقلة من مسها بيده، ثم مس الرعاد لم ترعد.

وفيه شيخ البحر سمكة على صورة آدمي، وله لحية طويلة، ويكون بناحية دمياط وهو مشؤوم، فإذا رئى ■ في مكان دل على القحط والموت والفتن.

ويقال: عن دمياط ما تنكب حتى يظهر عندها.

أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن فتحون المخزومي يصف نارمجة في نهر■:

ولقد رميت مع العشي بنظـرة في منظر غض البشاشة يبهج نـهر صقيل كالحسام بشـطـه روض لنا تفـاحـه يتـارج تثنى معاطفه الصبا في بـردة موشية بيد الغمامة تـنـسـج والماء فوق صفاته نـارنـجة تطفو به وعبابـه يتـمـوج حمراء قانـية الأديم كـأنـهـا وسط المجرة كوكب يتأجج

وكان هذا الخليج يقال له أولا خليج أمير المؤمنين- يعني عمر بن الخطاب- لأنه الذي أشار بتحديد ■ حفره، ثم صار يقال له خليج مصر؛ فلما بنيت القاهرة بجانبه من شرقيه صار يعرف بخليج القاهرة، والآن تسميه العامة بالخليج الحاكمي. وتزعم ان الحاكم احتفره، وليس بصحيح.

ذكر الخليج الناصري ■

حفره الملك الناصر محمد بن قلاوون في سنة خمس وعشرين وسبعمائة، لما بنى الخانقاه بسرياقوس، فأراد إجراء الماء من النيل إليها ليرتب عليه السواقي والزرعات، وفوض أمره إلى أرغون النائب، فخفر في مدة شهرين من أول جمادى الأولى إلى سلخ جمادى الآخرة، وبنى فخر الدين ناظر الجيش عليه قنطرة، وبنى قد يدار وإلى القاهرة قنطرة قد يدار وقناطر الأرز وقناطر الأميرية.

■

وقال صاحب مرآة الزمان: ولما تم بناء الجامع رأى ابن طولون في منامه كان الله تجلى للقصور التي □ حول الجامع، ولم يتجل للجامع، فسأل المعبرين، فقالوا: يخرب ما حوله، ويبقى الجامع قائما وحده. قال: ومن أين لكم هذا؟ قالوا: من قوله تعالى: (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً). وقوله عليه الصلاة والسلام: "إذا تجلى الله لشيء خضع له"، فكان كما قالوا.

ودس أحمد بن طولون عيونا لسماع ما يقوله الناس من العيوب في الجامع، فقال رجل: محرابه صغير، □ وقال آخر: ما فيه عمود، وقال آخر: ليس له ميضأة، فجمع الناس وقال: أما المحراب فإني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد خطه لي، وأما العمد فإني بنيت هذا الجامع من مال حلال وهو الكنز، وما كنت لأشوبه بغيره، وهذه العمد إما أن تكون من مسجد أو كنيسة، فنزهته عنهما؛ وأما الميضأة، فها أنا خلفه، ثم عمل في مؤخره ميضأة وخزانة شراب فيها، جمع الأشربة والأدوية، وعليها خدم، وفيها طبيب جالس يوم الجمعة لحادث يحدث من الحاضرين للصلاة، وأوقف على الجامع أوقافاً كثيرة سوى الرباع ونحوها، ولم يتعرض إلى شيء من أراضي مصر البتة.

ثم إن لاجين لما قتل الأشرف خليل بن قلاوون هرب، فاختفى بمنارة هذا الجامع فنذر إن نجاه الله من هذه □ الفتنة ليعمرنه، فنجاه الله، وتسلطن، فأمر بتجديده، وفوض أموره إلى الأمير علم الدين سنجر الزيني، فعمره ووقف عليه وقفاً، ورتب فيه دروس التفسير والحديث والفقه على المذاهب الأربعة والقراءات والطب والميقات حتى جعل من جملة ذلك وقفا على الديكة تكون في سطح الجامع في مكان مخصوص بها لأنها تعين الموقتين وتوقظهم في السحر. فلما قرئ كتاب الوقف على السلطان أعجبه، كل ما فيه إلا أمر الديكة، فقال: أبطلوا هذا لا تضحكوا الناس علينا، فأبطل.

ذكر أمهات المدارس والخانقاه العظيمة □

بالديار المصرية

قال: أول من بنى المدارس في الإسلام الوزير نظام الملك قوام الدين الحسن بن علي الطوسي، وكان وزير السلطان البارسلان السلجوقي عشر سنين، ثم وزر لولده ملكشاه عشرين سنة. وكان يحب الفقهاء والصوفية ويكرمهم، ويؤثرهم، بنى المدرسة النظامية ببغداد، وشرع فيها في سنة سبع وخمسين وأربعمائة، ونجزت سنة تسع وخمسين، وجمع الناس على طبقاتهم فيها يوم السبت عاشر ذي القعدة ليدرس فيها الشيخ أبو إسحاق الشيرازي، فجاء الشيخ ليحضر الدرس، فلقيه صبي في الطريق، فقال: يا شيخ كيف تدرس في مكان مغصوب؟ فرجع الشيخ؛ واختفى. فلما يئسوا من حضوره، ذكر الدرس بها أبو نصر بن الصباغ عشرين يوما. ثم عن نظام الملك احتال على الشيخ أبي إسحاق ولم يزل يرفق به حتى درس بها، فحضر يوم السبت مستهل ذي الحجة، وألقى الدرس بها إلى أن توفي. وكان يخرج أوقات الصلاة فلا يصلي بمسجد خارجها

احتياطا. وبنى نظام الملك أيضا مدرسة بنيسابور تسمى النظامية، درس بها إمام الحرمين، واقتدى الناس به في بناء المدارس.

وقد أنكر الحافظ الذهبي في تاريخ الإسلام على من زعم أن نظام الملك أول من بنى المدارس وقال: قد كانت المدرسة البيهقية بنيسابور قبل أن يولد نظام الملك، والمدرسة السعيدية بنيسابور أيضا، بناها الأمير نصر بن سبكتكين أخو السلطان محمود لما كان واليا بنيسابور، ومدرسة ثالثة بنيسابور، بناها أبو سعد إسماعيل بن علي بن المثنى الأسترابادي الصوفي الواعظ شيخ الخطيب، ومدرسة رابعة بنيسابور أيضا بنيت للأستاذ أبي إسحاق.

قال الحاكم في ترجمة الأستاذ أبي إسحاق: لم يكن بنيسابور مدرسة قبلها مثلها؛ وهذا صريح في أنه بنى قبلها غيرها.

وحكى بعض الأصحاب أنه رأى آبارا تجرى إلى شجر الورد ماء مخلوطا بالنيل، فسأله فقال: إن الورد ■ يكون أزرق بهذا العمل.

عبادة البحتري ■:

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا من الحسن حتى كاد أن يتكلمـا وقد نبه النوروز في غسق الدجى أوائل ورد كن بالأمس نـومـا يفتحه برد النـدى فكـأنـمـا يبث حديثا بينهن مكـتـمـا

والناس يشبهون عدم دوام الورد بقلة بقاء الود، ولهذا كتب أبو دلف إلى عبد الله ابن ظاهر يعاتبه: أرى ■ حبكم كالورد ليس بـدائم ولا خير فيمن لا يدوم له عهد

وودي لكم كالآس حسناً ونضرة له زهرة تبقى إذا فنى الورد

فأجابه عبد الله بن طاهر: وشـبـــهـــت ودي الـــورد وهـــو شــبــيهـــه وهــل زهــرة إلا وســـيدهــــا الـــــورد

وودك كـــالآس الـــمـــــرير مـــــــذاقــــــه وليس له في القلب قبل ولا بعد.

مدرسة السلطان حسن بن الناصر

محمد بن قلاوون

شرع في بنائها في سنة ثمان وخمسين وسبعمائة، وكان في موضعها دور وإسطبلات. قال المقريزي: لا يعرف ببلاد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحكى هذه المدرسة في كبر قالبها، وحسن هندامها، وضخامة شكلها، قامت العمارة فيها مدة ثلاث سنين، لا تبطل يوما واحدا، وارصد لمصروفها في كل يوم عشرين ألف درهم، منها نحو ألف مثقال ذهباً، حتى قال السلطان: لولا أن يقال: ملك مصر عجز عن إتمام ما بناه لتركت بناءها؛ من كثر ما صرف.

وذرع إيوانها الكبير خمسة وستون ذراعا في مثلها، ويقال إنه أكبر من إيوان كسرى بخمسة أذرع، وبها أربع مدارس للمذاهب الأربعة.

وكان السلطان قد عزم على أن يبنى أربع منائر، يؤذنون عليها، فتمت ثلاث منائر إلى أن كان يوم السبت سادس ربيع الآخر سنة اثنتين وستين وسبعمائة، سقطت المنارة التي على الباب، فهلك تحتها نحو ثلاثمائة نفس من الأيتام الذي كانوا قد رتبوا بمكتب السبيل ومن غيرهم، فلهج الناس بان ذلك ينذر بزوال الدولة، فقال الشيخ بهاء الدين السبكي في ذلك أبياتا:

أبشر فسعدك يا سلطان مصر أتى بشيره بمقال سار كالمثل إن المنارة لم تسقط لمنقصة لكن لسر خفي قد تبين لي من تحتها قرئ القرآن فاستمعت فالوجد في الحال أداها إلى الميل لو أنزل الله قرآنا على جبل تصدعت رأسه من شدة الوجل تلك الحجارة لم تنقض بل هبطت من خشية الله لا للضعف والخلل وغاب سلطانها فاستوحشت فرمت بنفسها لجوى في القلب مشتعل فالحمد لله خط العين زال بما قد كان قدره الرحمن في الأزل لا يعتري البؤس بعد اليوم مدرسة شيدت بنيانها للعلم والعمل ودمت حتى ترى الدنيا بها امتلأت علماً فليس بمصر غير مشتغل فاتفق قتل السلطان بعد سقوط المئذنة بثلاثة وثلاثين يوما.

ذكر مصر في القرآن صريحاً أو كناية

اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم)، وقرئ: (اهبطوا مصر) لا تنوين، فعلى هذا هي مصر المعروفة قطعاً،) وعلى قراءة التنوين، يحمل ذلك على الصرف اعتباراً بالمكان؛ كما هو المقرر في العربية في جميع أسماء البلاد، وأنها تذكر وتؤنث، وتصرف وتمنع. وقد أخرج ابن جرير في تفسيره عن أبي العالية في قوله: (اهبطوا مصراً) قال: يعني مصر فرعون.

وقال تعالى: (وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتاً).

وقال تعالى: (وقال الذي آشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه).

وقال تعالى حكاية عن يونس عليه الصلاة والسلام: (ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين).

وقال تعالى حكاية عن فرعون: (أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي).

وقال تعالى: (وقال نسوة في المدينة آمرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً).

وقال تعالى: (ودخل المدينة على حين غفلةٍ من أهلها).

وقال تعالى: (فأصبح في المدينة خائفاً يترقب).

وقال تعالى: (وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى)

وقال تعالى في أول السورة: (وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث).

وقال تعالى: (فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي)، قال ابن جرير: أي لن أفارق الأرض التي أنا بها - وهي مصر - حتى يأذن لي أبي بالخروج منها.

وقال تعالى: (إن فرعون علا في الأرض).

وقال تعالى: (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين، ونمكن لفهم في الأرض).

وقال تعالى: (إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض).

وقال تعالى: (لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض).

وقال تعالى: (أو أن يظهر في الأرض الفساد).

وقال تعالى: (أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض . . .)، إلى قوله: (إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده . . .)، إلى قوله: (قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض).

المراد بالأرض في هذه الآيات كلها مصر.

وعن ابن عباس - وقد ذكر مصر -، فقال: سميت مصر بالأرض كلها في عشرة مواضع من القرآن.

قلت: بل في أثنى عشر موضعاً أو أكثر.

وقال تعالى: (وأورثنا القوم الذين كانوا مستضعفين مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها)؛ قال الليث بن سعد: هي مصر؛ بارك فيها بالنيل. حكاه أبو حيان في تفسيره.

وقال القرطبي في هذه الآية: الظاهر أنهم ورثوا أرض القبط. وقيل: هي أرض الشام ومصر؛ قاله ابن إسحاق وقتادة وغيرهما.

وقال تعالى في سورتي الأعراف والشعراء: (يريد أن يخرجكم من أرضكم).

وقال تعالى: (إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها).

وقال تعالى: (فأخرجناهم من جناتٍ وعيون وكنوز ومقام كريمٍ).

وقال تعالى تعالى: (كم تركوا من جناتٍ وعيون، وزروع ومقام كريم)؛ قال الكندي: لا يعلم بلد في أقطار الأرض أثنى الله عليه في القرآن بمثل هذا الثناء، ولا وصفه بمثل هذا الوصف، ولا شهد له بالكرم غير مصر.

وقال تعالى: (ولقد بوأنا إسرائيل مبوأ صدقٍ)، أورده ابن زولاق. وقال القرطبي في تفسيره: أي منزل صدق محمود مختار - يعني مصر. وقال الضحاك: هي مصر والشام.

■ ذكر جبل المقطم:

قال ابن عبد الحكم: حدثنا عبد الله بن صالح، عن الليث بن سعد، قال: سأل المقوقس عمرو بن العاص أن يبيعه سفح المقطم بسبعين ألف دينار، فعجب عمرو عن ذلك وقال: أكتب في ذلك إلى أمير المؤمنين، فكتب في ذلك إلى عمر، فكتب إليه عمر: سله لم أعطاك به ما أعطاك وهي لا تزدرع ولا يستنبط بها ماء، ولا ينتفع بها. فسأله فقال: إنا لنجد صفتها في الكتب؛ إن فيها غراس الجنة. فكتب بذلك إلى عمر، فكتب إليه

عمر: إنا لا نعلم غراس الجنة إلا للمؤمنين، فاقبر فيها من مات قبلك من المسلمين، ولا تبعه بشيء. فكان أول من دفن فيها رجل من المعافر، يقال له عامر، فقيل: عمرت.

حدثنا هانئ بن المتوكل، عن ابن لهيعة، أن المقوقس قال لعمرو: إنا لنجد في كتابنا أن ما بين هذا الجبل وحيث نزلتم ينبت فيه شجر الجنة، فكتب بقوله إلى عمر ابن الخطاب، فقال: صدق، فاجعلها مقبرةً للمسلمين.

حدثنا عثمان بن صالح، عن ابن لهيعة، عمن حدثه، قال: قبر فيها ممن عرفنا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس نفر: عمرو بن العاص، وعبد الله بم حذافة السهمي، وعبد الله بن الحارث الزبيدي، وأبو بصرة الغفاري، وعقبة بن عامر الجهني.

وقال غير عثمان: ومسلمة بن مخلد الأنصاري. قال ابن لهيعة: والمقطم ما بين القصير إلى مقطع الحجارة، وما بعد ذلك فمن اليحموم.

حدثنا سعيد بن عفير وعبد الله بن عياد، قالا: حدثنا المفضل بن فضالة، عن أبيه قال: دخلنا على كعب الأحبار، فقال لنا: ممن أنتم؟ قلنا: من أهل مصر، قال: ما تقولون في القصير؟ قلنا: قصير موسى قال: ليس بقصير موسى، ولكنه قصير عزيز مصر، كان إذا جرى النيل يترفع فيه، وعلى ذلك إنه لمقدس من الجبل إلى البحر.

وأخرج ابن عساكر في تاريخه، عن سفيان بن وهب الخولاني، قال: بينما نحن نسير مع عمرو بن □ العاص في سفح المقطم، ومعنا المقوقس، فقال له: يا مقوقس، ما بال جبلكم هذا أقرع، ليس عليه نبات ولا شجر، على نحو من جبال الشام! قال: ما أدري؛ ولكن الله أغنى أهله بهذا النيل عن ذلك؛ ولكنا نجد تحته ما هو خير من ذلك، قال: وما هو؟ قال: ليدفنن تحته قوم يبعثهم الله يم القيامة لا حساب عليهم، فقال عمرو: اللهم اجعلني منهم.

قال الكندي: وروى ابن لهيعة عن عياش بن عباس، أن كعب الأحبار سأل رجلاً يريد السفر إلى مصر، □ فقال له: أهد لي تربة من سفح مقطمها؛ فأتاه منه بجراب. فلما حضرت كعباً الوفاة أمر به ففرش في لحده تحت جنبه.

قد أفتى ابن الجميزي وغيره بهدم كل بناء بسفح المقطم، وقالوا: إنه وقف من عمر على موتى المسلمين ■.

وذكر ابن الرفعة عن شيخه الظهير التزمنتي، عن ابن الجميزي، قال: جهدت مع الملك الصالح في هدم ■ ما أحدث بالقرافة من البناء، فقال: أمر فعله والدي، لا أزيله. قال: وهذا أمر قد عمت به البلوى وطمت، ولقد تضاعف البناء حتى انتقل إلى المباهات والنزهة، وسلطت المراحيض على أموت المسلمين من الأشراف والأولياء وغيرهم.

قال: وكان البربر بفلسطين، وكان ملكهم جالوت؛ فما قتله داود عليه الصلاة والسلام خرج البربر ■ متوجهين إلى المغرب؛ حتى انتهوا إلى لوبية وماقية - وهما كورتان من كور مصر الغربية مما يشرب من السماء، ولا ينالهما النيل - فتفرقوا هنالك؛ فتقدمت زناته ومغيلة إلى المغرب، وسكنوا الجبال، وتقدمت لواته، فسكنت أرض أنطابلس؛ وهي برقة؛ وتفرقت في هذا المغرب، وانتشروا فيه، ونزلت هوارة مدينة لبدة.

وأخرج ابن عبد الحكم، عن يزيد بن أبي حبيب؛ أن المقوقس أهدى إلى النبي صلى الله عليه وسلم عسلاً □ من عسل بنها، فأعجب النبي صلى الله عليه وسلم، فدعا في عسل بنها بالبركة. مرسل حسن الإسناد.

وعن كعب قال: في التوراة مكتوب: مصر خزائن الأرض كلها، فمن أراد بها سوءاً قصمه الله.

وعن كعب قال: لولا رغبتي في بيت المقدس ما سكنت إلا مصر. قيل: ولم؟ قال: لأنها بلدة معافاة من الفتن، ومن أرادها بسوء كبه الله على وجهه؛ وهو بلد مبارك لأهله فيه.

وعن أبي بصرة الغفاري، قال: مصر خزائن الأرض كلها، وسلطان مصر سلطان الأرض كلها.

وقال بعض أصحابه: ألزمني ابن طولون صدقاته، وكانت كثيرة، فقلت له يوماً: ربما امتدت إلى اليد ■ المطوقة بالجوهر، وامعصم ذو السوار، والكم الناعم، أفأمنع هذه الطبقة! فقال: هؤلاء المستورون الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، أحذر أن ترد يداً امتدت إليك، وأعط من استعطاك، فعلى الله تعالى أجره؛ وكان يتصدق في كل أسبوع بثلاثة آلاف دينار سادة سوى الراتب، ويجري على أهل المساجد في كل شهر ألف دينار، وحمل إلى بغداد في مدة أيامه، وما فرق على العلماء والصحالين ألفي ألف دينار ومائتي ألف دينار، وكان خراج مصر في أيامه أربعة آلاف دينار وثلثمائة ألف دينار، وكان لابن طولون ما بين رحبة مالك بن طوق إلى أقصى المغرب.

واستمر ابن طولون أميراً بمصر إلى أن مات بها ليلة الأحد لعشر خلون من ذي القعدة سنة سبعين ومائتين، وخلف سبعة عشر ابناً. قال بعض الصوفية: ورأيته في المنام بعد وفاته بحال حسنة، فقال: ما ينبغي لمن سكن الدنيا أن يحقر حسنة فيدعها ولا سيئة فيأتها، عدل بي عن النار إلى الجنة بتثبتي على متظلم عيي اللسان شديد التهيب، فسمعت منه وصبرت عليه حتى قامت حجته، وتقدمت بإنصافه، وما في الآخرة أشد على رؤساء الدنيا من الحجاب لملتمس الإنصاف.

وولي بعده ابنه أبو الجيش خماوريه، وأقام أيضاً مدة طويلة، ثم في ذي الحجة سنة اثنتين وثمانين قدم □ البريد فأخبر المعتضد بالله أن خماوريه ذبحه بعض خدمه على فراشه وولوا بعده ولده جيش فأقام تسعة أشهر، ثم قتلوه ونهبوا داره، وولوا هارون بن خماوريه، وقد التزم في كل سنة بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار، تحمل إلى باب الخليفة، فأقره المعتضد على ذلك، فلم يزل إلى صفر سنة اثنتين وتسعين

وولي أبو بكر محمر بن طغج الملقب بالأخشيد، ثم صرف من عامه، وأعيد أحمد بن كيغلغ، ثم صرف ■ ثلاث وعشرين.

وأعيد محمد بن طغج الإخشيدي، وفي هذا الوقت كان تغلب أصحاب الأطراف عليها لضعف أمر الخلافة وبطل معنى الوزارة، وصارت الدواوين تحت حكم أمير الأمراء محمد بن رائق، وصارت الدنيا في أيدي عمالها؛ فكانت مصر والشام في يد الإخشيد والموصل وديار بكر وديار ربيعة، ومضر في أيدي بني حمدان، وفارس في يد على بن بويه، وخراسان في يد نصر بن أحمد، وواسط والبصرة والأهواز في يد اليزيدي، وكرمان في يد محمد بن الياس، والري وأصفهان والجبل في يد الحسن بن بويه، والمغرب وإفريقية في يد أبي عمرو الغساني، وطبرستا وجرجان في يد الديلم، والبحرين واليمامة وهجر في يد أبي طاهر القرمطي؛ فأقام محمد بن طغج في مصر إلى أن مات في ذي الحجة سنة أربع وثلاثين وثلثمائة.

قال الذهبي: كان كافور خصياً حبشياً، اشتراه الإخشيد من بعض أهل مصر بثمانية عشر دينار ثم تقدم ■□ عنده لعقله ورأيه إلى أن صار من كبار القواد، ثم لما مات أستاذه كان أتابك ولده أنوجور، وكان صبياً فغلب كافور على الأمور، وصار الاسم للولد، والدست لكافور، ثم استقل بالأمر، ولم يبلغ أحد من الخصيان ما بلغ كافور ومؤنس المظفري الذي ولي سلطنة العراق، ومدحه المتنبي بقوله:

قواصد كافور تـوارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا فجاءت بنا إنسان عين زمـانـه وخلت بياضاً خلفهـا ومـآقيا وهجاه بقوله:

من علم الأسود المخصي مكـرمةً أقومه البيض أم آبـاؤه الـصـيد وذاك أن الفحول البيض عـاجـزة عن الجميل، فكيف الخصية السود وقال محمد بن عبد الملك الهمداني: كان بمصر واعظ على الناس، فقال يوماً في قصصه: انظروا إلى هوان الدنيا على الله تعالى، فإنه أعطاها لمقصوصين ضعيفين: ابن بويه ببغداد وهو أشل، وكافور عندنا بمصر وهو خصي، فرفعوا إليه قوله وظنوا أنه يعاقبه، فتقدم له بخلعة ومائة دينار، وقال: لم يقل هذا إلا لجفائي له، فكان الواعظ يقول بعد ذلك في قصصه: ما أنجب من ولد حامٍ إلا ثلاثة: لقمان، وبلال المؤذن، وكافور.

ولما مات كافور ولي المصريون مكانه أبا الفوارس أحمد بن علي بن الإخشيد وهو ابن اثنتين وعشرين ■ سنة، فأقام شهوراً حتى أتى جوهر القائد من المغرب فانتزعها منه.

لما توفي كافور الإخشيدي لم يبق بمصر من يجتمع القلوب عليه، وأصابهم غلاء شديد أضعفهم؛ فلما بلغ ذلك المعز أبا تميم معد بن المنصور إسماعيل، وهو ببلاد إفريقية بعث مولى أبيه جوهر؛ وهو القائد الرومي، في مائة ألف مقاتل، فدخلوا مصر في يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان سنة ثمان وخمسين وثلثمائة، فهرب أصحاب كافور، وأخذ جوهر مصر بلا ضربةٍ ولا طعنةٍ ولا ممانعةٍ، فخطب جوهر للمعز يوم الجمعة على منابر الديار المصرية وسائر أعمالها، وأمر المؤذنين بجامع عمرو وبجامع ابن طولون أن يؤذنوا بحيّ علي خير العمل؛ فشق ذلك على الناس، وما استطاعوا له رداً، وصبروا لحكم الله، وشرع في بناء القاهرة والقصرين والجامع الأزهر، وأرسل بشيراً إلى المعز يبشره بفتح الديار المصرية وإقامة الدعوة له بها، وطلبه إليها. ففرح المعز بذلك، وامتدحه شاعره محمد بن هانئ بقصيدة أولها:

يقول بنو العباس: هل فتحت مصر؟ فقل لبني العباس: قد قضي الأمر وابن هانئ هذا قد كفره غير واحد من العلماء، منهم القاضي عياض من ذلك قوله في المعز:

ما شئت لاما شـاءت الأقـدار فاحكم فـأنـت الـواحد الـقـهـار

ثم توجه المعز من المغرب في شوال سنة إحدى وستين، فوصل الإسكندرية في شعبان سنة اثنتين ■ وستين، وتلقاه أعيان مصر إليها، فخطب هناك خطبةً بليغة، وجلس قاضي مصر أبو الطاهر الذهلي إلى جنبه، فسأله: هل رأيت هليفةً أفضل مني؟ فقال: لم أر أحداً من الخلائف سوى أمير المؤمنين؛ فقال له: أحججت؟ قال: نعم، قال: وزرت قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: نعم، قال: وقبر أبي بكر وعمر؟ قال: فتحيرت ماذا أقول! ثم نظرت فإذا ابنه قائم مع كبار الأمراء، فقلت: شغلني عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم كما شغلني أمير المؤمنين عن السلام على ولي العهد، ونهضت إليه فسلمت عليه، فانفسح المجلس إلى غيره.

ثم صار من الإسكندرية إلى مصر، فدخلها في خامس رمضان، فنزل بالقصرين، فكان أول حكومة ■ انتهت إليه أن امرأة كافور الإخشيدي تقدمت إليه، فذكرت له أنها كانت أودعت رجلاً من اليهود الصواغ قباء من لؤلؤ منسوج بالذهب، وأنه جحد ذلك، فاستحضره وقرره، فأنكر اليهودي، فأمر أن تفتش داراه، فوجد القباء قد جعله في جرة، ودفنها فيها.

وسار إليه الحسن بن أحمد القرمطي في جيش كشيف، وأنشد يقول: ■

زعمت رجال الغرب أنى هبتهم فدمى إذن ما بينهم مطلول يا مصر إن لم أسق أرضك من دمٍ يروي ثراك فلا سقاني النيل والتفت معه أمير العرب ببلاد الشام، وهو حسان بن الجراح الطائي في عرب الشام، لينزعوا مصر منه، وضعف جيش المعز عن مقاومتهم. فراسل حسان، ووعده بمائة ألف دينار، إن هو خذل بين الناس، فأرسل إليه: أن بعث إليّ بما التزمت، وتعال بمن معك، فإذا التقينا انهزمت بمن معي. فأرسل إليه المعز مائة ألف دينار في أكياس أكثرها زغل ضرب النحاس، ولبسه الذهب، وجعله في أسفل الأكياس ووضع في رؤوس الأكياس الدنانير الخالصة، وركب في أثرها بجيشه، فالتقى الناس، فلما نشبت الحرب بينهم، انهزم حسان بالعرب، فضعف جانب القرمطي، وقوى عليه المعز فكسره، واستمر المعز بالقاهرة إلى أن مات في ربيع الآخر سنة خمس وستين. وكان منجمة قال له في السنة التي قبلها: إن عليك قطعاً في هذه السنة فتوار عن وجه الأرض حتى تنقضي هذه المدة، فعمل له سرداباً، ودعا الأمراء وأوصاهم بولده نزار، ولقبه العزيز، وفوض إليه الأمر حتى يعود، فبايعوه على ذلك، ودخل ذلك السرداب، فتوارى فيه سنة، فكانت المغاربة إذا رأى الفارس منهم سحاباً سارياً ترجل عن فرسه، وأومى إليه بالسلام، ظانين أن المعز في ذلك الغمام. ثم برز إلى الناس بعد مضي سنة، وجلس للحكم على عادته، فعاجله الله في هذه السنة. وولي بعده ابنه العزيز أبو منصور نزار، فأقام إلى أن مات سنة ست وثمانين.

ومن غرائبه أنه استوزر رجلاً نصرانياً يقال له عيسى بن نسطورس، وآخر يهودياً اسمه ميشا، فعز ■ بسببهما اليهود والنصارى على المسلمين في ذلك الزمان، حتى كتبت إليه امرأة في قصة في حاجة لها تقول: بالذي أعز النصارى بعيسى بن نسطورس، واليهود بميشا، وأذل المسلمين بك؛ لما كشفت عن ظلامتي!

وولي بعده ابنه الحاكم، فكان شر الخليقة، لم يل مصر بعد فرعون شر منه؛ رام أن يدعي الإلهية كما ■ ادعاها فرعون، فأمر الرعية إذا ذكره الخطيب على المنبر أن يقوموا على أقدامهم صفوفاً إعظاماً لذكره، واحتراماً لاسمه؛ فكان يفعل ذلك في سائر ممالكه حتى في الحرمين الشريفين. وكان أهل مصر على الخصوص إذا قاموا خروا سجداً؛ حتى أنه يسجد بسجودهم في الأسواق الرعاع وغيرهم. وكان جباراً عنيداً، وشيطاناً مريداً، كثير التلون في أقواله وأفعاله.

وكان يعمل الحسبة بنفسه يدور في الأسواق على حمار له، وكان لا يركب إلا حماراً، فمن وجده قد غش ■ في معيشته أمر عبداً أسود معه يقال له مسعود أن يفعل به الفاحشة العظمى، وكان منع النساء من الخروج من منازلهن، ومنعهن من دخول الحمامات، وقتل خلقاً من النساء على مخالفته في ذلك، وهدم بعض الحمامات عليهن، ومنع من طبخ الملوخيا. وله رعونات كثيرة لا تنضبط، فأبغضه الخلق، وكتبوا له الأوراق بالشتم له ولأسلافه في صورة قصص، حتى عملوا صورة امرأة من ورق بخفها وإزارها، وفي يدها قصة فيها من الشتم شيء كثير، فلما رآها ظنها امرأة، فذهب من ناحيتها وأخذ القصة من يدها، فلما رأى ما فيها غضب، وأمر بقتلها؛ فلما تحققها من ورق، ازداد غضباً إلى غضبه، وأمر العبيد من السود أن

يحرقوا مصر وينهبوا ما فيها من الأموال والحريم، ففعلوا، وقاتلهم أهل مصر قتالاً عظيماً ثلاثة أيام، والنار تعمل في الدور والحريم. واجتمع الناس في الجوامع، ورفعوا المصاحف، وجأروا إلى الله واستغاثوا به، وما انجلى الحال حتى اخترق من مصر نحو ثلثها، ونهب نحو نصفها، وسبي حريم كثير وفعل بهن الفواحش. واشترى الرجال من سبي لهم من النساء والحريم من أيدي العبيد.

قال ابن الجوزي: ثم زاد ظلم الحاكم، وعن له أن يدعي الربوبية، فصار قوم من الجهال إذا رأوه يقولون: يا واحد، يا أحد، يا محيي يا مميت!

ثم كان من أمر الحاكم أن تعدى شره إلى أخته يتهمها بالفاحشة، ويسمعها أغلظ الكلام، فعملت على قتله، ■ فركب ليلة إلى جبل المقطم ينظر في النجوم، فأتاه عبدان فقتلاه، وحملاه إلى أخته ليلاً فدفنته في دارها، وذلك سنة إحدى عشرة وأربعمائة.

وولي بعده ولده الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى، وهو صبي صغير ابن خمس سنين؛ فإن مولده في ■ المحرم سنة أربع وأربعين، فأقام إلى أن توفي في صفر سنة خمس وخمسين؛ وعمره يومئذ إحدى عشرة سنة، وكان مدبر دولته أبو الغارات طلائع ابن رزيك.

وولي بعده العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ، وهو آخر العبيديين. ومات في عاشوراء سنة سبع وستين، وزالت دولتهم على يد السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب؛ رحمه الله تعالى.

قال ابن كثير: ومن الغريب أن العاضد في اللغة، القاطع، ومنه الحديث: "لا يعضد شجرها"، فبالعاضد قطعت دولة بني عبيد.

وقال ابن خلكان: سمعت جماعة من المصريين يقولون: إن هؤلاء القوم أوائل دولتهم قالوا لبعض العلماء: اكتب لنا ألقابا في ورقة؛ تصلح للخلفاء؛ حتى إذا تولى واحد لقبوه ببعض تلك الألقاب، فكتب لهم ألقابا، وآخر ما كتب في الورقة "العاضد". فاتفق أن آخر من ولي منهم العاضد. ولم يكن بعده من الخلافة سوى الاسم فقط؛ لاستيلاء وزرائهم على الأمور وحجرهم عليهم، وتلقبهم بألقاب الملوك؛ فكانوا معهم كخلفاء عصرنا مع ملوكهم، وكخلفاء بغداد مع بني بويه، وأشباههم.

لما قتل صاحب مصر الظافر، وصلت الأخبار إلى بغداد، بأن مصر قتل صاحبها، ولم يبق فيهم إلا ■ صبي صغير، أبن خمس سنين، قد ولوه عليهم، ولقبوه الفائز، فكتب الخليفة المقتفي عهداً للملك نور الدين محمود زنكي على البلاد الشامية والمصرية، وأرسله إليه، فسار حتى أتى دمشق، فحاصرها وانتزعها من يد ملكها مجير الدين بن طغتكين، وشرع في فتح بلاد الشام بلدا بلدا، وأخذها من أيدي من استولى عليها من الفرنج.

فلما كان في سنة اثنتين وستين أقبلت الفرنج في محافل كثيرة إلى الديار المصرية، فأرسل نور الدين محمود أسد الدين شيركوه بن شادي، ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، فسار إليها في ربيع الآخر، وقد وقع في النفوس أن صلاح الدين سيملك الديار المصرية.

وسار إلى الفرنج، فاقتتلوا قتالا عظيما، فهزم الفرنج ولله الحمد، وسار أسد الدين بعد كسر الفرنج إلى ■ الإسكندرية، فملكها، واستناب عليها ابن أخيه صلاح الدين، وعاد إلى الصعيد، فملكه.

ثم إن الفرنج والمصريين اجتمعوا على حصار الإسكندرية، فصالح شاور وزير العاضد أسد الدين عن الإسكندرية بخمسين ألف دينار، فأجاب إلى ذلك، وخرج صلاح الدين منها، وسلمها إلى المصريين، وعاد إلى الشام في ذي القعدة، وقرر شاور للفرنج على مصر في كل عام مائة ألف دينار، وأن يكون لهم شحنة بالقاهرة. وسكن القاهرة أكثر شجعان الفرنج، وتحكموا فيها بحيث كادوا يستحوذون عليها، ويخرجون المسلمين منها. فلما كانت سنة أربع وستين، قدم إمداد الفرنج في محافل هائلة، فأخذوا مدينة نلبيس، فقتلوا وأسروا ونزلوا بها، وتركوا فيها أثقالهم، وجعلوها موئلاً ومعقلا. ثم جاءوا فنزلوا على القاهرة من ناحية باب الشرقية، فأمر الوزير شاور الناس أن يحرقوا مصر، وأن ينتقلوا إلى القاهرة. فنهب البلد، وذهب للناس أموال كثيرة، وبقيت النار في مصر أربعة وخمسين يوما؛ فعند ذلك أرسل الخليفة العاضد يستغيث بالملك نور الدين، وبعث إليه بشعور نسائه يقول: أدركني؛ واستنقذ نسائي من أيدي الفرنج. وألتزم له بثلث خراج مصر على أن يكون أسد الدين مقيماً عندهم، ولهم إقطاعات زائدة على الثلث.

■ فجهز نور الدين الجيوش وعليهم أسد الدين ومعه صلاح الدين، فدخلوا القاهرة وقد رجع الفرنج لما سمعوا بوصولهم. وعظم أمر أسد الدين بالديار المصرية، وقتل الوزير شاور، قتله صلاح الدين. وفرح المسلمون بقتله، لأنه الذي كان يمالئ الفرنج على المسلمين، وأقيم أسد الدين مكانه في الوزارة، ولقب الملك المنصور؛ فلم يلبث إلا شهرين وخمسة أيام، ومات في السادس والعشرين من جمادى الآخرة.

فأقام العاضد مكانه في الوزارة صلاح الدين يوسف، ولقبه الملك الناصر.

■ وارتفع قدر صلاح الدين بالديار المصرية، وائتلفت عليه القلوب، وخضعت له النفوس، واضطهد العاضد في أيامه غاية الاضطهاد.

فلما كان سنة خمس وستين حاصرت الفرنج دمياط خمسين يوما، فقاتلهم صلاح الدين حتى أجلاهم، وأرسل نور الدين إلى صلاح الدين يأمره أن يخطب للخليفة المستنجد العباسي بمصر؛ لان الخليفة بعث يعاتبه في ذلك؛ فلما كان سنة ست وستين، أتفق موت المستنجد، وقام المستضيئ، وشرع صلاح الدين في تمهيد الخطبة لبني العباس.

■ فما أضل الناس شيء كحب المال الذي فورقت من أجله الأديان، وهجرت بسببه الأولاد والإخوان؛ وكثيرا ما يرى الرجل الصائم القائم وهو عابد له عبادة الأوثان؛ فإذا استعنت بأحد منهم على شيء من أمرك، فأضرب عليه بالأرصاد، ولا ترض بما عرفته من مبدأ حاله فإن الأحوال تنقل بنقل الأجساد. وإياك أن تخدع بصلاح الظاهر كما خدع عمر بن الخطاب بالربيع بن زياد.

■ وتلك هي الصدقة التي فضل الله بعض عباده بمزية إفضالها، وجعلها سببا إلى التعويض عنها بعشر أمثالها؛ وهو يأمرك أن تفقد أحوال الفقراء الذين قدرت عليهم مادة الأرزاق، وألبسهم التعفف ثوب الغنى وهم في ضيق من الإملاق؛ فأولئك أولياء الله الذين مستهم الضراء فصبروا، وكثرت الدنيا في يد غيرهم فما نظروا إليها إذا نظروا. وينبغي لك أن تهيئ لهم من أمرهم مرفقاً، وتضرب بينهم وبين الفقر موبقا.

■ وقد علمت أن العدو هو جارك الأدنى؛ والذي يبلغك وتبلغه عيناً وأذنا، ولا تكون للإسلام نعم الجار؛ حتى تكون له بئس الجار. ولا عذر لك في ترك جهاده بنفسك ومالك إذا قامت لغيرك الأعذار. وأمير المؤمنين لا يرضى منك بأن تلقاه مصافحاً، أو تطرق أرضه مماسياً أو مصابحا، بل يريد أن تقصد البلاد التي في يد قصد المستغير لا قصد المغير، وأن تحكم فيها بحكم الله الذي قضاه على لسان سعد في بني

قريظة والنضير، وعلى الخصوص البيت المقدس فإنه بلاد الإسلام القديم، وأخو البيت الحرام في رف التعظيم، والذي توجهت إليه الوجوه من قبل بالسجود والتسليم. وقد أصبح وهو يشكر طول المدة في أسر ربته، وأصبحت كلمة التوحيد وهي تشكو طول الوحشة في غربتها عنه وغربته. فأنهض إليه نهضة متوغل في فرحه، وتبدل صعب قيادة بسمحه؛ وإن كان له عام حديبية فاتبعه بعام فتحه.

قال حسان عرقلة ■:

أصبح الملك بعد آل عبيد مشرفاً بالملوك من آل شاذي وغدا الشرق يحسد الغرب للقوم ومصر تزهو على بغداذ ما حووها إلا بعزم وحزم وصليل الفولاذ لا كفرعون والعزيز ومن كان بها كالخطيب والأستاذ

قال أبو شامة: يعني بالأستاذ كافور الإخشيدي.

وأقامت شجر الدر في المملكة ثلاثة أشهر، ثم عزلت نفسها. واتفقوا على أن يملكوا الملك الأشرف ■ ■ موسى بن صلاح الدين يوسف بن المسعود بن الملك الكامل، فملكوه وله ثمان سنين.

ثم إن عز الدين خلع الملك الاشرف واستقل بالسلطنة في سنة اثنتين وخمسين، ولقب الملك المعز؛ وهو ■ أول من ملك مصر من الأتراك، وممن جرى عليه الرف، فلم يرض الناس بذلك حتى أرضى الجند بالعطايا الجزيلة. وأما أهل مصر فلم يرضوا بذلك، ولم يزالوا يسمعونه ما يكره إذا ركب ويقولون: لا نريد إلا سلطانا رئيسا ولد على الفطرة، وكان المعز تزوج شجر الدر.

ثم إنه خطب ابنة صاحب الموصل، فغارت شجر الدر فقتلته في أواخر ربيع الأول سنة خمس وخمسين، وأقيم بعده ولده علي ولقب المنصور، وعمره نحو خمس عشرة سنة، فأقام سنتين وثمانية أشهر، وفي أيامه أخذ التتار بغداد، وقتل الخليفة.

ثم إن الأمير سيف الدين قطر مملوك المعز قبض على المنصور، واعتقله في أواخر ذي القعدة سنة سبع وخمسين؛ وتملك مكانه، ولقب بالملك المظفر بعد أن جمع الأمراء والعلماء والأعيان، وأفتوا بان المنصور صبي لا يصلح للملك، لا سيما في هذا الزمان الصعب الذي يحتاج إلى ملك شهم مطاع لأجل إقامة الجهاد، والتتار قد وصلوا البلاد الشامية، وجاء أهلها إلى مصر يطلبون النجدة؛ وأراد قطز أن يأخذ من الناس شيئاً ليستعين به على قتالهم؛ فجمع العلماء، فحضر الشيخ عز الدين بن عبد السلام، فقال: لا يجوز ان يؤخذ من الرعية شيء حتى لا يبقى في بيت المال شيء، وتبيعوا مالكم من الحوائص والآلات، ويقتصر كل منهم على فرسه وسلاحه، وتتساووا في ذلك انتم والعامة. وأما أخذ أموال العامة مع بقاء ما في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا. ولم يكن قطز هذا مرقوق الأصل، ولا من أولاد الكفر.

قال الجزري في تاريخه: كان قطزفي رق ابن الزعيم، فضربه أستاذه فبكى، فقبيل له: تبكي من لطمة! فقال: إنما أبكي من لعنة أبي وجدي، وهما خير منه، فقيل: من أبوك! واحد كافر. قال: ما أنا إلا مسلم، أنا محمود بن مودود بن أخت خوارزم شاه من أولاد الملوك.

وخرج المظفر بالجيوش في شعبان سنة ثمان وخمسين متوجهاً إلى الشام لقتال التتار وشاويشه ركن الدين بيبرس البند قدارى، فالتقوا هم والتتار عند عين جالوت، ووقع المصاف يوم الجمعة خامس عشري رمضان، فهزم التتار شر هزيمة.

■ وتسلطن بيبرس، ولقب بالملك القاهر، ودخل مصر وأزال عن أهلها ما كان المظفر أحدثه عليهم من المظالم، وأشار عليه الوزير زين الدين أن يغير هذا اللقب، وقال: ما تلقب به أحد فأفلح؛ فأبطل السلطان هذا اللقب، وتلقب بالملك الظاهر.

قال الحافظ عبد العظيم المنذري: أنشأ الملك الكامل دار الحديث بالقاهرة، وعمر القبة على ضريح الشافعي، وأجرى الماء من بركة الحبش إلى حوض السبيل والسقاية على باب القبة المذكورة، ووقف غير ذلك من الوقوف على أنواع البر، وله المواقف المشهودة بدمياط، وكان معظماً للسنة وأهلها، قال الذهبي: وكانت له إجازة من السلفي، وخرج له أبو القاسم بن الصفراوي أربعين حديثاً سمعها من جماعة.

وقال ابن خلكان: اتسعت المملكة للملك الكامل، حتى قال خطيب مكة مرة عند الدعاء له: سلطان مكة وعبيدها، واليمن وزبيدها، ومصر وصعيدها، والشام وصناديدها، والجزيرة ووليدها، سلطان القبلتين، وخادم الحرمين الشريفين، الملك الكامل أبو المعالي ناصر الدين محمد خليل أمير المؤمنين.

■ لما كان سنة سبع وأربعين، هجمت الفرنج على دمياط، فهرب من كان فيها، واستحوذوا عليها، والملك الصالح مقيم بالمنصورة لقتالهم، فأدركه أجله ومرض ومات بها ليلة النصف من شعبان. فأخفت جاريته شجر الدر موته، وبقيت تعلم بعلامته سواه، وأعلمت أعيان الأمراء، فأرسلوا إلى ابنة الملك المعظم توران شاه وهو بحصن كيفا، فقدم في ذي القعدة، وملكوه، فركب في عصائب الملك، وقاتل الفرنج وكسرهم، وقتل منهم ثلاثين ألفا ولله الحمد.

وكان في عسكر المسلمين الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وكانت النصرة أولا للفرنج

■ واتفقوا بعد قتل المعظم على تولية شجر الدر أم خليل جارية الملك الصالح، فملكوها، وخطب لها على المنابر، فكان الخطباء يقولون بعد الدعاء للخليفة: واحفظ اللهم الجهة الصالحة ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين، أم خليل المستعصمية، صاحبة السلطان الملك الصالح. ونقش اسمها على الدينار والدرهم، وكانت تعلم عل المناشير وتكتب: والدة خليل. ولم يل مصر في الإسلام امرأة قبلها.

■ ولما توليت تكلم الشيخ عز الدين بن عبد السلام في بعض تصانيفه على ما إذا ابتلى المسلمون بولاية امرأة، وأرسل الخليفة المستعصم بعاتب أهل مصر في ذلك ويقول: إن كان ما بقى عندكم رجل تولونه، فقولوا لنا نرسل إليكم رجلاً.

ثم اتفقت شجر الدر والآراء على إطلاق الفرنسيس، بشرط أن يردوا دمياط إلى المسلمين، ويعطوا ثمانمائة ألف دينار عوضاً عما كان بدمياط من الحواصل، ويطلقوا أسراء المسلمين. فأطلق على هذا الشرط، فلما سار إلى بلاده أخذ في الاستعداد والعود إلى دمياط، فندمت الأمراء على إطلاقه؛ وقال الصاحب جمال بن مطروح - وكتب بها إليه:

قل للفرنسيس إذا جئتـه مقال صدق من قؤول نصيح آجرك الله علـى مـا جـرى من قتل عباد يسوع المسيح أتيت مصر تبتغي ملكـهـا تحسب أن الزمر بالطبل ريح فساقك الـحين إلـى أدهـم ضاق به عن ناظريك الفسيح وكل أصحابـك أودعتـهـم بحسن تدبيرك بطن الضريح

تسعين ألفاً لا ترى منـهـم إلا قتيلاً أو أسيراً جـريح وفقك اللـه لأمـثـالـهـا لعل عيسى منكم يستـريح إن كان باباكم بـذا راضـياً فرب غش قد أتى من نصيح وقل لهم إن أضمروا عـودة لأخذ ثأر أو لعقد صحـيح: دار ابن لقمان على حالـهـا والقيد باق والطواشي صبيح

فلم ينشب الفرنسيس أن أهلكه الله، وكفى المسلمين شره، وأقامت شجر الدر في المملكة ثلاثة أشهر، ثم عزلت نفسها. واتفقوا على أن يملكوا الملك الأشرف موسى بن صلاح الدين يوسف بن المسعود بن الملك الكامل، فملكوه وله ثمان سنين.

ومن صنائع السلطان صلاح الدين أنه أسقط المكوس والضرائب عن الحجاج بمكة، وقد كان يؤخذ منهم ■ شيء كثير، ومن عجز عن أدائه حبس، فربما فاته الوقوف بعرفة.

كان لانقراض الخلافة ببغداد وما جرى على المسلمين بتلك البلاد مقدمات نبه عليها العلماء: منها، أنه في ■ يوم الثلاثاء ثامن عشر ربيع الآخر سنة أربع وأربعين وستمائة، هبت ريح عاصفة شديدة بمكة، فألقت ستارة الكعبة المشرفة، فما سكنت الريح إلا والكعبة عريانة، قد زال عنها شعار السواد، ومكثت إحدى وعشرين يوما ليس عليها كسوة.

وقال الحافظ عماد الدين بن كثير؛ وكان هذا فألا على زوال دولة بني العباس؛ ومنذراً بما سيقع بعد هذا من كائنة التتار لعنهم الله.

ومنا، قال أبن كثير في حوادث سنة سبع وأربعين: طغى الماء ببغداد، حتى أتلف شيئاً كثيرا من المحال والدور الشهيرة، وتعذرت إقامة الجمعة بسبب ذلك.

وفي هذه السنة هجمت الفرنج على دمياط؛ فاستحوذوا عليها وقتلوا خلقاً من المسلمين.

وفي سنة خمسين وقع حريق بحلب أحترق بسببه ستمائة دار؛ فيقال: إن الفرنج لعنهم الله ألقوه فيها قصداً.

وفي سنة اثنتين وخمسين، قال سبط أبن الجوزي في مرآة الزمان: وردت الأخبار من مكة شرفها الله، بأن نارا ظهرت في أرض عدن في بعض جبالها، بحيث أنه يطير شررها إلى البحر في الليل، ويصعد منها دخان عظيم في أثناء النهار، فتاب الناس وأقلعوا عما كانوا عليه من المظالم والفساد، وشرعوا في أفعال الخير والصدقات.

وفي سنة أربع وخمسين زادت دجلة زيادة مهولة، فغرق حلق كثير من أهل بغداد، ومات خلق تحت الهدم، وركب الناس في المراكب، واستغاثوا بالله، وعاينوا التلف، ودخل الماء من أسوار البلاد، وأنهدمت دار الوزير وثلثمائة وثمانون دارا، وأنهدم مخزن الخليفة، وهلك شيء كثير من خزانة السلاح.

قال أبن السبكي في الطبقات الكبرى: وكان ذلك من جملة الأمور، التي هي مقدمة لواقعة التتار.

وفي هذه السنة، في يوم الاثنين مستهل جمادى الآخرة، وقع بالمدينة الشريفة صوت يشبه صوت الرعد البعيد تارة وتارة، وأقام على هذه الحالة يومين، فلما كان ليلة الأربعاء تعقب الصوت زلزلة عظيمة، رجفت

منها الأرض والحيطان، واضطرب المنبر الشريف، واستمرت تزلزل ساعة بعد ساعة إلى يوم الجمعة خامس الشهر، ظهر من الحرة نار عظيمة، وسالت أودية منها سيل الماء، وسالت الجبال نارا، وسارت نحو طريق الحاج العراقي، فوقفت وأخذت تأكل الأرض أكلا، ولها كل يوم صوت عظيم من آخر الليل إلى الضحوة، واستغاث الناس بنبيهم صلى الله عليه وسلم، واقلعوا عن المعاصي، واستمرت النار فوق الشهر، وخسف القمر ليلة الاثنين منتصف الشهر، وكسفت الشمس في غدوة، وبقيت أياما متغيرة اللون ضعيفة النور، واشتد فزع الناس، وصعد علماء البلد إلى الأمير يعظونه، فطرح المكوس، ورد على الناس ما كان تحت يده من أموالهم.

وقال سيف الدين علي بن عمر بن قذل المشد في هذه النار:

ألا سلما عني على خير مـرسـل ومن فضله كالسيل ينحط من عل واشرف من شدت إليه رحـالـنـا لتورد هيم الشوق أعذب منـهـل تحملن منا كل أشـعـث أغـبـر فيا عجبا من رحلها المتحـمـل! إلى سيد جاءت بعالـي مـحـلـه ومعجزه آي الكتاب الـمـنـزل نبـي هدانـا لـلـهـدى بـأدلة فهمنا معانيها بـحـسـن الـتـأول محمد المبعوث والغـي مـظـلـم فأصبح وجه الرشد مثل السجنجل وقولا لـه: إنـي إلـيك لـشـيق عسى الله يدني من محلك محملي فتخمد أشواقي وتسكن لـوعـتـي وأصبح عن كل الغرام بمـعـزل ولما نفى عني الكرى خبر الـتـي أضاءت بإذن ثم رضوى ويذبـل ولاح سناها من جـبـال قـريظة لسكان تيما فاللوى فالعقـنـقـل وأخبرت عنها في زمانك مـنـذراً بيوم عبوس قمطـريـر مـطـول فقلـت كـلامـا لا يدين لـقـائل سواك ولا يسطيعه رب مـقـول ستظهر نار بالـحـجـاز مـضـيئة كأعناق عيس نحو بصرى لمخيل فكانت كما قد قـلـت بـلا مـرى صدقت وكم كذبت كل معطـل لها شرر كالبرق لكن شهيقـهـا فكالرعد عند السامع المـتـأمـل وأصبح وجه الشمس كالليل كاسفاً وبدر الدجى في ظلمة ليس تنجلي وغابت نجوم الجو قبل غروبـهـا وكدرها دور الدخان المسلـسـل وهبت سموم كالحـمـيم فـأذبـلـت من الباسقات الشم كـل مـذلـل وأبدت مـن الآيات كـل عـجـيبة وزلزلت الأرضون أي تـزلـزل وأيقن كل الـنـاس أن عـذابـهـم تعجل في الدنيا بغـير تـمـهـل وأعولت الأطفال مع أمهـاتـهـا فيا نفس جودي، يا مدامعي أهملي جزعت فقام الناس حولي وأقبلـوا يقولون: لا تـهلك أسى وتجـمـل لعل إله الخلق يرحم ضعـفـهـم وما أظهروه من عظيم التـذلـل وتاب الورى واستغفروا لذنوبـهـم ولاذوا بمنوال الكريم المـبـجـل شفعت لهم عند الإله فأصـبـحـوا من النار في أمن وبر مـعـجـل أغاثهم الرحمن مـنـك بـنـفـحة ألذ وأشهى من جنى ومـعـسـل طفى النار نور من ضريحك ساطع فعادت سلاما لا تضر بمصطلـي وعاش رجاء الناس بعد مماتـهـم فيالك من يوم أغر مـحـجـل! فيا راحـلا عـن طـيبة إن طـيبة هي الغاية القصوى لكل مـؤمـل

قفا نبك ذكراها فـإن الـذي بـهـا أجل حبيب وهي أشرف مـنـزل

دخلت إليها مـحـرمـا ومـلـبـيا وأضربت عن سقط الدخول فحومل

مواقف أما تربها فهـي عـنـبـر وأما كلاها فهو نبت القرنـفـل

يفوح شذاها ثم يعقـب نـشـرهـا لما راوحتها من جنوب وشـمـأل

فيا خير مبعوث وأكـرم شـافـع وأنجح مأمول وأفـضـل مـوئل

عليك سلام اللـه بـعـد صـلاتـه كما شفع المسك العبيق بـمـنـدل

وقال بعضهم في ذلك: يا كاشف الضر صفحاً عن جرائمنـا لقد أحاطت بـنـا يا رب بـأسـاء

نشكو إليك خطوباً لا نطيق لـهـا حملا ونحن بهـا حقـا أحقـاء

زلازلاً تخشع الصم الصلاب لـهـا وكيف يقوى على الزلزال شمـاء

أقام سبعا ترج الأرض فانصـدعـت عن منظر منه عين الشمس عشواء

بحر من النار تجـري فـوقـه فـن من الهضاب لها في الأرض إرساء

كأنما فـوقـه الأجـبـال طـافـية موج عليه لفرط الهيج وعـثـاء

ترى لها شررا كالقصـر طـائشة كأنها ديمة تـنـصـب هـطـلاء

تنشق منها قلوب الصخر إن زفـرت رعباً، وترعد مثل السعف أضـواء

منها تكاثف في الجو الدخـان إلـى أن عادت الشمس منه وهي دهماء

قد أثرت سفعةً في البدر لفحتـهـا فليلة التم بـعـد الـنـور لـيلاء

وقال آخر في هذه النار، وغرق بغداد: سبحان من أصبحت مشيئتـه جارية في الورى بمقـدار

أغرق بغداد بالمـياه كـمـا أحرق أرض الحجاز بالنار

قال أبو شامة: والصواب أن يقال: في سنة أغرق العراق وقـد أحرق أرض الحجاز بالنار

وذكر أبن الساعي أن النجاب لما جاء إلى بغداد بخبر هذه النار، قال له الوزير: إلى أي الجهات ترمي شررها؟ قال: إلى جهة الشرق.

قال أبو شامة: وفي ليلة الجمعة مستهل رمضان من هذه السنة، أحترق المسجد الشريف النبوي، أبتدأ حريقه من زاويته الغربية من الشمال، وكان دخل أحد القومة إلى خزانة ثم، ومعه نار فعلقت في الآلات، واتصلت بالسقف بسرعة، ثم دبت في السقوف، فأعجلت النار في قطعها، فما كان إلا ساعة حتى احترقت سقوف المسجد أجمع، ووقعت بعض أساطينه، وذاب رصاصها [وكل ذلك قبل أن ينام الناس]، واحترق سقف الحجرة النبوية الشريفة، واحترق المنبر الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب عليه.

قال أبو شامة: وعد ما وقع من تلك النار وحريق المسجد من الآيات، وكأنها كانت منذرة بما يعقبها في السنة الآتية من الكائنات.

وقال أبو شامة في ذلك: نار أرض الحجاز مع حرق المسجد مع تغرق دار السلام

بعد ست من المئتين وخمسي ن لـدى أربـع جــرى فـــي الـــعـــام

ثم أخذ الـتــتـــار بـــغـــداد فـــي أو ل عـــام مـــن بـــعـــد ذاك وعـــــام

لم يعن أهلـهـا ولـلــكــفــر أعــوا ن عـــلـــيهـــم يا ضـــيعة الإســـلام!

وانـقـضـت دولة الـخـــلافة مـــنــهـــا صار مـسـتـعـصـم بـغـير اعـتـــصـــام

فحـنـانـاً عـلـى الـحـجـــاز ومـــصـــر وسلاماً عـــلـــى بـــلاد الـــشـــآم

■ قال أبن كثير في حوادث سنة سبع وأربعين: طغى الماء ببغداد، حتى أتلف شيئاً كثيرا من المحال والدور الشهيرة، وتعذرت إقامة الجمعة بسبب ذلك.

وفي هذه السنة هجمت الفرنج على دمياط؛ فاستحوذوا عليها وقتلوا خلقاً من المسلمين.

وفي سنة خمسين وقع حريق بحلب أحترق بسببه ستمائة دار؛ فيقال: إن الفرنج لعنهم الله ألقوه فيها قصداً.

وفي سنة اثنتين وخمسين، قال سبط أبن الجوزي في مرآة الزمان: وردت الأخبار من مكة شرفها الله، بأن نارا ظهرت في أرض عدن في بعض جبالها، بحيث أنه يطير شررها إلى البحر في الليل، ويصعد منها دخان عظيم في أثناء النهار، فتاب الناس وأقلعوا عما كانوا عليه من المظالم والفساد، وشرعوا في أفعال الخير والصدقات.

وفي سنة أربع وخمسين زادت دجلة زيادة مهولة، فغرق حلق كثير من أهل بغداد، ومات خلق تحت الهدم، وركب الناس في المراكب، واستغاثوا بالله، وعاينوا التلف، ودخل الماء من أسوار البلاد، وأنهدمت دار الوزير وثلثمائة وثمانون دارا، وأنهدم مخزن الخليفة، وهلك شيء كثير من خزانة السلاح.

قال أبن السبكي في الطبقات الكبرى: وكان ذلك من جملة الأمور، التي هي مقدمة لواقعة التتار.

■ وفي هذه السنة، في يوم الاثنين مستهل جمادى الآخرة، وقع بالمدينة الشريفة صوت يشبه صوت الرعد البعيد تارة وتارة، وأقام على هذه الحالة يومين، فلما كان ليلة الأربعاء تعقب الصوت زلزلة عظيمة، رجفت منها الأرض والحيطان، واضطرب المنبر الشريف، واستمرت تزلزل ساعة بعد ساعة إلى يوم الجمعة خامس الشهر، ظهر من الحرة نار عظيمة، وسالت أودية منها سيل الماء، وسالت الجبال نارا، وسارت نحو طريق الحاج العراقي، فوقفت وأخذت تأكل الأرض أكلا، ولها كل يوم صوت عظيم من آخر الليل إلى الضحوة، واستغاث الناس بنبيهم صلى الله عليه وسلم، واقلعوا عن المعاصي، واستمرت النار فوق الشهر، وخسف القمر ليلة الاثنين منتصف الشهر، وكسفت الشمس في غدوة، وبقيت أياما متغيرة اللون ضعيفة النور، واشتد فزع الناس، وصعد علماء البلد إلى الأمير يعظونه، فطرح المكوس، ورد على الناس ما كان تحت يده من أموالهم.

■ وقال سيف الدين علي بن عمر بن قذل المشد في هذه النار:

ألا سلما عني على خير مـرسـل ومن فضله كالسيل ينحط من عل واشرف من شدت إليه رحـالـنـا لتورد هيم الشوق أعذب منـهـل تحملن منا كل أشـعـث أغبـر فيا عجبا من رحلها المتحمـل! إلى سيد جاءت بعالـي مـحـلـه ومعجزه آي الكتاب الـمـنـزل نبـي هـدانـا لـلـهـدى بـأدلة فهمنا معانيها بحـسـن الـتـأول محمد المبعوث والغـي مـظـلـم فأصبح وجه الرشد مثل السجنجل وقولا لـه: إنـي إلـيك لـشـيق عسى الله يدني من محلك محملي فتخمد أشواقي وتسكن لـوعـتـي وأصبح عن كل الغرام بمـعـزل ولما نفى عني الكرى خبر الـتـي أضاءت بإذن ثم رضوى ويذبـل ولاح سناها من جـبـال قـريظة لسكان تيما فاللوى فالعقـنـقـل وأخبرت عنها في زمانك مـنـذراً بيوم عبوس قمطـرير مـطـول فقلـت كـلامـا لا يدين لـقـائل سواك ولا يسطيعه رب مـقـول ستظهر نار بالـحـجـاز مـضـيئة كأعناق عيس نحو بصرى لمخيل فكانت كما قد قـلـت بـلا مـرى صدقت وكم كذبت كل معطـل لها شرر كالبرق لكن شهـيقـهـا فكالرعد عند السامع المـتـأمـل وأصبح وجه

الشمس كالليل كاسفاً وبدر الدجى في ظلمة ليس تنجلي وغابت نجوم الجو قبل غروبـهـا وكدرها دور الدخان المسلـسـل وهبت سموم كالحميم فـأذبـلـت من الباسقات الشم كـل مـذلـل وأبدت مـن الآيات كـل عـجـيبة وزلزلت الأرضون أي تـزلـزل وأيقن كل النـاس أن عـذابـهـم تعجل في الدنيا بغـير تـمـهـل وأعولت الأطفال مع أمهـاتـهـا فيا نفس جودي، يا مدامعي أهملي جزعت فقام الناس حولي وأقبلـوا يقولون: لا تهلك أسى وتجـمـل لعل إله الخلق يرحم ضعـفـهـم وما أظهروه من عظيم التـذلـل وتاب الورى واستغفروا لذنوبـهـم ولاذوا بمنوال الكريم المـبـجـل شفعت لهم عند الإله فأصـبـحـوا من النار في أمن وبر معـجـل أغاثهم الرحمن مـنـك بـنـفـحـة ألذ وأشهى من جنى ومـعـسـل طفى النار نور من ضريحك ساطع فعادت سلاما لا تضر بمصطلـي وعاش رجاء الناس بعد مماتـهـم فيالك من يوم أغر مـحـجـل! فيا راحـلا عـن طـيبة إن طـيبة هي الغاية القصوى لكل مؤمـل

قفا نبك ذكراها فـإن الـذي بـهـا أجل حبيب وهي أشرف مـنـزل

دخلت إليها مـحـرمـا ومـلـبـيا وأضربت عن سقط الدخول فحومل

مواقف أما تربها فهـي عـنـبـر وأما كلاها فهو نبت القـرنـفـل

يفوح شذاها ثم يعقـب نـشـرهـا لما راوحتها من جنوب وشـمـأل

فيا خير مبعـوث وأكـرم شـافـع وأنجح مأمول وأفـضـل مـوئل

عليك سلام اللـه بـعـد صـلاتـه كما شفع المسك العبيق بـمـنـدل

وقال بعضهم في ذلك: يا كاشف الضر صفحاً عن جرائمنـا لقد أحاطت بـنـا يا رب بـأسـاء ■

نشكو إليك خطوباً لا نطـيق لـهـا حملا ونحن بها حـقـا أحـقـاء

زلازلاً تخشع الصم الصلاب لـهـا وكيف يقوى على الزلزال شمـاء

أقام سبعا ترج الأرض فانصـدعـت عن منظر منه عين الشمس عشواء

بحر من النار تجـري فـوقـه فـن من الهضاب لها في الأرض إرساء

كأنما فـوقـه الأجـبـال طـافـية موج عليه لفرط الهيج وعـثـاء

ترى لها شررا كالقـصـر طـائشة كأنها ديمة تـنـصـب هـطـلاء

تنشق منها قلوب الصخر إن زفـرت رعباً، وترعد مثل السعف أضـواء

منها تكاثف في الجو الدخـان إلـى أن عادت الشمس منه وهي دهماء

قد أثرت سفعةً في البدر لفحـتـهـا فليلة التم بـعـد الـنـور لـيلاء

وقال آخر في هذه النار، وغرق بغداد: سبحان من أصبحت مشيئتـه جارية في الورى بمقـدار

أغرق بغداد بالمـياه كـمـا أحرق أرض الحجاز بالنار

قال أبو شامة: والصواب أن يقال: في سنة أغرق العراق وقـد أحرق أرض الحجاز بالنار

وذكر أبن الساعي أن النجاب لما جاء إلى بغداد بخبر هذه النار، قال له الوزير: إلى أي الجهات ترمي شررها؟ قال: إلى جهة الشرق.

قال أبو شامة: وفي ليلة الجمعة مستهل رمضان من هذه السنة، أحترق المسجد الشريف النبوي، أبتدأ حريقه من زاويته الغربية من الشمال، وكان دخل أحد القومة إلى خزانة ثم، ومعه نار فعلقت في الآلات، واتصلت بالسقف بسرعة، ثم دبت في السقوف، فأعجلت النار في قطعها، فما كان إلا ساعة حتى احترقت سقوف المسجد أجمع، ووقعت بعض أساطينه، وذاب رصاصها [وكل ذلك قبل أن ينام الناس]، واحترق سقف الحجرة النبوية الشريفة، واحترق المنبر الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب عليه.

قال أبو شامة: وعد ما وقع من تلك النار وحريق المسجد من الآيات، وكأنها كانت منذرة بما يعقبها في السنة الآتية من الكائنات.

وقال أبو شامة في ذلك: نار أرض الحجاز مع حرق المسجد مع تغرق دار السلام ■

بعد ست من المئتين وخمسي ن لـدى أربـع جـرى فـي الـعـام

ثم أخذ الـتـتـار بـغـداد فـي أو ل عـام مـن بـعـد ذاك وعـام

لم يعن أهلـها وللـكـفـر أعـوا ن عـلـيهـم يا ضـيعة الإسـلام!

وانـقـضـت دولة الـخـلافة مـنـهـا صار مـسـتعـصـم بـغير اعـتـصـام

فحـنـانـاً عـلـى الـحـجـاز ومـصـر وسـلاماً عـلـى بـلاد الـشـآم

قلت: أجرى الله تعالى عادته إن العامة إذ زاد فسادها وانتهكوا حرمات الله، ولم تقم عليهم الحدود أرسل ■ الله عليهم آية في إثر آية، فإن لم ينجح ذلك فيهم أتاهم بعذاب من عنده، وسلط عليهم من لا يستطيعون له دفاعا؛ وقد وقع في هذه السنين ما يشبه الآيات الواقعة في مقدمات واقعة التتار، وأنا خائف من عقبى ذلك، فاللهم سلم سلم! فأول ما وقع في سنة ثلاث وثمانين حصول قحط عظيم بأرض الحجاز.

وفي سنة خمس وثمانين لم يزد النيل القدر الذي يحصل به الري، ولا ثبت المدة التي يحتاج إلى ثبوته فيها، فأعقب ذلك غلاء الأسعار في كل شيء.

وفي سنة ست وثمانين في سابع عشر المحرم زلزلت مصر زلزلة منكرة لها دوي شديد، وقع بسببها قطعة من المدرسة الصالحية على قاضي الحنفية شمس الدين بن عيد، وكان من خيار عباد الله فقتلته.

وعمل الحافظ أبو الفضل بن حجر في المستعين قصيدته المشهورة وهي: ■

الملك أصـبـح ثـابـت الآسـاس بالمستعين العادل الـعـبـاسـي رجعت مكانة آل عم المصطـفـى لمحاها من بعد طـول تـنـاس ثاني ربيع الآخر الـمـيمـون فـي يوم الثلاثـا حـف بـالأعـراس بقدوم مهدي الأنـام أمـينـهـم مأمون غيب طاهـر الأنـفـاس ذو البيت طاف به الرجاء فهل يرى من قاصد متـردد فـي الـيأس فرع نما من هاشـم فـي روضة زاكي المنابت طـيب الأغـراس بالمرتـضى والمجتبى، والمشتـري للحمد للحالي بـه والـكـاسـيمن أسرة أسروا الخطوب وطهـرو ممـا يغيرهـم مـن الأدنـاس أسد إذا حضروا الوغى وإذا خـلـوا

كانوا بمجلسهم ظبـاء كنـاس مثل الكواكب نورهم مـا بينـهـم كالبدر اشرق في دجى الأغـلاس وبكفـه عنـد العـلامة آية قلم يضيء إضاءة المـقبـاس فلبشره لـلـوافدين مـبـاسم تدعى وللإجلال بـالـعـبـاسـي فالحمد لـلـه المـعـز لـدينـه من بعد ما قد كـان فـي إبـلاس بالسـادة الأبـرار أركـان العـلا من بين مـدرك ثـأره ومـواس نهضوا بأعباء المناقب وارتـقوا في منصب العليا الأشم الـراسـي تركوا العدى صرعى بمعترك الردى فالله يحرسهم مـن الـوسـواس وإمامـهـم بـجـلالـه مـتـقـدم تقديم "بسم الله" في الـقـرطـاس لولا نظام الملـك فـي تـدبـيره لم يستقم في الملك حال النـاس شطركم من أمير قبله خطب العـلا وبجهده رجـعـتـه بـالإفـلاس حتى إذا جاء المعالـي كـفـؤهـا خضعت له من بعد فرط شمـاس طاعت له أيدي الملوك وأذعـنـت من نيل مصر أصابع المـقـياس فهو الذي قد رد عنا الـبـؤس فـي دهر بـه لـولاه كـل الـبـأس وأزال ظلماً عـم كـل مـعـمـم من سـائر الأنـواع والأجـنـاس بالخاذل الـمدعـو ضـد فـعـال بالناصر المتـنـاقـض الآسـاس كم نعمة لـلـه كـانـت عـنـده فكأنـهـا فـي غـربـة وتـنـاس ما زال سر الشر بين ضـلـوعـه كالنار أو صحبتـه لـلأرمـاس كم سن سـيـئة عـلـيه أثـامـهـا حتى الـقـيامة مـالـه مـن آس مكراً بنى اركـانـه، لـكـنـهـا للغدر قد بنـيت بـغـير أسـاس كل امرئ ينـسـى ويذكـر تـارة لكنـه لـلـشـر لـيس بـنـاس أملي لـه رب الـورى حـتـى إذا أخذوه لم يفلـتـه مـر الـكـأس وأدالنا منه الـمـلـيك بـمـالـك أيامـه صـدرت بـغـير قـياس فاستبشرت أم القرى والأرض مـن شرق وغـرب كالـعـذيب وفـاس آيات مجد لا يحـاول جـحـدهـا في الناس غير الجاهل الـخـنـاس ومناقب العباس لم تجـمـع سـوى لحفيده ملك الـورى الـعـبـاس لا تنكروا لـلـمـسـتـعـين رياسة في الملك من بعد الجحود الناسـي فبنو أمية قد أتـى مـن بـعـدهـم في سالف الدنيا بنـو الـعـبـاس وأتى أشج بـنـي أمـية نـاشـراً للعدل من بعد المبير الـخـاسـي مولاي عبدك قد أتـى لـك راجـياً منك القبول فلا ترى مـن بـاس لولا المهـابة طـولـت أمـداحـه لكنها جاءتـه بـالـقـسـطـاس فأدام رب الـنـاس عـزك دائـمـا بالحق محروسـا بـرب الـنـاس وبقيت تستمـع الـمـديح لـخـادم لولاك كان من الهموم يقـاسـي عبـد صـفـا ودا وزمـزم حـادياً وسعى على العينين قبـل الـرأس أمداحـه فـي آل بـيت مـحـمـد بين الورى مسـكـية الأنـفـاس

■ ومات المعتضد يوم الأحد رابع ربيع الأول سنة خمس وأربعين واستقر المستكفي،وكان من صلحاء الخلفاء وعبادهم، صالحاً ديناً عابداً، كثير التعبد والصلاة والتلاوة، كثير الصمت، حسن السيرة. وكان الظاهر جقمق يعتقده، ويعرف له حقه، فأقام إلى أن مات ليلة الجمعة، سلخ ذي الحجة سنة أربع وخمسين، ولم يعهد بالخلافة لأحد.

وكان والدي خصيصا به جدا، فلم يعش بعده إلا أربعين يوما، ومشى السلطان في جنازة المستكفي إلى تربته، وحمل نعشه بنفسه.

وبايع بعده بالخلافة أخاه أبا البقاء حمزة، ولقب القائم بأمر الله، وكان سهماً صارما، أقام أبهة الخلافة قليلا، ثم إن الجند خرجوا على الأشرف إينال، فقام معهم، وحدثته نفسه بطلب الملك، فانهزم الجند، فلم يحصل من يدهم شيء. فغضب عليه الأشرف، وطلبه إلى القلعة، وعاتبه في ذلك؛ فحكى أن الخليفة قال: خلعت نفسي وعزلتك، وكان غلطة منه؛ فقال شيخنا قاضي القضاة علم الدين البلقيني- وكان حريصاً على جر الخلافة إلى أخي الخليفة يوسف، لكونه زوج ابنته؛ فقال: قد بدأ بخلع نفسه فانخلع، وثنى بخلع السلطان وهو غير خليفة؛ فلم ينفذ عزله، وحكم بصحة خلعه؛ وذلك في جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين، وبايع أخاه أبا المحاسن يوسف ولقب المستنجد بالله، وسير القائم إلى الإسكندرية إلى أن مات بها سنة ثلاث وستين ودفن عند شقيقة المستعين. ومن الاتفاق الغريب أنهما شقيقان، كل منهما رام السلطنة، وكل منهما خلع، وسكن الإسكندرية، ودفنا معا؛ وحكم بخلعهما قاضيان أخوان؛ ذلك خلعه الجلال البلقيني؛ وهذا أخوه العلم البلقيني.

■ وبايع بعده بالخلافة أخاه أبا البقاء حمزة، ولقب القائم بأمر الله، وكان سهماً صارما، أقام أبهة الخلافة قليلا، ثم إن الجند خرجوا على الأشرف إينال، فقام معهم، وحدثته نفسه بطلب الملك، فانهزم الجند، فلم يحصل من يدهم شيء. فغضب عليه الأشرف، وطلبه إلى القلعة، وعاتبه في ذلك؛ فحكى أن الخليفة قال: خلعت نفسي وعزلتك، وكان غلطة منه؛ فقال شيخنا قاضي القضاة علم الدين البلقيني- وكان حريصاً على جر الخلافة إلى أخي الخليفة يوسف، لكونه زوج ابنته؛ فقال: قد بدأ بخلع نفسه فانخلع، وثنى بخلع السلطان وهو غير خليفة؛ فلم ينفذ عزله، وحكم بصحة خلعه؛ وذلك في جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين، وبايع أخاه أبا المحاسن يوسف ولقب المستنجد بالله.

■ وسير القائم إلى الإسكندرية إلى أن مات بها سنة ثلاث وستين ودفن عند شقيقة المستعين. ومن الاتفاق الغريب أنهما شقيقان، كل منهما رام السلطنة، وكل منهما خلع، وسكن الإسكندرية، ودفنا معا؛ وحكم بخلعهما قاضيان أخوان؛ ذلك خلعه الجلال البلقيني؛ وهذا أخوه العلم البلقيني.

■ أتى في المسالك: إن قاعدة الخلافة أول ما كانت المدينة شرفها الله مدة أبي بكر وعمر وعثمان، فلما انتهت الخلافة إلى علي انتقل من المدينة إلى الكوفة، واتخذها قاعدة خلافته، وربما استوطن البصرة. وجاء ابنه الحسن والكوفة قاعدة خلافته على ما كان عليه أبوه، فلما ولي معاوية انتقلت قاعدة الخلافة إلى دمشق، واستقرت قاعدة لبني أمية؛ وإن كان هشام قد سكن الرصافة، وعمر بن عبد العزيز خناصرة، فأنهما لم يكونا قاعدتي خلافه، لأنهما سكناهما غير مفارقين لدمشق، بل هي القاعدة والمعتمدة بأنها مستقر الخلافة، ولم تزل كذلك إلى آخر الدولة الأموية. فلما ملك السفاح سكن الأنبار، فلما ولي المنصور بني الهاشمية وسكنها، ثم بغداد، فصارت قاعدة الخلافة له ولبنيه إلى المعتصم؛ فبنى سر من راى، فانتقلت قاعدة الخلافة إليها. ثم بنى ابنه هارون الواثق إلى جانبها الهارونية، فانتقلت قاعدة الخلافة إليها. ثم بنى أخوه جعفر المتوكل إلى جانبها الجعفرية، فانتقلت قاعدة الخلافة إليها، ثم عادت قاعدة الخلافة إلى بغداد في زمن المعتمد إلى المستعصم الذي قتلته التتار، فانتقلت قاعدة الخلافة إلى مصر.

قال: فأنظر كيف تنقلت قواعد الخلافة من بلد إلى بلد بتنقل الزمان، وقد كانت بخارى قاعدة السلطنة زمن بني ساسان، ثم صارت غزنة مكان محمود بن سبكتكين وبنيه، ثم همدان زمان الدولة السلجوقية، ثم خوارزم مكان الملوك الخوارزمية، ثم دمشق زمان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، ثم مصر من زمن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وإلى اليوم.

وإذا اعتبرت أحوال البلاد تجد السعادة قد نظرت هذه مرة، ثم تلك أخرى كما قال الشاعر:

وإذا نظرت إلى البقاع رأيتـهـا تشقى كما تشقى الرجال وتسعد وأعلم أن مصر من حين صارت دار الخلافة عظم أمرها، وكثرت شعائر الإسلام فيها، وعلت فيها السنة، وعفت منها البدعة، وصارت محل سكن العلماء، ومحط رحال الفضلاء، وهذا سر من أسرار الله أودعه في الخلافة النبوية حيث ما كانت يكون معها الإيمان والكتاب، كما أخرج . . . . . .

ذكر سلاطين مصر الذين فوض إليهم خلفاء مصر العباسيون ■

فاستبدوا بالأمر دونهم

أولهم الملك الظاهر ركن الدين، أبو الفتح بيبرس الندقداري. ولما فوض إليه خليفة مصر لقبه قسيم أمير المؤمنين وهو أول من لقب بها، وكان الملوك قديماً يكتب أحدهم من جهة الخليفة: "مولى أمير المؤمنين" أي

عتيقه، ويكتب هو إلى الخليفة "خادم أمير المؤمنين" فإن زيد في تعظيمه لقب "ولي أمير المؤمنين"، ثم "صاحب أمير المؤمنين"، ثم "خليل أمير المؤمنين"، وهو أعلى ما لقب به ملوك بني أيوب، فلقب الظاهر هذا قسيم أمير المؤمنين؛ وهو أجل من تلك الألقاب، وكان في الظاهر محاسن وغيرها، وظلم أهل الشام غير مرة، وأفتاه جماعة بموافقة هواه، فقام الشيخ محيى الدين النووي في وجهه، وأنكر عليه، وقال: أفتوك بالباطل! وكان بمصر منقمعاً تحت كلمة الشيخ عز الدين بن عبد السلام، لا يستطيع ان يخرج عن أمره، حتى إنه قال لما مات الشيخ: ما استقر ملكي إلا الآن.

ومن محاسنه ما حكاه ابن كثير في تاريخه أنه حضر في يوم الثلاثاء تاسع رجب سنة ستين إلى دار العدل في محاكمة في بئر بين يدي القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز، فقام الناس سوى القاضي، فإنه أشار إليه ألا يقوم، فقام هو وغريمه بين يدي القاضي وتداعيا، وكان الحق بيد السلطان، وله بينة عادلة به، فانتزعت البئر من يد الغريم وهو أحد الأمراء.

والظاهر هو الذي أكمل عمارة المسجد النبوي من الحريق، وكان الخليفة المستعصم شرع فيه بعد أن أحترق، فقتل قبل أن يتم، فجهز الظاهر في رمضان سنة إحدى وستين صناعاً وأخشاباً وآلات، وطيف بها بالديار المصرية فرحة بها، وتعظما لشانها، ثم ساروا بها إلى المدينة الشريفة، وأرسل منبراً فنصب هنالك، وحج في سنة سبع وستين، فغسل الكعبة بيده بماء الورد، وزار المدينة الشريفة، فرأى الناس يلتصقون بالقبر النبوي، فقاس ما حوله بيده، وأرسل في العام الذي يليه دارا بزيا من خشب، فأدير حول القبر الشريف.

وللظاهر فتوحات كثيرة، وملك الروم، وجلس بقيسارية على تخت آل سلجوق، ولبس التاج، وضرب باسمه الدينار والدرهم، وهو الذي جعل القضاة أربعة من كل مذهب قاض، ولم يعهد ذلك قبله في ملة الإسلام، وهو الذي جدد صلاة الجمعة بالجامع الأزهر وبجامع الحاكم، وكانا مهجورين من زمن العبيديين، فأساء في ذلك كل الإساءة كما سنبينه بعد هذا.

وأمر في أيامه بإراقة الخمور، وإبطال المفسدات والخواطيء وإسقاط المكوس المرتبة عليها، فأحسن في ذلك كل الإحسان.

وفي أيامه طيف بالمحمل وبكسوة الكعبة المشرفة بالقاهرة وذلك في سنة خمس وسبعين، وكان يوما مشهودا، وهو أول من فعل ذلك بالديار المصرية. وكان له صدقات كثيرة؛ من ذلك كل سنة عشرة آلاف إردب قمح للفقراء والمساكين وأرباب الزوايا، وكان يخرج كل سنة جملة مستكثرة يستفك بها من حبس القاضي من المفلسين، وكان يرتب في أول رمضان مطابخ لأنواع الأطعمة برسم الفقراء والمساكين.

واستمر الملك الظاهر إلى أن مات يوم الخميس سابع عشري المحرم سنة ست وسبعين وستمائة بدمشق. ■

وقام بعده في الملك ولده الملك السعيد ناصر الدين أبو المعالي محمد، وسنه ثماني عشرة سنة، وكان أبوه عقد له في حياته، ولقبه هذا اللقب، واستنابه على مصر أيام سفره، فاستقل بالسلطنة من يوم موته، واستمر إلى سنة ثمان وسبعين، فاختلف عليه الأماء، وقاتلوه، فخلع نفسه من السلطنة، وأشهد على نفسه بذلك، وذلك في يوم سابع عشر ربيع الآخر.

وأقيم مقامه أخوه بدر الدين سلامش؛ ولقب الملك العادل، وعمره سبع سنين، وجعل اتابكه الأمير سيف الدين قلاوون الصالحي الألفي- سمى بذلك لأنه اشترى بألف دينار- وضربت السكة باسمه على وجه، وباسم اتابكه على وجه. ودعى لهما معا في الخطبة، فأقام إلى يوم الثلاثاء حادي عشر رجب من هذه السنة،

فاجتمع الأمراء بالقلعة، وخلعوا العادل. قال صاحب السكردان: وهو السادس من دولة الأتراك؛ فإن أولهم المعز أيبك، وكل سادس من الخلفاء والملوك لابد أنه يخلع.

وفقاً لهذه النظرية التاريخية فإن سادس خليفة أو ملك لابد أن يخلع من الحكم خلعاً فيحكم بعد خمسة ثم (يخلع السادس و هكذا) .

ثم الحمد لله الذي جعل الخلافة العباسية بعد القطوب حسنة الابتسام، وبعد الشجوب جميلة الاتسام، وبعد ■ التشريد لها دار سلام أعظم من دار السلام. والحمد لله على ان أشهدها مصارع أعدائها، واحمد لها عواقب إعادة نصرتها وإبدائها، ورد شبيهتها بعد أن ظن كل أحد ان شعارها الأسود ما بقي منه إلا ما أصابته العيون في جفونها والقلوب في سويدائها.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة يتلذذ بذكرها اللسان، وتتعطر بنفحاتها الأفواه والآذان، وتتلقاها ملائكة القبول فترفعها إلى أعلى مكان.

ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي أكرمنا به وشرف لنا الأنساب، وأعزنا به حتى نزل فينا محكم الكتاب؛ صلى الله عليه وآله الذين إنجاب الدين منهم عن أنجاب، ورضى الله عن صحابته الذين هم أعز صحاب؛ صلاة توفي قائلها أجره بغير حساب يوم الحساب.

وبعد حمد الله على أن أحمد عواقب الامور، واظهر الإسلام سلطانا اشتدت به من الأمة الظهور، وشفيت الصدور، وأقام الخلافة العباسية في هذا الزمن المنصور، كما أقامها فيما مضى بالمنصور.

واعلموا رحمكم الله أن الملك عقيم ليس بالوارثة لأحد خالف عن سالف، ولا كابر عن كابر، وقد ■ استخرت الله تعالى ووليت عليكم الملك المظفر، فمن أطاعه فقد أطاعني، ومن عصاه فقد عصاني، ومن عصاني فقد عصى أبا القاسم ابن عمي صلى الله عليه وسلم. وبلغني أن الملك الناصر ابن السلطان الملك المنصور شق العصا على المسلمين، وفرق كلمتهم، وأطمع عدوهم فيهم، وعرض البلاد الشامية والمصرية إلى سبي الحريم والأولاد، وسك الدماء، فتلك دماء قد صانها الله تعالى من ذلك، وأنا خارج إليه ومحاربه إن استمر على ذلك، وأدافع عن حريم المسلمين وأنفسهم وأولادهم بهؤلاء الأمراء والجيش العظيم، وأقاتله حتى يفيء إلى أمر الله. وقد أوجبت عليكم يا معاشر المسلمين كافة الخروج تحت لوائي، اللواء الشريف، فقد أجمعت الحكام على وجوب دفعه وقتاله عن استمر على ذلك، وأنا استصحب معي الملك المظفر، فجهزوا أرواحكم. والسلام.

واتفق في هذه السنة أن كريم الدين ناظر الخاص حضر إلباس الكعبة الكسوة، فصعد الكعبة، وجلس على □ العتبة يشرف على الخياطين، فأنكر الناس استعلاءه على الطائفين، فسقط لوقته على رأسه، وصرخ الناس صرخة عظيمة تعجبا من ظهور قدرة الله، وانقطع ظهره، ولولا تداركه من تحته لهلك؛ وعلم بذنبه، فتصدق بمال جزيل.

ذكر الفرق بين الخلافة والملك والسلطنة ■

من حيث الشرع

قال ابن سعد في الطبقات: أخبرنا محمد بن عمر، حدثني قيس بن الربيع، عن عطاء ابن السائب، عن زادان، عن سلمان أن عمر بن الخطاب،

قال له: أملك أنا أم خليفة؟ فقال: له سلمان إن أنت جبيت من أرض المسلمين درهماً أو أقل أو أكثر، ثم وضعته في غير حقه فأنت ملك غير

خليفة، فاستعبر عمر.

وقال: أخبرنا محمد بن عمر، حدثني عبد العزيز بن الحارث، عن أبيه سفيان بن أبي العوجاء، قال: قال عمر بن الخطاب: والله ما أدري

أخليفة أنا أم ملك؟ فإن كنت ملكا، فهذا أمر عظيم، قال قائل: يا أمير المؤمنين إن بينهما فرقاً، قال: ما هو؟ قال: الخليفة لا يأخذ إلا حقاً

ولا يضعه إلا في حق، وأنت بحمد الله كذلك، والملك يعسف الناس، فيأخذ من هذا، ولا يعطي هذا.

■ والدوادارية موضوعها ان صاحبها يبلغ الرسائل عن السلطان، ويقدم القصص إليه، ويشاور على من يحضر إلى الباب، ويقدم البريد إذا حضر،

ويأخذ خط السلطان على عموم المناشير والتواقيع والكتب.

■ والحجوبية موضوعها ان صاحبها يقف بين الأمراء والجند وهو المشار إليه في الباب بالقائم مقام البواب في كثير من الأمور.

■ والدوادار كان في زمن الخلفاء أيضا، وهو الذي يحمل الدواة ويحفظها، ومعناه ماسك الدواة، وأول من أحدث هذه الوظيفة الملوك السلجوقية،

وكانت في زمنهم وزمن الخلفاء لرجل متعمم ثم صارت في زمن الظاهر لأمير عشرة.

والجمدار: ماسك البقجة التي للقماش.

■ قال تعالى حكاية عن

موسى عليه السلام: (وأجعل لي وزيرا من أهلي، هارون أخي، أشدد به أزري، وأشركه في أمري)، (تنبيه) وقال تعالى مخاطباً له: (سنشد

عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا). تنبيه : الأولى آيةٌ قرآنية كريمة من سورة طه , أما الثانية فهي ليست آيةً من القرآن المجيد .

■ قال أبن السبكي: وقال أهل التجربة: إن هذه الأقاليم المصرية والشامية والحجازية، متى كانت البلد فيها لغير الشافعية خربت، ومتى قدم

سلطانها غير أصحاب الشافعي زالت دولته سريعا. قال: وكأن هذا السر جعله الله في هذه البلاد، كما جعله الله لمالك في بلاد المغرب،

ولأبي حنيفة فيما وراء النهر.

قال: وسمعت الشيخ الإمام الوالد يقول: سمعت الشيخ صدر الدين بن المرحل يقول: ما جلس على كرسي مصر غير شافعي إلا قطز،

كان حنفيا، ومكث يسيرا وقتل، وأما الظاهر فقلد الشافعي يوم ولاية السلطنة، ثم لما ضم القضاء إلى الشافعي استثنى للشافعي الأوقاف وبيت

المال والنواب وقضاة البر والأيتام، وجعلهم الأرفعين، ثم إنه ندم على ما فعل. وذكر أنه رأى الشافعي في النوم لما ضم إلى مذهبه بقية

المذاهب، وهو يقول: تهين مذهبي! البلاد لي أو لك! قد عزلتك، وعزلت ذريتك إلى يوم الدين. فلم يمكث إلا يسيرا ومات، ولم يمكث

.ولده السعيد إلا يسيرا، وزالت دولته، وذريته إلى الآن فقراء، هذا كلام أبن السبكي

قال: وجاء بعده قلاوون، وكان دونه تمكنا وعرفة، ومع ذلك مكث الأمر فيه وفي ذريته إلى هذا الوقت، وفي ذلك أسرار الله لا يدركها إلا

.خواص عباده

"وقول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي ذر مشفقا عليه: "ا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم ■

وولي شمس الدين محمد بن عطا الله الهروي، وفي ولايته هذه وجد في مجلس السلطان ورقة فيها شعر، ■ وهو:

يأيها الملـك الـمؤيد دعـوة من مخلص في حبه لك ينصح أنظر لحال الشافعية نـظـرة فالقاضيان كلاهما لا يصـلـح هذا أقاربه عـقـارب وابـنـه وأخو

وصـهر، فعلهم مستقبـح غطوا محاسنه بقبح صنيعـهـم ومتى دعاهم للهدى لا يفلحـوا وأخو هراة بسيرة اللنك اقتـدى وله سهام في الجوانح تجـرح لا

درسه يقرأ، ولا أحـكـامـه تدري، ولا حين الخطابة يفصح فأرح هموم المسلمين بثـالـث فعسى فساد منهم يستصـلـح

وكان ذلك في أول شعبان،

فعرض السلطان الورقة على الجلساء من الفقهاء الذين يحضرون عنده، فلم يعرفوا كاتبها، وطالت الأبيات. فأما الهروي فلم ينزعج من ذلك،

وأما البلقيني فقام وقعد، وأطال البحث والتنقيب عن ناظمها، وتقسمت الظنون؛ فمنهم من اتهم شعبان الأثاري، ومنهم من اتهم تقي الدين بن

.حجة. قال العيني؛ وبعضهم نسبها لابن حجر؛ قال: والظاهر أنه هو

وكان للنبي صلى الله عليه وسلم أربعة وزراء؛ روى البزار والطبراني في الكبير عن أبن عباس، قال: ■ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

إن الله أيدني بأربعة وزراء اثنين من أهل السماء: جبريل وميكائيل، واثنين من أهل الأرض: أبي بكر " وعمر".

وأول من لقب الوزير في الإسلام أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال وزير الخليفة السفاح، أول خلفاء ■ بني العباس.

وقال أبن فضل الله في المسالك: لم تكن للوزارة رتبة تعرف مدة بني أمية وصدراً من دولة السفاح، بل كان كل من أعان الخلفاء على

أمرهم، يقال له: فلان وزير فلان؛ بمعنى أنه موازر له، لا أنه متولي رتبة خاصة يجري لها قوانين، وتنتظم بها دواوين.

وأول من دعي بالوزير في دولة السفاح أبو سلمة حفص سليمان الخلال؛ وكان يقال له وزير آل محمد؛ ثم إن أبا مسلم الخراساني بعث إليه من

قتله

ووزر للمقتدر أبو الحسن علي بن محمد بن الفرات ثلاث مرات، وأبو علي محمد بن الوزير أبي الحسن ■ عبيد الله بن خاقان، وأبو الحسن علي

بن عيسى بن داود بن الجراح مرتين. قال الصولي: ولا أعلم أنه وزر لبني العباس وزير يشبهه في زهده وعفته وتعبده، كان يصوم نهاره،

ويقوم ليله، وكان يسمى الوزير الصالح.

وقال الذهبي في العبر: كان في الوزراء كعمر بن عبد العزيز في الخلفاء.

وأبو علي محمد بن أبي العباس بن مقلة صاحب الخط المنسوب، ولما خلع ■

عليه بالوزارة قال نفطويه النحوي:

إذا أبصرت في خلع وزيراً فقل أبشر بقاصمة الظهور بأيام طـوال فـي بــلاد وأيام قصار فـي سـرور ■وقال أبو شجاع حين عزل:

تولاهـا ولـيس عــدو وفارقها وليس له صديق

ومن الاتفاق الغريب أن آخر خلفاء بني أمية كتب له عبد الحميد الكاتب وآخر خلفاء بني العباس ببغداد ■ كتب له من اسمه عبد الحميد.

قال أبن الجوزي في التلقيح: كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ■ وأبي بن كعب وزيد بن ثابت الأنصاري

ومعاوية بن أبي سفيان وحنظلة بن الربيع الأسدي وخالد بن سعيد بن القاضي وأبان بن سعيد والعلاء بن الحضرمي؛ وكان المداوم على الكتابة

.زيد ومعاوية

وزمام كل صلاح يجب أن يشغل به جميع أوقاته، هو تقوى الله تعالى، قال الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا ■ .اتقوا الله حق تقاته)، فليكن ذلك نصب العين، وشغل القلب والشفتين

وأعداء الدين من أرمن وتتار، فأذقهم وبال أمرهم في كل إيراد وإصدار، وخذ للخلفاء العباسيين ولجميع .المسلمين منهم الثأر، وأعلم ان الله ينصرك على ظلمهم وما للظالمين من أنصار

واعلم أن الولاية ميزان إحدى كفتيه في الجنة والأخرى في النار، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "يا أبا ■ "ذر إني احب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم

وعن أبي رهم السماعي، قال: لا تزال مصر معافاةً من الفتن، مدفوعاً عن أهلها كل الأذى؛ ما لم يغلب ■ .عليها غيرهم؛ فإذا كان كذلك لعبت بهم الفتن يميناً وشمالاً

وعن عبد الله بن عمر، قال: البركة عشر بركات؛ ففي مصر تسع، وفي الأرض كلها واحدة؛ ولا تزال في .مصر بركة أضعاف ما في جميع الأرضين

وقيل: إن يوسف عليه الصلاة والسلام لما دخل إلى مصر، وأقام بها قال: اللهم إني غريب فحبها إلى ■ .وإلى كل غريب؛ فمضت دعوة يوسف، فليس يدخلها غريب إلا أحب المقام بها

وعن دانيال عليه السلام: "يا بني إسرائيل، أعلموا أن لله، فإن الله يجازيكم بمثل مصر في الآخرة" - أراد .الجنة

حكى أن المأمون لما دخل مصر، قال: قبح الله فرعون إذ قال: (أليس لي ملك مصر)، فلو رأى العراق! ■ فقال له سعيد بن عفير: لا تقل هذا يا أمير المؤمنين فإن الله تعالى قال: (ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون)، فما ظنك بشيء دمره الله هذه بقيته! فقال ما قصرت يا سعيد. قال سعيد: ثم قلت: يا ...أمير المؤمنين، لقد بلغنا أنه لم تكن أرض أعظم من مصر

وارتفع ماء النيل، فدخلها في رأس المنهى، فجرى فيه حتى انتهى إلى اللاهون، فقطعه إلى الفيوم، فدخل ■ .خليجها فسقاها، فصارت لجة من النيل. وخرج إليها الملك ووزراؤه، وكان هذا في سبعين يوما

.فلما نظر إليها الملك قال لوزرائة. هذا عمل ألف يوم، فسميت الفيوم

وكان نساء أهل مصر حين غرق أشرافهم ولم يبق إلا العبيد والأجراء لم يصبروا عن الرجال، فطفقت ■ المرأة تعتق عبدها وتتزوجه، وتتزوج الأخرى أجيرها، وشرطن على الرجال ألا يفعلوا إلا بإذنهن، .فأجابوهن إلى ذلك؛ فكان أمر النساء على الرجال

فلما ظهر بخت نصر على بيت المقدس وسبى بني إسرائيل، وخرج بهم إلى أرض بابل، أقام بإيليا وهي خراب؛ فاجتمع إليه بقايا بني إسرائيل كانوا متفرقين، فقال لهم أرميا: أقيموا بنا في أرضنا لنستغفر الله، ونتوب إليه، لعله أن يتوب علينا، فقالوا: إنا نخاف أن يسمع بنا بخت نصر، فيبعث إلينا، ونحن شرذمة قليلون؛ ولكنا نذهب إلى ملك مصر فنستجير به، وندخل في ذمته، فقال لهم أرميا: ذمة الله أوفى لكم، ولا

يسعكم أمان أحد من أهل الأرض، إذا أخافكم. فسار أولئك النفر من بني إسرائيل إلى قومس، واعتصموا به، فقال: أنتم في ذمتي، فأرسل إليه بخت نصر أن لي قبلك عبيدا أبقوا مني، فابعث بهم إلي. فكتب إليه قومس: ما هم بعبيدك؛ هم أهل النبوة والكتاب وأبناء الأحرار، اعتديت عليهم وظلمتهم؛ فحلف بخت نصر: لئن لم تردهم لأغزون بلادك. وأوحى الله إلى أرميا إني مظهر نصر على هذا الملك الذي اتخذوه حرزا، ولو أنهم أطاعوك، وأطبقت عليهم السماء والأرض، لجعلت لهم من بينها مخرجا. فرحمهم أرميا، وبادر إليهم، وقال لهم: إن لم تطيعوني أسركم بخت نصر وقتلكم؛ وآية ذلك أتى رأيت موضع سريره الذي يضعه بعد ما يظفر بمصر ويملكها. ثم عمد فدفن أربعة أحجار في الموضع الذي يضع فيه بخت نصر سريره، وقال: يقع كل قائمة من قوائم سريره على حجر منها. فلجوا في رأيهم، وسار بخت نصر إلى قومس، فقاتله سنة، ثم ظفر به. فقتل وسبى جميع أهل مصر، وقتل من قتل. فلما أراد قتل من أسر منهم، وضع له سرير في الموشع الذي وصف أرميا، ووقعت كل قائمة من قوائم سريره على حجر من تلك الحجارة التي دفن؛ فلما أتوا بالأسارى، أتى معهم بأرميا. فقال له بخت نصر: ألا أراك مع أعدائي بعد أن أمنتك وأكرمتك! فقال له أرميا: إني أتيتهم محذرا، وأخبرتهم خبرك، وقد وضعت لهم علامة تحت سريرك، وأريتهم موضعه، فقال بخت نصر: وما مصداق ذلك؟ قال أرميا: ارفع سريرك، فإن تحت كل قائمة حجرا دفنته، فلما رفع سريره، وجد مصداق ذلك، فقال لأرميا: لو أعلم أن فيهم خيرا لوهبتهم لك. فقتلهم وأخرب مدائن مصر وقراها، وسبى جميع أهلها، ولم يترك بها أحدا حتى بقيت مصرا أربعين سنة خرابا ليس فيها أحد؛ يجري نيلها، ويذهب لا ينتفع به. وأقام أرميا بمصر، واتخذ زرعا يعيش به فأوحى الله إليه: إن لك عن الزرع والمقام شغلا، فألحق بإيليا. فخرج أرميا حتى أتى بيت المقدس. ثم إن بخت نصر رد أهل مصر إليها بعد أربعين سنة، فعمروها، فلم تزل مصر مقهورة من حينئذ.

ثم ظهرت الروم وفارس على سائر الملوك الذي في وسط الأرض، فقاتلت الروم أهل مصر ثلاث سنين يحاصرونهم. وصابروهم القتال في البر والبحر؛ فلما رأى ذلك أهل مصر صالحوا الروم، على أن يدفعوا لهم شيئا مسمى في كل عام، على أن يمنعوهم ويكونوا في ذمتهم، ثم ظهرت فارس على الروم، فلما غلبوهم على الشام، رغبوا في مصر، وطمعوا فيها، فامتنع أهل مصر، وأعانتهم الروم، وقاتلت دونهم، وألحت عليهم فارس، فلما خشوا ظهورهم عليهم صالحوا فارس، على أن يكون ما صالحوا عليه الروم بين الروم وفارس، فرضيت الروم بذلك حين خافت ظهور فارس عليها، فكان ذلك الصلح على مصر، وأقامت مصر بين الروم وفارس سبع سنين، ثم استجاشت الروم، وتظاهرت على فارس، وأحلت بالقتال والمدد، حتى ظهروا عليهم وخربوا مصانعهم أجمع، وديارهم التي بالشام ومصر، وكان ذلك في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم: وفيه نزلت: (ألم غلبت الروم في أدنى الأرض . . .) الآية، فصارت الشام كلها صلحا ومصر خالصا للروم، وليس لفارس في الشام ومصر شيء.

أخرج أحمد والبزار والطبراني عن ابن عباس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لما كانت ليلة أسري بي، أتيت على رائحة طيبة، فقلت: يا جبريل، ما هذه الرائحة الطيبة؟ قال: هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها، قلت: وما شأنها؟ قال: بينما هي تمشط ابنة فرعون ذات يوم، إذ سقط المدرى من يدها، فقالت: باسم الله، فقالت لها ابنة فرعون: أولك رب غير أبي؟ قالت: لا، ولكن ربي ورب أبيك الله. قالت: أخبره بذا؟ قالت: نعم، فأخبرته، فدعاها، فقال: يا فلانة، أو أن لك ربا غيري! قالت: نعم ربي وربك الله، فدعا ببقرة من نحاس، ثم أحميت، ثم أمر أن تلقى فيها هي وأولادها، فألقوا بين يديها واحدا واحدا إلى أن انتهى ذلك إلى صبي لها مرضع، فتقاعست من أجله، قال: يا أماه اقتحمي فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فاقتحمت".

قال ابن عباس: تكلم في المهد أربع صغار: عيسى بن مريم، وصاحب جريج، وشاهد يوسف، وابن ماشطة ابنة فرعون.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله تعالى: (وقال رجل مؤمن من آل فرعون). قال: لم يكن من أهل فرعون مؤمن غيره وغير امرأة فرعون وهو المؤمن الذي أنذر موسى الذي قال: (إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك).

وصنم من نحاس كان على باب القصر الكبير عند الكنيسة المعلقة على خلقة الجمل، وعليه رجل راكب، عليه عمامة، متنكب قوسا وفي رجليه نعلان؛ كانت الروم والقبط وغيرهم إذا تظالموا بينهم، واعتدى بعضهم على بعض جاءوا إليه، فيقول المظلوم للظالم: أنصفني قبل أن يخرج هذا الراكب الجمل، فيأخذ الحق لي منك- يعنون بالراكب الجمل محمدا صلى الله عليه وسلم- فلما قدم عمرو بن العاص غيب الروم ذلك الجمل لئلا يكون شاهدا عليهم.

والنيل، وسيأتي خبره مبسوطا.

ويقال: إنه ليس من بلد فيه شيء غريب إلا وفي مصر شبهه أو مثله، ثم تفضل مصر على البلدان بعجائبها التي ليست في بلد سواها.

قال جماعة من أهل التاريخ: الذي بنى الأهرام سوريد بن سلهوق بن شرياق ملك مصر؛ وكان قبل الطوفان بثلاثمائة سنة؛ وسبب ذلك أنه رأى

في منامه كأن الأرض انقلبت بأهلها، وكأن الناس هاربون على وجوههم، وكأن الكواكب تساقطت، ويصدم بعضها بعضا بأصوات هائلة، فأغمه

ذلك وكتمه، ثم رأى بعد ذلك كأن الكواكب الثابتة نزلت إلى الأرض في صورة طيور بيض، وكأنها تخطف الناس وتلقيهم بين جبلين عظيمين،

وكأن الجبلين انطبقا عليهم، وكأن الكواكب النيرة مظلمة؛ فانتبه مذعورا، فجمع رؤساء الكهنة من جميع أعمال مصر- وكانوا مائة وثلاثين

كاهنا وكبيرهم يقال له أفليمون- فقص عليهم، فأخذوا في ارتفاع الكواكب، وبالغوا في استقصاء ذلك، فأخبروا بأمر الطوفان. قال: أو

يلحق بلادنا؟ قالوا: نعم، وتخرب وتبقى عدة سنين. فأمر عند ذلك ببناء الأهرام، وأمر بأن يعمل لها مسارب يدخل منها النيل إلى مكان

بعينه، ثم يفيض إلى مواضع من أرض المغرب وأرض الصعيد، وملأها طلسمات وعجائب وأموالا وخزائن وغير ذلك، وزبر فيها جميع ما قالته

الحكماء، وجميع العلوم الغامضة وأسماء العقاقير ومنافعها ومضادها وعلم الطلسمات والحساب والهندسة والطب، وكل ذلك مفسر لمن يعرف

كتابتهم ولغاتهم.

قال صاحب مباهج الفكر: ومن المباني التي يبلى الزمان ولا تبلى، وتدرس معالمه وأخبارها لا تدرس ولا تبلى، الأهرام التي بأعمال مصر،

وهي أهرام كثيرة، أعظمها الهرمان اللذان بجيزة مصر، ويقال: إن بانيها سوريد بن سهلوق بن شرقيان، بناهما قبل الطوفان لرؤيا رآها،

فقصها على الكهنة، فنظروا فيما تدل عليه الكواكب النيرة من أحداث تحدث في العالم، وأقاموا مراكزها في وقت المسيلة فدلت على أنها نازلة

من السماء، تحيط بوجه الأرض، فأمر حينئذ ببناء البرابي والأهرام العظام، وصور فيها صور الكواكب ودرجها وما لها من الأعمال وأسرار

الطبائع، والنواميس وعمل الصنعة. ويقال: أن هرمس المثلث الموصوف بالحكمة - وهو الذي تسميه العبرانيون أخنوخ، وهو إدريس عليه

الصلاة والسلام - استدل من أحوال الكواكب على كون الطوفان يوجد، فأمر ببناء الأهرام وإيداعها الأموال وصحائف العلوم وما يخاف عليه

...من الذهاب والدثور

وهذا البناء ليس بين حجارته ملاط إلا ما يتخيل أنه ثوب أبيض، فرش بين حجرين، أو ورقة، ولا

يتخلل بينهما الشعرة، وطول الحجر منها خمسة أذرع في سمك ذراعين. ويقال: إن بانيهما جعل لهما أبواباً على أدراج مبنية بالحجارة في

الأرض؛ طول كل حجر منها عشرون ذراعاً، وكل باب من حجر واحد يدور بلولب، إذا أطبق لم يعلم أنه باب، يدخل من كل باب منها إلى سبعة

بيوت، كل بيت على اسم كوكب من الكواكب السبعة، وكلها مقفلة بأقفال، وحذاء كل بيت صنم من ذهب مجوف، إحدى يديه على فيه، في جبهته

.كتابة بالمسند، اذا قرئت انفتح فوه، فيؤخذ منه مفتاح ذلك القفل فيفتح به

والقبط تزعم أنهما والهرم الصغير الملون قبور، فالهرم الشرقي فيه سوريد الملك، وفي الهرم الغربي أخوه هرجيب، والهرم الملون فيه أفريبون

.ابن هر جيب

والصائبة تزعم أن أحدهما قبر شيث، والآخر قبر هرمس، والملون قبر صاب ابن هرمس؛ وإليه تنسب الصابئة، وهم يحجون إليها، ويذبحون

.عندها الديكة والعجول السود، ويبخرون بدخن

وقال ابن فضل الله في المسالك: قد أكثر الناس القول في سبب بناء الأهرام؛ فقيل: هياكل الكواكب، □ وقيل: قبور ومستودع مال وكتب،

.وقيل: ملجأ من الطوفان. قال: وهو أبعد ما قيل فيها؛ لأنها ليست شبيهة بالمساكن

.قال: وقد كانت الصائبة تأتي فيحج الواحد ويزور الآخر، ولا تبلغ فيه مبلغ الأول في التعظيم

وقال بعضهم: ذكر عبد الله بن سراقة أنه لما نزلت العماليق مصر حين أخرجتها جرهم من مكة، نزلت □ مصر، فبنت الأهرام واتخذت بها

.المصانع، وبنت بها العجائب؛ فلم تزل بمصر حتى أخرجها مالك بن ذعر الخزاعي

وقال سعيد بن عفير: لم تزل مشايخ مصر يقولون: إن الأهرام بناها شداد، وكانوا يقولون بالرجعة؛ فكان أحدهم إذا مات دفن معه ماله كله؛

.وإن كان صانعاً دفنت معه آلته

وقال المسعودي: طول كل واحد وعرضه أربعمائة ذراع، وأساسهما في الأرض مثل طولهما في العلو، □ وكل هرم منها سبعة بيوت، على عدد

السبع كواكب السيارة، كل بيت منها باسم كوكب ورسمه، وجعل في جانب كل بيت منها صنم من ذهب مجوف، وإحدى يديه موضوعة على فيه،

في جبهته كتابة كاهنية، إذا قرئت فتح فاه، وخرج من فيه مفتاح ذلك القفل، ولتلك الأصنام قوانين وبخورت، ولها أرواح موكلة بها، مسخرة لحفظ

تلك البيوت والأصنام، وما فيها من التماثيل والعلوم والعجائب والجواهر الأموال، وكل هرم فيه ملك وطاوس من الحجارة مطبق عليه، ومعه

.صحيفة فيها اسمه وحكمته، مطلسم عليه لا يصل إليه أحد إلا في الوقت المحدود

وذكر بعضهم أن فيها مجاري الماء يجري فيها النيل، وأن فيها مطامير تسع من الماء بقدرها، وأن فيها مكاناً ينفذ إلى صحراء الفيوم وهي مسيرة

.يوميين

ودخل جماعة في أيام أحمد بن طولون الهرم الكبير، فوجدوا في أحد بيوته جاماً من زجاج غريب اللون والتكوين، فحين خرجوا فقدوا منهم واحداً،

فدخلوا في طلبه فخرج إليهم عرياناً وهو يضحك، وقال: لا تتعبوا في طلبي. ورجع هارباً إلى داخل الهرم، فعلموا أن الجن استهوته، وشاع

أمرهم، فبلغ ذلك ابن طولون، فمنع الناس من الدخول وأخذ منهم إلجام، فملأه ماء، ووزنه ثم صب ذلك الماء ووزنه؛ فكان وزنه ملآناً كوزنه وهو

فارغ.

وقال ابن□

الساعاتي:

ومن العجائب، والعجـائب جـمة دقت عن الإكثار والإسـهـاب هرمان قد هرم الزمان وأدبـرت أيامه، وتزيد حسن شبـاب للـه أي بـنـــية أزلـــيةٍ

تبغي السماء بأطول الأسبـاب وكأنما وقفت وقـوف تـبـلـد أسفاً علـى الأيام والأحـقـاب كتمت على الأسماع فصل خطابها وغدت تشير به إلى الألـبـاب وقال سيف الدين بن حبارة:

للـــه أي غــــريبة وعـــجـــيبة في صـنـعة الأهـرام لـلألـبـــاب! أخفت عن الأسـمـاع قـصة أهـلـهـا ونضـت عـن الإبـداع كـل نـقـاب فكأنـمـا هـي كـالـخيام مـقـمـامة

من غير ما عمد ولا أطناب

وأخرج ابن عبد الحكم عن تبيع قال: إن في الإسكندرية مساجد خمسة مقدسة: مسجد موسى عليه الصلاة والسلام عند المنارة، ومسجد

سليمان عليه الصلاة والسلام، ومسجد ذي القرنين، ومسجد الخضر؛ أحدهما عند القسارية، والآخر عند باب المدينة، ومسجد عمرو بن العاص الكبير.

قال ابن عبد الحكم: وحدثنا أبي، قال: كانت الإسكندرية ثلاث مدن بعضها إلى جنب بعض: منة؛ وهي □ موضع المنارة وما والاها،

والإسكندرية وهي موضع قصبة الإسكندرية اليوم، ونقيطة.

وأخرج عن خالد بن عبد الله وأبي حمزة أن ذا القرنين لما بنى الإسكندرية رخمها بالرخام الأبيض؛ □ جدرها وأرضها، فكان لباسهم فيها السواد

والحمرة؛ فمن قبل ذلك لبس الرهبان السواد من نصوع بياض الرخام، ولم يكونوا يسرجون فيها بالليل من بياض الرخام، وإذا كان القمر أدخل

الرجل الذي يخيط بالليل في ضوء القمر في بياض الرخام الخيط في حجر الإبرة.

قال: وذكر بعض المشايخ: إن الإسكندرية بنيت ثلاثمائة سنة، وسكنت ثلاثمائة سنة، وخربت ثلاثمائة سنة؛ ولقد مكثت سبعين سنة ما يدخلها

أحد إلا وعلى بصره خرقة سواد؛ من بياض جصها وبلاطها، ولقد مكنت سبعين ما يستسرج فيها.

قال وأخبرنا ابن أبي مريم، عن العاطف بن خالد، قال: كانت الإسكندرية بيضاء تضيء بالليل والنهار، وكانوا إذا غربت الشمس لم يخرج أحد منهم من بيته، ومن خرج اختطف.

قال ابن فضل الله في المسالك: بظاهر الإسكندرية عمود السواري، عمود مرتفع في الهواء تحته قاعدة، □
وفوقه قاعدة، يقال: إنه لا نظير له

في العمد في علوة ولا في استدارته.

قلت: قد رأيت هذا العمود لما دخلت الإسكندرية في رحلتي، ودور قاعدته ثمانية وثمانون شبراً، ومن
المتواتر عن أهل الإسكندرية أن من حاذاه

عن قرب، وغمض عينيه ثم قصده لا يصيبه بل يميل عنه. وذكروا أنه لم تحصل إصابته لأحد قط مع كثرة
تحريتهم ذلك؛ وقد جربت ذلك مراراً

فلم أقدر أن أصيبه.

ذكر منارة الإسكندرية: □

واختلف أهل التاريخ فيمن بناها؛ فقيل: إنها من بناء الإسكندر، وقيل: من بناء دلوكة الملكة. ويقال: إن □
طولها كان ألف ذراع، وكان في

أعلاها تماثيل من نحاس، منها تمثال قد أشار بسبابة يده اليمنى نحو الشمس أينما كانت من الفلك، يدور معها
حيثما دارت. ومنها تمثال وجهه

إلى البحر، متى صار العدو منهم على نحو من ليلة سمع له صوت هائل، يعلم به أهل المدينة طروق العدو.
ومنها تمثال كلما مضى من الليل

ساعة صوت صوتاً مطرباً، وكان بأعلاه مرآة ترى منها قسطنطينية، وبينهما عرض البحر، فكلما جهز
الروم جيشاً رئى في المرآة.

وحكى المسعودي أن هذه المنارة كانت في وسط الإسكندرية، وأنها تعد من بنيان العالم العجيب، بناها □
بعض ملوك اليونان، يقال إنه الإسكندر، لما

كان بينهم وبين الروم من الحروب، فجعلوا هذه المنارة مرقباً، وجعلوا فيها مرآة من الأحجار المشققة،
تشاهد فيها مراكب البحر إذا أقبلت من

رومية على مسافة تعجز الأبصار عن إدراكها، ولم تزل كذلك إلى أن ملكها المسلمون، فاحتال ملك الروم
لما انتفع بها المسلمون في ذلك على

الوليد بن عبد الملك، بأن أنفذ أحد خواصه، ومعه جماعة إلى بعض ثغور الشام؛ على أنه راغب في
الإسلام، فوصل إلى الوليد، وأظهر الإسلام،

وأخرج كنوزاً ودفائن كانت بالشام؛ مما حمل الوليد على أن صدقه على أن تحت المنارة أموالاً ودفائن
وأسلحة، دفنها الإسكندر. فجهزه مع

جماعة من ثقاته إلى الإسكندرية، فهدم ثلث المنارة، وأزال المرآة، ثم فطن الناس إلى أنها مكيدة، فاستعشر
ذلك، فهرب في مركب كانت معدة له،

.ثم بنى ما تهدم بالجص والآجر

وكان عليها مرآة من الحديد الصيني، عرضها سبعة أذرع، كانوا يرؤن فيها جميع من يخرج من البحر □ من

جميع بلاد الروم، فإن كانوا أعداء تركوهم حتى يقربوا من الإسكندرية، فإذا قربوا منها ومالت الشمس للغروب أداروا المرآة مقابلة الشمس،

فاستقبلوا بها السفن، حتى يقع شعاع الشمس في ضوء المرآة على السفن في البحر عن آخرها، ويهلك كل من فيها. وكانوا يؤدون الخراج

ليأمنوا بذلك من إحراق المرآة لسفنهم، فلما فتح عمرو بن العاص الإسكندرية احتالت الروم بأن بعثت جماعة من القسيسين المستعربين،

وأظهروا أنهم مسلمون، وأخرجوا كتاباً زعموا أن ذخائر ذي القرنين في جوف المنارة، فصدقتهم العرب لقلة معرفتهم بحيل الروم، وعدم معرفتهم

بمنفعة تلك المرآة والمنارة، وتخيلوا أنهم إذا أخذوا الذخائر والأموال أعادوا المرآة والمنارة كما كانت، فهدموا مقدار ثلثي المنارة، فلم يجدوا فيها

شيئا، وهرب أولئك القسيسون، فعلموا حينئذ أنها خديعة، فبنوها بالآجر، ولم يقدروا أن يرفعوا إليها تلك الحجارة، فلما أتموها نصبوا عليها تلك

.المرآة كما كانت، فصدئت ولم يروا فيها شيئا، وبطل إحراقها

قال: وقد عملت الجن لسليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام في الإسكندرية مجلسا من أعمدة الرخام □ الملون المجزع كالجزع اليماني،

المصقول كالمرآة، إذا نظر الإنسان إليها يرى من يشمي خلفه لصفائها. وكان عدد الأعمدة ثلاثمائة عمود، وكل عمود ثلاثون ذراعا، وفي

وسط المجلس عمود طوله مائة وإحدى عشرة ذراعا، وسقفه من حجر واحد أخضر مربع، قطعته الجن. ومن جملة تلك الأعمدة عمود واحد

!يتحرك شرقا وغربا، يشاهد ذلك الناس، ولا يرون ما سبب حركته

قال: ومن جملة عجائب الإسكندرية السوارى والملعب الذي كانوا يجتمعون فيه في يوم من السنة، ويرمون بأكرة، فلا تقع في حجر أحد منهم

.إلا ملك مصر، وكان يحضر هذا الملعب ما شاء من الناس ما يزيد على ألف ألف رجل

وقد عملت الجن لسليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام في الإسكندرية مجلسا من أعمدة الرخام الملون □ المجزع كالجزع اليماني،

المصقول كالمرآة، إذا نظر الإنسان إليها يرى من يشمي خلفه لصفائها. وكان عدد الأعمدة ثلاثمائة عمود، وكل عمود ثلاثون ذراعا، وفي

وسط المجلس عمود طوله مائة وإحدى عشرة ذراعا، وسقفه من حجر واحد أخضر مربع، قطعته الجن. ومن جملة تلك الأعمدة عمود واحد

!يتحرك شرقا وغربا، يشاهد ذلك الناس، ولا يرون ما سبب حركته

فلما فتحت الإسكندرية قال عوف بن مالك لأهلها: ما أحسن □

.مدينتكم! فقالوا: إن الإسكندر لما بناها قال: هذه مدينة فقيرة إلى الله تعالى غنية عن الناس، فبقيت بهجتها

ذكر دخول عمرو بن العاص مصر في الجاهلية □

أخرج بن عبد الحكم، عن خالد بن يزيد، أنه بلغه أن عمرا قدم إلى بيت المقدس لتجارة في نفر من قريش، وإذا هم بشماس من شمامسة الروم من

أهل الإسكندرية، قدم للصلاة في بيت المقدس، فخرج في بعض جبالها يسيح، وكان عمرو يرعى إبله وإبل أصحابه، وكانت رعية الإبل نوبا بينهم؛

فبينما عمرو يرعى إبله إذ مر به ذلك الشماس، وقد أصابه عطش شديد في يوم شديد الحر، فوقف على عمر فاستسقاه، فسقا عمرو من قربة له،

فشرب حتى روي، ونام الشماس مكانه، وكان إلى جانب الشماس حيث نام حفرة، فخرجت منها حية عظيمة، فبصر بها عمرو فنزع لها بسهم

فقتلها، فلما استيقظ الشماس نظر إلى حية عظيمة قد أنجاه الله منها، فقال لعمرو: ما هذه؟ فأخبره عمرو أنه رماها بسهم فقتلها، فأقبل إلى

عمرو، فقبل رأسه، وقال: قد أحياني الله بك مرتين: مرة من شدة العطش، ومرة من هذه الحية، فما أقدمك هذه البلاد؟ قال: قدمت مع

أصحاب لي نطلب الفضل من تجارتنا، فقال له الشماس: وكم ترجو أن تصيب من تجارتك؟ قال: رجائي أن أصيب ما أشتري به بعيرا،

فإني لا أملك إلا بعيرين، فأملي أن أصيب بعيرا آخر، فيكون لي ثلاثة أبعرة. قال له الشماس: أرأيت دية أحدكم بينكم، كم هي؟ قال: مائة

من الإبل، فقال الشماس لسنا أصحاب إبل، نحن أصحاب دنانير، قال: تكون ألف دينار، فقال له الشماس: إني رجل غريب في هذه البلاد،

وإنما قدمت أصلي في كنيسة بيت المقدس، أسيح في هذه الجبال شهرا، جعلت ذلك نذرا على نفسي، وقد قضيت ذلك، وأنا أريد الرجوع إلى

بلادي فهل لك أن تتبعني إلى بلادي، ولك عهد الله وميثاقه أن أعطيك ديتين؛ لأن الله تعالى قد أحياني بك مرتين! فقال له عمرو: أين بلادك؟

قال: مصر في مدينة يقال لها الإسكندرية، فقال له عمرو: لا أعرفها ولم أدخلها قط، فقال له الشماس: لو دخلتها لعلمت أنك لم تدخل قط

مثلها، فقال له عمرو: تفي لي بما تقول، وعليك بذلك العهد والميثاق؟ فقال الشماس: نعم لك الله على بالعهد والميثاق أن أفي لك، وأن أردك

إلى أصحابك، فقال عمرو: كم يكون مكثي في ذلك؟ قال: شهراً تنطلق معي ذاهباً عشراً، وتقم عندنا عشراً، وترجع في عشر؛ ولك على

أنت أحفظك ذاهباً، وأن أبعث معك من يحفظك راجعاً. فقال له أنظرني حتى أشاور أصحابي، فانطلق عمرو إلى أصحابه، فأخبرهم بما عاهد

عليه الشماس، وقال لهم: أقيموا حتى أرجع إليكم، ولكم على العهد أن أعطيكم شطر ذلك، على أن يصحبني رجل منكم آنس به، فقالوا: نعم،

وبعثوا معه رجلاً منهم، فانطلق عمرو وصاحبه مع الشماس إلى مصر؛ حتى انتهى إلى الإسكندرية، فرأى عمرو من عمارتها وكثرة أهلها وما

بها من الأموال والخير ما أعجبه ذلك، وقال: ما رأيت مثل مصر قط وكثرة ما فيها من الأموال، ونظر إلى الإسكندرية وعمارتها وجودة بنائها

وكثرة أهلها وما بها من الأموال، فازداد تعجباً، ووافق دخول عمرو الإسكندرية عيداً فيها عظيماً يجتمع فيها ملوكهم وأشرافهم، ولهم أكرة منذهب

مكللة، يترامى بها ملوكهم، وهم يتلقونها بأكمامهم؛ وفيما أختبروا من تلك الأكرة على ما وضعها من مضى منهم: إن من وقعت الأكرة في

كمه، واستقرت فيه، لم يمت حتى يملكهم. فلما قدم عمرو الإسكندرية أكرمه الشماس الإكرام كله، وكساه ثوب ديباج ألبسه إياه، وجلس عمرو

والشماس مع الناس في ذلك المجلس، حيث يترامون بالأكرة، وهم يتلقونها بأكملهم، فرمى بها رجل منهم، فأقبلت تهوي حتى وقعت في كم عمرو؛

فتعجبوا من ذلك، وقالوا: ما كذبتنا هذه الأكرة قط إلا هذه المرة، أترى هذا الأعرابي يملكنا! هذا لا يكون أبداً! وإن ذلك الشماس مشى في

أهل الإسكندرية وأعلمهم أن عمراً أحياه مرتين، وأنه قد ضمن له ألفي دينار، وسألهم أن يجمعوا ذلك له فيما بينهم؛ ففعلوا ودفعوها إلى عمرو،

فانطلق عمر وصاحبه، وبعث معهما الشماس دليلاً ورسولاً، وزودهما وأكرمهما؛ حتى رجع هو وصاحبه إلى أصحابهما؛ فبذلك عرف عمرو

مدخل مصر ومخرجها، ورأى منها ما علم أنها أفضل البلاد وأكثرها مالاً. فلما رجع عمرو إلى أصحابه دفع إليهم فيما بينهم ألف دينار وأمسك

لنفسه ألفاً، قال عمرو: فكان أول مال اعتقدته وتأثلته.

ذكر كتاب رسول الله إلى المقوقس□:

قال ابن عبد الحكم: حدثنا هشام بن إسحاق وغيره، قال: لما كانت سنة ست من الهجرة، ورجع رسول الله من الحديبية بعث إلى الملوك،

فبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس صاحب الإسكندرية، فمضى حاطب بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما انتهى إلى الإسكندرية،

وجد المقوقس في مجلس يشرف على البحر، فركب البحر؛ فلما حاذى مجلسه، أشار بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بين إصبعيه، فلما

رآه أمره بالكتاب فقبض، وأمر به فأوصل إليه، فلما قرأ الكتاب قال: ما منعه إن كان نبياً أن يدعو علي فيسلط علي! فقال له: ما منع

عيسى بن مريم أن يدعو على من أبى عليه أن يفعل به ويفعل! فوجم ساعة، ثم استعادها فأعادها حاطب عليه، فسكت، فقال له حاطب: إنه

قد كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى، فانتقم الله به ثم انتقم منه؛ فاعتبر بغيرك، ولا تعتبر بك. وإن لك ديناً لن تدعه إلا لما هو خير منه،

وهو الإسلام الكافي فقد ما سواه، وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى

الإنجيل، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به، ثم قرأ الكتاب، فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى

المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى؛ أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، فأسلم تسلم ويؤتك الله أجرك مرتين، (يا أهل الكتاب

تعالوا إلى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا

مسلمون).

فلما قرأه أخذه، فجعله في حق من عاج، وختم عليه، ثم دعا كاتباً يكتب بالعربية، فكتب: لمحمد بن عبد الله، من المقوقس عظيم القبط. سلام

عليك، أما بعد فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً قد بقي؛ وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك،

.وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة

وأخرج ابن عبد الحكم، عن أبان بن صالح، قال: أرسل المقوقس إلى حاطب ليلة، وليس عنده أحد إلا □ ترجمان له، فقال له: ألا تخبرني عن

أمور أسألك عنها، فإني أعلم أن صاحبك تخيرك حين بعثك لي! قلت: لا تسألني عن شيء إلا صدقنك، قال: إلام يدعو محمد؟ قال: إلى

أن نعبد الله، ولا نشرك به شيئاً، ونخلع ما سواه، ويأمر بالصلاة. قال: فكم تصلون؟ قال: خمس صلوات في اليوم والليلة، وصيام شهر

رمضان، وحج البيت، والوفاء بالعهد، وينهى عن أكل الميتة والدم. قال: ومن أتباعه؟ قال: الفتيان من قومه وغيرهم، قال: فهل يقاتل

قومه؟ قال: نعم، قال: صفه لي، فوصفته بصفة من صفاته، ولم آت عليها، قال: قد بقيت أشياء، لم أرك ذكرتها؛ في عينيه حمرة قلما

تفارقه، وبين كتفيه خاتم النبوة، يركب الحمار، ويلبس الشملة، ويجتزئ بالتمرات والكسر، لا يبالي من لاقى من عمٍ ولا ابن عم، قلت: هذه

صفته، قال: قد كنت أعلم أن نبياً قد بقي، وقد كنت أظن أن مخرجه بالشام، وهناك تخرج الأنبياء من قبله، فأراه قد خرج في العرب، في أرض

جهد وبؤس، والقبط لا تطاوعني في ابتاعه، ولا أحب أن يعلم بمحاورتي إياك، وسيظهر على البلاد، وينزل أصحابه من بعده بساحتنا هذه حتى

.يظهروا على ما هاهنا، وأنا لا اذكر للقبط من هذا حرفاً، فارجع إلى صاحبك

وقال ابن الحكم: أنبأنا هانئ المتوكل، أنبأنا ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، أن المقوقس لما أتاه كتاب □ رسول الله صلى الله عليه وسلم ضمه

إلى صدره، وقال: هذا زمان يخرج فيه النبي الذي نجد نعته وصفته في كتاب الله، وإنا لنجد صفته أنه لا يجمع بين أختين في ملك يمين ولا

نكاح، وأنه يقبل الهدية، ولا يقبل الصدقة، وإن جلساءه المساكين، وأن خاتم النبوة بين كتفيه. ثم دعا رجلاً عاقلاً، ثم لم يدع بمصر أحسن ولا

أجمل من مارية وأختها؛ وهما من أهل حفن من كورة أنصنا. فبعث بهما معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأهدى له بغلة شهباء،

وحماراً أشهب، وثياباً من قباطي مصر، وعسلاً من عسل بنها، وبعث إليه بمال صدقة، وأمر رسوله أن ينظر: من جلساؤه وينظر إلى ظهره،

هل يرى شامة كبيرة ذات شعر؟ ففعل ذلك الرسول، فلما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم إليه الأختين والدابتين والعسل والثياب،

وأعلمه أن ذلك كله هدية. فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الهدية - وكان لا يردها من أحد من الناس - فلما نظر إلى مارية وأختها

أعجبتاه، وكره أن يجمع بينهما، وكانت إحداهما تشبه الأخرى، فقال: اللهم اختر لنبيك، فاختار له الله مارية، وذلك أنه قال لهما: قولا نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبد ورسوله، فبادرت مارية، فتشهدت وآمنت قبل أختها، ومكثت بعدها أختها ساعة، ثم تشهدت وآمنت، فوهب رسول

الله صلى الله عليه وسلم أختها لمحمد بن مسلمة الأنصاري. وكانت البغلة والحمار أحب دوابه إليه، وسمى البغلة دلدلاً، وسمى الحمار

يعفوراً، وأعجبه العسل، فدعا لعسل بنها بالبركة، وبقيت تلك الثياب حتى كفن في بعضها صلى الله عليه وسلم.

وأخرج ابن عبد الحكم، عن ابن مسعود، قال: قلنا يا رسول الله، فيم نكفنك؟ قال: في ثيابي هذه، أو ثياب □ مصر.

□

وأخرج ابن عبد الحكم، عن زيد بن أسلم، قال: لما أبطأ على عمر الخطاب فتح مصر، كتب إلى عمرو بن العاص: أما بعد، فقد عجبت

لإبطائكم عن فتح مصر؛ إنكم تقاتلونهم منذ سنتين؛ وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم، وإن الله تبارك وتعالى لا ينصر قوماً

إلا بصدق نياتهم، وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر، وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف، إلا أن يكون غيرهم ما غيرهم؛

فإذا أتاك كتابي، فاخطب الناس، وحضهم على قتال عدوهم، ورغبهم في الصبر والنية، وقدم أولئك الأربعة في صدور الناس، ومر الناس جميعاً أن

يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد، وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة، فإنها ساعة تنزل الرحمة فيها، ووقت الإجابة، وليعج الناس إلى الله،

ويسألوه النصر على عدوهم.

فلما أتى عمراً الكتاب، جمع الناس، وقرأ عليهم كتاب عمر، ثم دعا أولئك النفر، فقدمهم أما الناس، وأمر الناش أن يظهروا، ويصلوا ركعتين، ثم

رغبوا إلى الله تعالى، ويسألوه النصر على عدوهم، ففعلوا ففتح الله عليهم.

قال ابن عبد الحكم: حدثنا أبي، قال: لما أبطأ على عمرو بن العاص فتح الإسكندر

وأخرج عن حسين بن شفي بن عبيد، قال: كان بالإسكندرية، فيما أحصي من الحمامات اثنا عشر □ ديماسا، أصغر ديماس منها يسع ألف مجلس،

كل مجلس منها يسع جماعة نفر. وكان عدة من بالإسكندرية من الروم مائتي ألف من الرجال، فلحق بأرض الروم أهل القوة، وركبوا السفن،

وكان بها مائة مركب من المراكب الكبار، فحمل فيها ثلاثون ألفا مع ما قدروا عليه من المال والمتاع والأهل، وبقى من بقى من الأسارى ممن

.بلغ الخراج، فأحصى يومئذ ستمائة ألف سوى النساء والصبيان

.وذكر يزيد بن أبي حبيب أن عدد الجيش الذي كان مع عمرو بن العاص خمسة عشر ألفا وخمسمائة■

ثم سار عمرو بن العاص إلى الإسكندرية في شهر ربيع الأول سنة عشرين- وقيل في جمادى الآخرة- ■ فأمر بفسطاطه أن يقوض، فإذا بيمامة

قد باضت في أعلاه، فقال: لقد تحرمت بجوارنا، أقروا الفسطاط حتى يطير فراخها، فأقروا الفسطاط في موضعه، فبذلك سميت الفسطاط.

.وذكر ابن قتيبة، أن العرب تقول لكل مدينة فسطاط، ولذلك قيل لمصر: فسطاط

قال ابن عبد الحكم: وحدثنا أبي سعيد بن عفير، أن عمرو بن العاص لما أراد التوجه إلى الإسكندرية ■ لقتال من بها من الروم أمر بنزع

فسطاطه، فإذا فيه يمام قد فرخ، فقال: لقد تحرم منا بمتحرم، فأمر به فأقره كما هو، وأوصى به صاحب القصر، فلما قفل المسلمون من

الإسكندرية، وقالوا: أين ننزل؟ قال: الفسطاط- لفسطاطه الذي كان خلفه- وكان مضروبا في موضع الدار التي تعرف اليوم بدار

.الحصى

وسأل المقوقس في الصلح، فبعث إليه عمرو بعبادة بن الصامت، فصالحه المقوقس على القبط والروم، ■ على أن للروم الخيار في الصلح إلى أن

يوافي كتاب ملكهم؛ فإن رضى تم ذلك، وإن سخط انتقض ما بينه وبين الروم؛ وأما القبط فبغير خيار. وكان الذي انعقد عليه الصلح أن فرض

على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط ديناران عن كل نفس في كل سنة من البالغين؛ شريفهم ووضيعهم دون الشيوخ والأطفال والنساء،

وأخرج الواقدي وأبو نعيم في الدلائل عن المغيرة بنشعبة، أنه لما خرج مع بني مالك إلى المقوقس، قال □ لهم: كيف خلصتم إلي من طائفتكم،

ومحمد وأصحابه بيني وبينكم؟ قالوا: لصقنا بالبحر، وقد خفناه على ذلك، قال: فكيف صنعتم فيما دعاكم إليه؟ قالوا: لم يتبعه منا رجل

واحد، قال: ولم ذاك؟ قالوا: جاءنا بدين مجدد لا تدين به الآباء، ولا يدين به الملك، ونحن على ما كان عليه آباؤنا. قال: فكيف صنع

قومه؟ قال: تبعه أحداثهم وقد لاقاه من خالفه من قومه وغيرهم من العرب في مواطن، مرة تكون عليهم الدبرة ومرة تكون له. قال: ألا

تخبروني، إلى ماذا يدعو؟ قالوا: يدعو إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له، ونخلع ما كان يعبد الآباء، ويدعو إلى الصلاة والزكاة، قال: ألهما

وقت يعرف، وعدد ينتهي إليه؟ قالوا: يصلون في اليوم والليلة خمس صلوات كلها بمواقيت وعدد، ويؤدون من كل ما بلغ عشرين مثقالاً، وكل

بغل بلغت خمساً شاة، ثم أخبره بصدقة الأموال كلها، قال: أفرأيتم إن أخذها أين يضعها؟ قال: يردها على فقرائهم، ويأمر بصلة الرحم ووفاء

العهد وتحريم الزنا والربا والخمر، ولا يأكل ما ذبح لغير اسم الله. قال: هو نبي مرسل إلى الناي كافة، ولو أصاب القبط والروم تبعوه، وقد

أمرهم بذلك عيسى بن مريم؛ وهذا الذي تصفونه منه بعثت به الأنبياء من قبل، وستكون له العاقبة حتى لا ينازعه أحد، ويظهر دينه إلى منتهى

الخف والحافر ومنقطع البحور، قلنا: لو دخل الناس كلهم معه ما دخلنا. فأنغض رأسه، وقال: أنتم في اللعب! ثم قال: كيف نسبه في

قومه؟ قلنا: هو أوسطهم نسباً، قال: كذلك الأنبياء، تبعث في نسب قومها، قال: فكيف صدق حديثه؟ قلنا: يسمى الأمين من صدقه،

قال: انظروا في أموركم، أترونه يصدق فيم بينكم وبينه، ويكذب على الله! ثم قال: فمن تبعه؟ قلنا: الأحداث، قال: هم أتباع الأنبياء

قبله، قال: فما فعلت يهود يثرب، فهم أهل التوراة؟ قلنا: خالفوه، فأوقع بهم فقتلهم وسباهم، وتفرقوا في كل وجه، قال: هم قوم حسدٍ

.حسدوه، أما إنهم يعرفون من أمره مثل ما نعرف

قال المغيرة: فقمنا من عنده، وقد سمعنا كلاماً ذللنا لمحمد صلى الله عليه وسلم، وخضعنا، وقلنا: ملوك العجم يصدقونه ويخافونه على بعد

إرجائهم منه، ونحن أقرباءه وجيرانه لم ندخل معه، وقد جاءنا داعياً إلى منازلنا! قال المغيرة: فأقمت بالإسكندرية لا أدع كنيسة إلا دخلتها،

وسألت أساقفها من قبطها وورومها عما يجدون من صفة محمد صلى الله عليه وسلم، وكان أسقف من القبط لم أر أحداً أشد منه، فقلت:

أخبرني، هل بقى أحد من الأنبياء؟ قال: نعم، هو آخر الأنبياء، ليس بينه وبين عيسى بني، قد أمر عيسى باتباعه، وهو النبي الأمي العربي،

أسمه أحمد، بالطويل ولا بالقصير، في عينيه حمرة، وليس بالأبيض ولا بالآدم، يعفى شعره، ويلبس ما غلظ من الثياب، ويجترئ بما لقي من

الطعام؛ سيفه على عاتقه، ولا يبالي من لاقى، يباشر القتال بنفسه ومعه أصحابه يفدونه بأنفسهم، هم أشد له حباً من آبائهم وأولادهم، من حرم

يأتي، وإلى حرم يهاجر، إلى أرض سباخ ونخل، يدين بدين إبراهيم. قلت: زدني في صفته، قال: يأترز على وسطه، ويغسل أطرافه،

ويخص بما لم يخص به الأنبياء قبله. كان النبي يبعث إلى قومه، وبعث هو إلى الناس كافة وجعلت له الأرض مسجداً وطهوراً: أينما أدركته

الصلاة تيمم وصلى وكان من قبله مشدداً عليهم لا يصلون إلا في الكنائس والبيع.

قال المغيرة: فوعيت ذلك كله من قوله وقول غيره، ثم رجعت وأسلمت.

حتى□

ركن لذلك عمر، فعقد له على أربعة آلاف رجل، كلهم من عك، ويقال: على ثلاثة آلاف وخمسمائة. فقال عمر: سر وأنا مستخير الله في

مسيرك، وسيأتي إليك سريعاً إن شاء الله تعالى، فان أدركك كتابي وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها، أو شيئاً من أرضها

فانصرف، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي، فامض لوجهك، واستعن بالله واستنصره.

فسار عمرو بن العاص من جوف الليل، ولم يشعر به أحد من الناس، واستخار عمر الله؛ فكأنه تخوف على المسلمين في وجههم ذلك، فكتب إلى

عمرو بن العاص أن ينصرف بمن معه من المسلمين: فأدرك الكتاب عمراً وهو برفح، فتخوف عمرو بن العاص؛ إن هو أخذ الكتاب وفتحه أن

يجد فيه الانصراف كما عهد إليه عمر، فلم يأخذ الكتاب من الرسول ودافعه، وسار كما هو، حتى نزل قريةٍ فيما بين رفح والعريش، فسأل عنها

فقيل: إنها من مصر؛ فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين، فقال عمرو: ألستم تعلمون أن هذه من مصر؟ قالوا: بلى، فقال: فإن أمير المؤمنين عهد إليّ، وأمرني إن لحقني كتابه ولم أدخل مصر أن أرجع، وإن لم يلحقني كتابه حتى دخلنا أرض مصر؛ فسيروا وامضوا على بركة

.الله

فتقدم عمرو بن العاص. فلما بلغ المقوقس قدوم عمرو، توجه إلى الفسطاط، فكان يجهز على عمرو الجيوش، فكان أول موضع قوتل فيه

الفرما، قاتله الروم قتالاً شديداً نحواً من شهر، ثم فتح الله على يديه. وكان بالإسكندرية أسقف للقبط، يقال له أبو بنيامين، فلما بلغه قدوم عمرو

بن العاص، كتب إلى القبط يعلمهم أنه لا يكون للروم دولة، وأن ملكهم قد انقطع، ويأمرهم بتلقي عمرو، فيقال إن القبط الذين كانوا بالفر ما كانوا

يومئذ لعمرو أعواناً. ثم توجه عمرو؛ لا يدافع إلا بالأمر الخفيف، حتى نزل القواصر. فنزل ومن معه، فقال بعض القبط لبعض: ألا

تعجبون من هؤلاء القوم، يقدمون على جموع الروم، وهم في قلة من الناس! فأجابه رجل آخر منهم إن هؤلاء القوم لا يتوجهون إلى أحد إلا

ظهروا عليه، حتى يقتلوا أخيرهم، فتقدم عمرو لا يدافع إلا بالأمر الخفيف، حتى أتى بلبيس، فقاتلوه بها نحواً من شهر، حتى فتح الله عليه، ثم

.مضى لا يدافع إلا بالأمر الخفيف، حتى أتى أم دنين، فقاتلوه بها قتالاً شديداً

وأبطأ عليه الفتح، فكتب إلى عمر يستمده، فأمده بأربعة آلاف، تمام ثمانية آلاف، فسار عمرو بمن معه حتى نزل على الحصن، فحاصرهم

بالقصر الذي يقال له بابليون حيناً، وقاتلهم قتالاً شديداً؛ يصبحهم ويمسيهم. فلما أبطأ عليه الفتح، كتب إلى عمر بن الخطاب يستمده، فأمده عمر

بأربعة آلاف رجل، على كل ألف رجل منهم رجل، وكتب إليه: إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل منهم رجل مقام الألف:

الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد. وأعلم أن معك أثنى عشر ألفاً، ولا يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة.

وكانوا قد خندقوا حول حصنهم، وجعلوا للخندق أبواباً، وجعلوا سكك الحديد موتدة بأفنية الأبواب. فلما قدم المدد على عمرو بن العاص أتى إلى

القصر، ووضع عليه المنجنيق - وكان على القصر رجل من الروم يقال له الأعيرج والياً عليه، وكان تحت يدي المقوقس - ودخل عمرو

إلى صاحب الحصن، فتناظر في شيء مما هم فيه، فقال: أخرج واستشير أصحابي، وقد كان صاحب الحصن أوصى الذي كان على الباب:

إذا مر به عمرو أن يلقى عليه صخرة فيقتله، فمر عمرو وهو يريد الخروج برجل من العرب، فقال: قد دخلت فانظر كيف تخرج، فرجع عمرو

إلى صاحب الحصن، فقال: إني أريد أن آتيك بنفر من أصحابي، حتى يسمعوا منك مثل الذي سمعت، فقال العلج في نفسه: قتل جماعة أحب

إلي من قتل واحد، فأرسل إلى الذي كان أمره بقتل عمرو، ألا يتعرض له، رجاء أن يأتي بأصحابه فيقتلهم. وخرج عمرو، فلما أبطأ عليه الفتح،

قال الزبير: إني أهب نفسي لله، أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين، فوضع سلماً إلى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام، ثم صعد،

وأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعاً، فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبر معه السيف، وتحامل الناس على السلم حتى نهاهم

عمرو خوفاً من أن ينكسر. فلما اقتحم الزبير، وتبعه من تبعه، وكبر وكبر من معه، وأجابهم المسلمون من خارج، لم يشك أهل الحصن أن

العرب قد اقتحموا جميعاً، فهربوا، فعمد الزبير وأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه، واقتحم المسلمون الحصن؛ فلما خاف المقوقس على نفسه ومن

معه؛ حينئذ سأل عمرو بن العاص الصلح، ودعاه إليه على أن يفرض للعرب على القبط دينارين دينارين على كل رجل منهم، فأجابه عمرو إلى

ذلك.

قال الليث بن سعد رضى الله عنه: وكان مكثهم على باب القصر حتى فتحوه سبعة أشهر.

قال ابن الحكم: وحدثنا عثمان بن صالح، أخبرنا خالد بن نجيح، عن يحيى بن أيوب وخالد بن حميد، □ قالا: حدثنا خالد بن يزيد، عن جماعة من

التابعين، بعضهم يزيد على بعض، أن المسلمين لما حاصروا بابليون، وكان به جماعة من الروم وأكابر القبط ورؤسائهم، وعليهم المقوقس،

فقاتلوهم بها شهراً، فلما رأى القوم الجد منهم على فتحه والحرص، ورأوا من صبرهم على القتال ورغبتهم فيه، خافوا أن يظهروا، فتنحى

المقوقس وجماعة من أكابر القبط وخرجوا من باب القصر القبلي، ودونهم جماعة يقاتلون العرب، فلحقوا بالجزيرة وأمروا بقطه الجسر؛ وذلك

في جرى النيل وتخلف الأعيرج في الحصن بعد المقوقس، فلما خاف فتح الحصن، ركب هو وأهل القوة والشرف، وكانت سفنهم ملصقة

بالحصن، ثم لحقوا بالمقوقس في الجزيرة.

فأرسل المقوقس إلى عمرو بن العاص: إنكم قوم قد ولجتم في بلادنا، وألححتم على قتالنا، وطال مقامكم في أرضنا؛ وإنما أنتم عصبة يسيرة،

وقد أظلتكم الروم، وجهزوا إليكم، ومعهم من العدة والسلاح، وقد أحاط بكمم هذا النيل، وإنما أنتم أسارى قد أيدينا، فأرسلوا إلينا رجالاً منكم نسمع

من كلامهم؛ فلعله أن يأتي الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب، وينقطع عنا وعنكم هذا القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم، فلا ينفعنا

الكلام، ولا نقدر عليه؛ ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفاً لطلبتكم ورجائكم، فابعث إلينا رجالاً من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم،

.وما بهم من شيء

فلما أتت عمرو بن العاص رسل المقوقس حبسهم عنده يومين وليلتين، حتى خاف عليهم المقوقس، فقال لأصحابه: أترون أنهم يقتلون الرسل

.ويحبسونهم، يستحلون ذلك في دينهم! وإنما أراد عمرو بذلك أن يروا حال المسلمين

فرد عليهم عمرو مع رسله: أن ليس بيني وبينك إلا إحدى ثلاث خصال: إما أن دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم مالنا، وإن أبيتم

أعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون، وإما أن جاهدنا كم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو خير .الحاكمين

فلما جاءت رسل المقوقس إليه، قال: كيف رأيتموهم؟ قالوا: رأينا قوماً الموت أحب إليهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة، ليس

لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة، وإنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد

فيهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء، ويتخشون في .صلاتهم

فقال عند ذلك المقوقس: والذي يحلف به، لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالواها، ولا يقوى على قتال هؤلاء أحد، ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم

.وهم محصورون بهذا النيل، لم يجيبوا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض، وقووا على الخروج من موضعهم

فرد إليهم المقوقس رسله، وقال: ابعثوا إلينا رسلاً منكم نعاملهم، ونتداعى نحن وهم إلى ما عسى أن يكون .فيه صلاح لنا ولكم

فبعث عمرو بن العاص عشرة نفر، وأحدهم عبادة بن الصامت، وهو أحد من أدرك الإسلام من العرب، طوله عشرة أشبار، وأمره أن يكون

متكلم القوم، وألا يجيبهم إلى شيء دعوه إليه إلا إحدى هذه الثلاث الخصال؛ فإن أمير المؤمنين قد تقدم في ذلك إليّ، وأمرني ألا أقبل شيئاً سوى

خصلة من هذه الثلاث الخصال.

وكان عبادة بن الصامت أسود، فلما ركبوا السفن إلى المقوقس، ودخلوا عليه، تقدم عبادة، فهابه المقوقس لسواده فقال: نحواً عني هذا الأسود،

وقدموا غيره يكلمني، فقالوا: إن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا، وإنا نرجع جميعاً إلى قوله ورأيه، وقد أمره

الأمير دوننا بما أمره به.

فقال المقوقس لعبادة: تقدم يا اسود، وكلمني برفق؛ فإني أهاب سوادك، وإن اشتد علي كلامك ازددت لك هيبة، فتقدم إليه عبادة، فقال: قد

سمعت مقالتك، وإن فيمن خلفت من أصحابي ألف رجل أسود كلهم أشد سواداً مني وأفظع مني وأفضع منظراً ولو رايتهم لكنت أهيب لهم منك

لي. وأنا قد وليت، وأدبر شبابي، وإني مع ذلك بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوي لو استقبلوني جميعاً، وكذلك أصحابي؛ وذلك إنما رغبتنا

وبغيتنا الجهاد في الله تعالى، واتباع رضوا الله؛ وليس غزونا ممن حارب الله لرغبة في الدنيا، ولا طلباً للاستكثار منها؛ إلا أن الله قد أحل ذلك

لنا، وجعل ما غنمنا من ذلك حلالاً، وما يبالي أحدنا: أكان له قنطار من ذهب، أم كان لا يملك إلا درهماً! لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة

يأكلها، يسد بها جوعته، وشملة يلتحفها، فإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه، وإنا كان له قنطار من ذهب أنفقته في طاعة الله، واقتصر على هذا

الذي بيده لأن نعيم الدنيا ورخاءها ليس برخاء، إنما النعيم والرخاء في الآخرة، وبذلك أمرنا ربنا، وأمر به نبينا، وعهد إلينا ألا تكون همة أحدنا من

الدنيا إلا فيما يمسك جوعته، ويستر عورته، وتكون همته وشغله في رضا ربه، وجهاد عدوه.

فلما سمع المقوقس ذلك منه، قال لمن حوله: هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط! لقد هبت منظره؛ وإن قوله لأهيب عندي من منظره؛ إن

هذا وأصحابه أخرجهم الله لخراب الأرض؛ وما أظن ملكهم إلا سيغلب على الأرض كلها.

ثم أقبل المقوقس على عبادة، فقال: أيها الرجل، قد سمعت مقالتك، وما ذكرت عنك وعن أصحابك؛ ولعمري ما بلغتم ما بلغتم إلا بما ذكرت،

ولا ظهرتم على من ظهرتم عليه إلا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها، وقد توجه إلينا لقتالكم من جميع الروم مما لا يحصى عدده قوم معروفون بالنجدة

والشدة، ممن لا يبالي أحدهم من لقى، ولا من قاتل، وإنا لنعلم أنكم لن تقووا عليهم، ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم، وقد أقمتم بين أظهرنا أشهراً،

وأنتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم، ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلتكم وقلة ما بأيديكم؛ ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل

رجل منكم دينارين دينارين؛ ولأميركم مائة دينار، ولخليفتكم ألف دينار، فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوة لكم به.

فقال عبادة بن الصامت رضى الله عنه: يا هذا؛ لا تغرن نفسك ولا أصحابك؛ أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم، وأنا لا نقوى

عليهم؛ فلعمري ما هذا بالذي تخوفنا به، ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه؛ إن كان ما قلتم حقاً فذلك والله أرغب ما يكون في قتالهم، وأشد لحرصنا

عليهم؛ لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه، وإن قتلنا من آخرنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنته، وما من شيء اقر لأعيننا، ولا أحب إلينا

من ذلك؛ وأنا منكم حينئذ على إحدى الحسنيين؛ إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا، وإنها لأحب

الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا؛ وإن الله تعالى قال لنا في كتابه: (كم من فئة قليلةٍ غلبت كثيرةً بإذن الله والله مع الصابرين)، وما منا رجل

إلا وهو يدعو ربه صباحاً ومساءً أن يرزقه الشهادة، وألا يرده إلى بلده ولا إلى أهله وولده؛ وليس لأحد منا هم فيما خلفه، وقد استودع كل واحد

منا ربه أهله وولده؛ وإنما همنا ما أمامنا. وأما قولك: إنا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا؛ فنحن في أوسع السعة لو كانت الدنيا كلها لنا، ما

أردنا لأنفسنا منها أكثر مما نحن فيه، فانظر الذي تريد فبينه لنا، فليس بيننا وبينكم خصلة نقلبها منكم، ولا نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث، فاختر

أيها شئت، ولا تطمع نفسك في الباطل؛ بذلك أمرني الأمير، وبها أمره أمير المؤمنين؛ وهو عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل إلينا.

أما إن أجبتم إلى الإسلام الذي هو الدين الذي لا يقبل الله غيره، وهو دين أنبيائه ورسله وملائكته، أمرنا الله أن نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى

يدخل فيه، فان فعل كان له مالنا وعليه ما علينا، وكان أخانا في دين الله؛ فإن قبلت ذلك أنت وأصحابك، فقد سعدتم في الدنيا والآخرة، ورجعنا عن

قتالكم، ولا نستحل أذاكم، ولا التعرض لكم، وإن أبيتم إلا الجزية، فأدوا إلينا الجزية عن يد وأنتم صاغرون، نعاملكم على شيء نرضى به نحن

وأنتم في كل عام أبداً ما بقينا وبقيتم، ونقاتل عنكم من ناوأكم وعرض لكم في شيء من أرضكم ودمائكم وأموالكم، ونقوم بذلك عنكم؛ إذ كنتم في

ذمتنا، وكان لكم به عهد الله علينا، وإن أبيتم فليس بيننا وبينكم إلا المحاكمة بالسيف حتى نموت من آخرنا، أو نصيب ما نريد منكم؛ هذا ديننا الذي

.ندين الله به، ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره، فانظروا لأنفسكم

.فقال له المقوقس: هذا مما لا يكون أبداً، ما تريدون إلا أن تأخذوا لكم عبيداً ما كانت الدنيا

.فقال له عبادة: هو ذاك، فاختر ما شئت

فقال له المقوقس: أفلا تجيبونا إلى خصلة غير هذه الخصال الثلاث؟ فرفع عبادة يديه، وقال: لا ورب السماء ورب هذه الأرض ورب كل

.شيء، مالكم عندنا خصلة غيرها، فاختاروا لأنفسكم

فالتفت المقوقس عند ذلك إلى أصحابه، فقال: قد فرغ القول فما ترون؟ فقالوا: أو يرضى أحد بهذا الذل! أما ما أرادوا من دخولنا في

دينهم؛ فهذا لا يكون أبداً، ولا نترك دين المسيح بن مريم وندخل في دين لا نعرفه، وأما ما أرادوا من أن يسبونا ويجعلوا عبيداً أبداً، فالموت أيسر

.من ذلك؛ لو رضوا منا أن نضعف لهم ما أعطيناهم مراراً، كان أهون علينا

فقال المقوقس لعبادة: قد أبى القوم، فما ترى؟ فراجع صاحبك، على أن نعطيكم في مرتكم هذه ما تمنيتم .وتنصرفون

فقام عبادة وأصحابه، فقال المقوقس لمن حوله عند ذلك: أطيعوني، وأجيبوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث، فوالله مالكم بهم طاقة، وإن لم

.تجيبوا إليها طائعين لتجيبنهم إلى ما هو أعظم منها كارهين

فقالوا: أي خصلة يجيبهم إليها؟ قال: إذاً أخبركم . . . أما دخولكم في غير دينكم، فلا آمركم به؛ وأما قتالهم فأنا أعلم أنكم لن تقدروا

عليهم، ولن تصبروا صبرهم، ولا بد من الثالثة؛ قالوا: فنكون لهم عبيداً أبداً؟ قال: نعم تكونون عبيداً مسلطين في بلادكم، آمنين على أنفسكم

وأموالكم وذراريكم خير لكم من أن تموتوا عن آخركم، وتكونوا عبيداً وتباعوا وتمزقوا في البلاد مستعبدين أبداً، أنتم وأهلوكم وذراريكم. قالوا:

فالموت أهون علينا.

وأمروا بقطع الجسر بين الفسطاط والجزيرة، وبالقصر من جمع الروم والقبط جمع كثير - فألح المسلمون عند ذلك بالقتال على من في القصر

حتى ظفروا بهم، وأمكن الله منهم، فقتل منهم خلق كثير، وأسر من أسر، وانحازت السفن كلها إلى الجزيرة، وصار المسلمون قد أحدق بهم الماء

ن كل وجه، لا يقدرون على أن ينفذوا ويتقدموا نحو الصعيد، ولا إلى غير ذلك من المدائن والقرى، والمقوقس يقول لأصحابه: ألم أعلمكم هذا

وأخافه عليكم؟ ما تنتظرون! فوالله لتجيبهم إلى ما أرادوا طوعاً أو لتجيبنهم إلى ما هو أعظم منه كرهاً، فأطيعوني من قبل أن تندموا.

فلما رأوا منهم ما رأوا، وقال لهم المقوقس ما قال: أذعنوا بالجزيرة، ورضوا بذلك على صلحٍ يكون بينهم يعرفونه. وأرسل المقوقس إلى

عمرو بن العاص: إني لم أزل حريصاً على أجابتك إلى خصلة من تلك الخصال التي أرسلت إلي بها، فأبى ذلك على من حضرني من الروم

والقبط، فلم يكن لي أن أفتات عليهم، وقد عرفوا نصحي لهم، وحبي صلاحهم، ورجعوا إلى قولي، فأعطني أماناً أجتمع أنا وأنت في نفر من

أصحابي ونفر من أصحابك، فان استقام الأمر بيننا تم لنا ذلك جميعاً؛ وإن لم يتم رجعنا إلى ما كنا عليه.

فاستشار عمرو أصحابه في ذلك فقالوا: لا نجيبهم إلى شيء من الصلح ولا الجزية، حتى يفتح الله علينا، ةتصير كلها لنا فيئاً وغنيمة، كما

صار لنا القصر وما فيه، فقال عمرو: قد علمتم ما عهد إلى أمير المؤمنين في عهده، فإن إجابوا إلى خصلة من الخصال الثلاث التي عهد إلي

فيها أجبتهم إليها، وقبلت منهم، مع ما قد حال الماء بيننا وبين ما نريد من قتالهم. فاجتمعوا على عهد بينهم، واصطلحوا على أن يفرض على

جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط ديناران عن كل نفس، شريفهم ووضيعهم، ومن بلغ الحلم منهم؛ ليس على الشيخ الفاني، ولا على

الصغير الذي لم يبلغ الحلم، ولا على النساء شيء، وعلى أن للمسلمين عليهم النزل لجماعتهم حيث نزلوا، ومن نزل عليه ضيف واحد من

المسلمين أو أكثر من ذلك، كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام، وأن لهم أرضهم وأموالهم، لا يعرض لهم في شيء منها.

فشرط هذا كله على القبط خاصة، وأحصوا عدد القبط يؤمئذ خاصة من بلغ منهم الجزية، وفرض عليهم الديناران، ورفع ذلك عرفاؤهم بالأيمان

المؤكدة، فكان جميع من أحصى يومئذ بمصر فيما أحصوا وكتبوا أكثر من ستة آلاف ألف نفس؛ فكانت فريضتهم يومئذ اثني عشر ألف ألف دينار

.في كل سنة. وقيل: بلغت غلتهم ثمانية آلاف ألف

وشرط المقوقس للروم أن يتخيروا، فمن أحب منهم أن يقيم على مثل هذا أقام على هذا لازماً له، مفترضاً عليه ممن أقام بالإسكندرية وما حولها

من أرض مصر كلها، ومن أراد الخروج منها إلى أرض الروم خرج، وعلى أن للمقوقس الخيار في الروم خاصة؛ حتى يكتب إلى ملك الروم

.يعلمه ما فعل، فإن قبل ذلك ورضيه جاز عليهم؛ وإلا كانوا جميعاً على ما كانوا عليه

وكتبوا به كتاباً، وكتب المقوقس إلى ملك الروم يعلمه على وجه الأمر كله. فكتب إليه ملك الروم يقبح رأيه ويعجزه، ويرد عليه ما فعل، ويقول

في كتابه: إنما من العرب اثنا عشر ألفاً، وبمصر من بها من كثرة عدد القبط ما لا يحصى؛ فإن كان القبط كرهوا القتال، وأحبوا أداء الجزية

إلى العرب واختاروهم علينا، فإن عندك بمصر من الروم وبالإسكندرية، ومن معك أكثر من مائة ألف، معهم العدة والقوة. والعرب وحالهم

وضعفهم على ما قد رأيت، فعجزت عن قتالهم، ورضيت أن تكون أنت ومن معك في حال القبط أذلاء، ألا تقاتلهم أنت ومن معك من الروم حتى

تموت، أو تظهر عليهم؛ فإنهم على قدر كثرتكم وقوتكم، وعلى قدر قلتهم وضعفهم كأكلة، فناهضهم القتال، ولا يكون لك رأي غير ذلك. وكتب

.ملك الروم بمثل ذلك كتاباً إلى جماعة الروم

فقال المقوقس لما أتاه كتاب ملك الروم: والله إنهم على قلتهم وضعفهم أقوى وأشد منا على كثرتنا وقوتنا، إن الرجل الواحد منهم ليعدل مائة

منا؛ وذلك أنهم قوم الموت أحب إليهم من الحياة، يقاتل الرجل منهم وهو مستقل، ويتمنى ألا يرجع إلى أهله وبلده ولا ولده، ويرون أن لهم أجراً

عظيماً فيمن قتلوا منا، ويقولون: إنهم إن قتلوا دخلوا الجنة، وليس لهم رغبة في الدنيا، ولا لذة إلا على قدر بلغة العيش من الطعام واللباس،

ونحن قوم نكره الموت، ونحب الحياة ولذتها، فكيف نستقيم نحن وهؤلاء، وكيف صبرنا معهم! واعلموا معشر الروم؛ إني والله لا أخرج مما

دخلت فيه، وصالحت العرب فيه؛ وإني لأعلم أنكم سترجعون غداً إلى قولي ورأيي، وتتمنون أن لو كنتم أطعتموني؛ وذلك أني قد عاينت ورأيت،

وعرفت ما لم يعان الملك ولم يره، ولم يعرفه، ويحكم! أما يرضى أحدكم أن يكون آمناً في دهره على نفسه وماله وولده، بدينارين في السنة!

ثم أقبل المقوقس إلى عمرو بن العاص، فقال له: إن الملك قد كره ما فعلت وعجزني، وكتب إلي وإلى جماعة الروم ألا نرضى بمصالحتك،

وأمرهم بقتالك حتى يظفروا بك أو تظفر بهم؛ ولم أكن لأخرج مما دخلت فيه وعاقدتك عليه؛ وإنما سلطاني على نفسي ومن أطاعني، وقد تم

الصلح فيما بينك وبينهم؛ ولم يأت من قبلهم نقض ، وأنا متم لك على نفسي، والقبط متمون لك على الصلح الذي صالحتهم عليه وعاهدتهم؛ وأما

الروم فأنا منهم برئ، وأنا أطلب منك أن تعطيني ثلاث خصال.

قال له عمرو: ما هن؟ قال: لا تنقضن بالقبط، وأدخلني معهم وألزمني ما لزمهم، وقد اجتمعت كلمتي وكلمتهم على ما عاهدتك، فهم متمون

لك على ما تحب. وأما الثانية فإن سألك الروم بعد اليوم أن تصالحهم فلا تصالحهم حتى تجعلهم فيئاً وعبيداً، فإنهم أهل لذلك؛ فإني نصحتهم

فاستغشوني، ونظرت لهم فاتهموني. وأما الثالثة، أطلب إليك إن أنا مت، أن تأمرهم أنم يدفنوني في أبي يحنس بالإسكندرية.

فأنعم له عمرو بن العاص، وأجابه إلى ما طلب، على أن يضمنوا له الجسرين جميعاً، ويقيموا له الإنزال والضيافة والأسواق والجسور؛ ما بين

الفسطاط إلى الإسكندرية. ففعلوا وصارت لهم القبط أعواناً، كما جاء في الحديث، واستعدت الروم وجاشت، وقدم عليهم من أرض الروم جمع

عظيم.

ثم التقوا بسلطيس، فاقتتلوا بها قتالاً شديداً، ثم هزمهم الله، ثم التقوا بالكريون، فاقتتلوا بها بضعة عشر يوماً.

وكان عبد الله بن عمرو على المقدمة، وحامل اللواء يومئذ وردان مولى عمرو.

وصلى عمرو يومئذ صلاة الخوف، ثم فتح الله يومئذ على المسلمين، وقتل منهم المسسلمون مقتلة عظيمة، وابتعوهم حتى بلغوا الإسكندرية،

فتحصن بها الروم، وكانت عليهم حصون مبنية لا ترام، حصن دون حصن، فنزل المسلمون ما بين حلوة إلى قصر فارس، إلى ما وراء ذلك؛

ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا إليه من الأطعمة والعلوفة، ورسل ملك الروم تختلف إلى الإسكندرية في المراكب بمادة الروم، وكان

ملك الروم يقول: لئن ظفرت العرب على الإسكندرية، إن ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم؛ لأنه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس

الإسكندرية؛ وإنما كان عيد الروم حين غلبت العرب على الشام بالإسكندرية، فقال الملك: لئن غلبوا على الإسكندرية لقد هلكت الروم، وانقطع

ملكها. فأمر بجهازه ومصلحته لخروجه إلى الإسكندرية، حتى يباشر قتالها بنفسه إعظاماً لها، وأمر ألا يتخلف عنه أحد من الروم، وقال: ما

بقي للروم بعد الإسكندرية حرمة، فلما فرغ من جهازه صرعه الله فأماته، وكفى الله المسلمين مؤنته وكان موته في سنة تسع عشرة.

وقال الليث بن سعد: مات هرقل في سنة عشرين، فكسر الله بموته شوكة الروم، فرجع كثير ممن قد توجه إلى الإسكندرية، وانتشرت العرب

عند ذلك وألحت بالقتال على أهل الإسكندرية، فقاتلوهم قتالاً شديداً، وحاصروا الإسكندرية تسعة أشهر بعد موت هرقل، وخمسة قبل ذلك، وفتحت

يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين.

وحدثنا عبد الملك عن ابن لهيعة، عن أبي تميم الجيشاني، قال: كتب عمر ابن الخطاب رضي الله عنه: □ أما بعد؛ فإنه بلغني أنك اتخذت منبرا ترقى به على رقاب المسلمين، وأما حسبك أن تقوم قائما والمسلمون تحت عقبيك! فعزمت عليك لما كسرته.

ذكر أول من بنى بمصر غرفة □

قال ابن عبد الحكم: حدثنا شعيب بن الليث وعبد الله بن صالح، عن الليث، عن يزيد بن أبي حبيب، قال: أول من بنى غرفة بمصر خارجة بن حذافة، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فكتب إلى عمرو بن العاص: سلام عليك، أما بعد فإنه بلغني أن خارجة بن حذافة بنى غرفة؛ وأراد أن يطلع على عورات جيرانه؛ فإذا أتاك كتابي هذا فاهدمها إن شاء الله. والسلام.

ذكر حمام الفأر □

اختط عمرو بن العاص الحمام التي يقال لها حمام الفار، لأن حمامات الروم كانت ديماسات كبار، فلما بني هذا الحمام، ورأوا صغره، قالوا: من يدخل هذا! هذا حمام الفار.

حدثنا عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الله سيفتح عليكم بعدي □ مصر، فاستوصوا بقبطها خيراً، فإن لكم منهم صهراً وذمة"، فعفوا أيديكم وفروجكم، وغضوا أبصاركم، ولا أعلمن ما أتى رجل قد أسمن جسمه، وأهزل فرسه. واعلموا أني متعرض بالخيل كاعتراض الرجال؛ فمن

أهزل فرسه من غير علة حططت من فريضته قدر ذلك. واعلموا أنكم في رباط إلى يوم القيامة، لكثرة الأعداء حولكم وتشوق قلوبهم إليكم وإلى دياركم، معدن الزرع والمال، والخير الواسع والبركة النامية.

ذكر حفر خليج أمير المؤمنين □

قال ابن عبد الحكم: حدثنا عبد الله بن صالح وغيره، عن الليث بن سعد، أن الناس بالمدينة أصابهم جهد شديد في خلافة عمر عام الرمادة، فكتب إلى عمرو بن العاص وهو بمصر: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص: سلام عليك؛ أما بعد؛ فلعمري يا عمرو ما تبالي إذا شبعت أنت ومن معك، أن أهلك أنا ومن معي؛ فياغوثاه، ثم ياغوثاه! يردد قوله.

فكتب إليه عمرو بن العاص: لعبد الله عمر أمير المؤمنين، من عبد الله عمرو بن العاص؛ أما بعد فيا لبيك ثم يا لبيك! قد بعثت إليك بعيرٍ أولها عندك وآخرها عندي. والسلام عليك ورحمة الله.

فبعث إليه بعيرٍ عظيمة، فكان أولها بالمدينة وآخرها بمصر، يتبع بعضها بعضاً، فلما قدمت على عمر وسع بها على الناس.

وكتب إلى عمرو بن العاص يقدم عليه هو وجماعة من أهل مصر، فقدموا عليه، فقال عمر: يا عمرو؛ □ إن الله قد فتح على المسلمين مصر، وهي كثيرة الخير والطعام، وقد ألقى في روعي - لما أحببت من الرفق بأهل الحرمين، والتوسعة عليهم - أن أحفر خليجاً من نيلها حتى يسيل في البحر، فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام إلى المدينة ومكة؛ فإن حمله على الظهر يبعد ولا نبلغ معه ما نريد؛ فانطلق أنت وأصحابك فتشاوروا في ذلك حتى يعتدل فيه رأيكم.

فانطلق عمرو، فأخبر بذلك من كان معه من أهل مصر فثقل ذلك عليهم، وقالوا: نتخوف أن يدخل في هذا ضرر على أهل مصر، فنرى أن تعظم ذلك على أمير المؤمنين وتقول له: هذا أمر لا يعتدل، ولا يكون، ولا نجد إليه سبيلاً.

فرجع عمرو بذلك إلى عمر، فضحك حين رآه، وقال: والذي نفسي بيده، لكأني أنظر إليك يا عمرو وإلى أصحابك حين أخبرتهم بما أمرت به من حفر الخليج، فثقل ذلك عليهم، وقالوا: يدخل في هذا ضرر على أهل مصر؛ فنرى بأن تعظم ذلك على أمير المؤمنين، وتقوله له: هذا لا يعتدل، ولا نجد إليه سبيلاً.

فعجب عمرو من قول عمر، وقال: صدقت والله يا أمير المؤمنين، لقد كان الأمر على ما ذكرت، فقال عمر: انطلق يا عمرو بعزيمة مني حتى نجد في ذلك، ولا يأتي عليك الحول حتى تفرغ منه إن شاء الله تعالى. فانصرف عمرو، وجمع لذلك من الفعلة ما بلغ منه ما أراد، ثم احتفر الخليج الذي في حاشية الفسطاط، الذي يقال له خليج أمير المؤمنين، فساقه من النيل إلى القلزم؛ فلم يأت الحول حتى فرغ، وجرت فيه السفن، فحمل فيه ما أراد من الطعام إلى المدينة ومكة، فنفع الله بذلك أهل الحرمين، وسمى خليج أمير المؤمنين.

ثم لم يزل يحمل فيه الطعام، حتى حمل فيه بعد عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه، ثم ضيعه الولاة بعد ذلك، فترك وغلب عليه الرمل، فانقطع، وصار منتهاه إلى ذنب التمساح من ناحية طحا القلزم.

حدثنا أبي، سفيان بن عيينة، عن ابن أبي بحيح، عن أبيه، أن رجلاً أتى عمرو بن العاص من قبط مصر، □ قال: أرأيتك إن دللتك على مكان تجري فيه السفن، حتى تنتهي إلى مكة والمدينة، أتضع عني الجزية وعن

أهل بيتي؟ قال: نعم، فكتب إلي عمر، إليه أن افعل؛ فلما قدمت السفن الحجاز خرج عمر حاجاً أو معتمراً"، فقال للناس: سيروا بنا ننظر إلى السفن التي سيرها الله إلينا من أرض فرعون.

□ وذلك في خلافة عثمان رضي الله عنه، قال ابن عبد الحكم: حدثنا عثمان بن صالح، عن الليث بن سعد، قال: عاش عمر بن الخطاب بعد فتح مصر ثلاث سنين، قدم عليه فيها عمرو قدمتين، استخلف في إحداهما زكريا بن جهم العبدري على الجند، ومجاهد ابن جبير مولى بني نوفل على الخراج، فسأله عمر: من استخلفت؟ فذكر له مجاهد بن جبير، فقال عمر: مولى ابنة غزوان؟ قال: نعم؛ إنه كاتب، فقال عمر: إن القلم ليرفع صاحبه.

■ أخرج ابن عبد الحكم، عن أنس، قال: أتى رجل من أهل مصر إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، عائذ بك من الظلم، قال: عذت معاذا، قال: سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته، فجعل يضربني بالسوط، ويقول: أنا ابن الأكرمين! فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم بابنه معه. فقدم فقال عمر: أين المصري؟ خذ السوط فاضرب، فجعل يضربه بالسوط ويقول عمر: اضرب ابن الأكرمين. ثم قال للمصري: ضعه على صلعة عمرو، قال: يا أمير المؤمنين، إنما ابنه الذي ضربني وقد أشتفيت منه، فقال عمر لعمرو: مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا! قال: يا أمير المؤمنين، لم أعلم ولم يأتيني.

□ قال ابن سعد: كان يقال له مغيرة الرأي. وقال الشعبي: القضاة أربعة: أبو بكر، وعمر، وابن مسعود، وأبو موسى. والزهاد أربعة: معاوية، وعمر، والمغيرة، وزياد. وقال: سمعت المغيرة يقول: ما غلبني أحد. وقال قبيصة بن جابر: صحبت المغيرة بن شعبة، فلو أن مدينةً لها ثمانية أبواب لا يخرج منها إلا بمكر، لخرج المغيرة من أبوابها كلها. وكانت إحدى عينيه أصيبت يوم اليرموك. وقيل: بل نظر إلى الشمس وهي كاسفة فذهب ضوء عينيه.

■ قال ابن السبكي في الطبقات الكبرى: له من الفتوحات التي خلصها من أيدي الفرنج قلعة أيلة، طبرية، عكا، القدس، الخليل، الكرك، الشوبك، نابلس، عسقلان، بيوت، صيدا، بيسان، غزة، لد، حيفا، صفورية، معليا، الفولة، الطور، إسكندرونة، هفوس، يافا، أرسوف، قيسارية، جبل، نبل، معليكه، عفر بلا، اللجون، لستمة، ياقون، مجدل يابا، تل الصافية، بيت نوبا، الطرون، الجيب البيرة، بيت لحم، ريحاء، قرا، واحصر الدير، دمرا، قلقيلية، صرير الزيت، الوعر، الهرمس، تفليسا، العازرية، تفرع، الكرك، مجدل، الحارغير في جبل عاملة، الشقيف، سبسطية ويقال بها قبر زكريا، وجبيل، وكوكب، وأنطرطوس واللاذقية، وبكسرائيل، صهيون، جبلة، قلعة العبد، قلعة الجماهرية، بلاطنس، الشغر، بكاس، وسمر سامية، بزرية، ودربساك، وبغراس، وصفد.

وله مصافات يطول شرحها.

وافتتح كثيرا من بلاد النوبة من يد النصارى، وكانت مملكته من المغرب إلى تخوم العراق ومعها اليمن والحجاز، فملك ديار مصر بأسرها مع ما انضم إليها من بلاد المغرب والشام بأسرها مع حلب وما والاها، وأكثرها ديار ربيعة وبكر والحجاز بأسره واليمن بأسره، ونشر العدل في الرعية، وحكم بالقسط بين البرية، وبنى المدارس والخوانق، وأجرى الأرزاق على العلماء والصلحاء، مع الدين المتين والروع والزهد والعلم، وكان يحفظ القرآن والتنبيه والحماسة. وهو الذي ابتنى قلعة القاهرة على جبل المقطم التي هي الآن دار السلاطين، ولم يكن السلاطين قبلها غلا دار الوزارة بالقاهرة. وفتح بلاد المسلمين حران، وسروج، والرها والرقة، والبيرة، وسنجار، ونصيبين، وآمد. وملك حلب، والمواريخ وشهرز. وحاصر الموصل إلى أن دخل

صاحبها تحت طاعته، وفتح عسكره طرابلس الغرب وبرقة من بلاد المغرب، وكسر عسكر تونس، وخطب بها لبني العباس. ولو لم يقع الخلف بين عسكره الذين جهزهم إلى المغرب لملك الغرب بأسره، ولم يختلف عليه مع طول مدته أحد من عسكره على كثرتهم. وكان الناس يأمنون ظلمه لعدله، ويرجون رفده لكثرته، ولم يكن لمبطل ولا لصاحب هزل عنده نصيب. وكان إذا قال صدق، وإذا وعد وفى، وإذا عاهد لم يخن.

وكان رقيق القلب جداً، ورحل إلى الإسكندرية بولديه الأفضل والعزيز لسماع الحديث من السلفى، ولم يعهد ذلك لملك بعد هارون الرشيد، فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون إلى الإمام مالك لسماع الموطأ. هذا كله كلام السبكي في الطبقات.

قال: ومن الكتب والمراسيم عنه في النهى عن الخوض في الحرف والصوت؛ وهو من إنشاء القاضي الفاضل: (لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض . . .) الآية خرج أمرنا إلى كل قائم في صف، أو قاعد في إمام وخلف؛ ألا نتكلم في الحرف بصوت، ولا في الصوت بحرف، ومن تكلم بعدها كان الجدير بالتكليم، (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم)، ويسأل النواب القبض على مخالفي هذا الخطاب، وبسط العذاب، ولا يسمع لمتفقه في ذلك تحرير جواب، ولا يقبل عن هذا الذنب متاب. ومن رجع إلى هذا الإيراد بعد الإعلان؛ وليس الخبر كالعيان، رجع أخسر من صفقة أبي غبشان، وليعلن بقراءة هذا الأمر على المنابر، وليعلم به الحاضر والبادي ليستوي فيه البادي والحاضر، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

■ قال العماد: وقد كان للمسلمين لصوص يدخلون إلى خيام الفرنج فيسرقون، فاتفق أن بعضهم أخذ صبياً رضيعاً من مهده ابن ثلاثة أشهر، فوجدت عليه أمه وجداً شديداً، واشتكت إلى ملوكهم؛ فقالوا لها: إن سلطان المسلمين رحيم القلب، فأذهبي إليه، فجاءت إلى السلطان صلاح الدين فبكت، وشكت أمر ولدها، فرق لها رقة شديدة، ودمعت عيناه، فأمر بإحضار ولدها، فإذا هو بيع في السوق، فرسم بدفع ثمنه إلى المشتري، ولم يزل واقفا حتى جيء بالغلام، فدفعه إلى أمه، وحملها على فرس إلى قومها مكرمة.

واستمر السلطان صلاح الدين على طريقته العظيمة؛ من مثابرة الجهاد للكفار، ونشر العدل، وإبطال المكوس والمظالم، وإجراء البر والمعروف إلى أن أصيب به المسلمون، وانتقل بالوفاة إلى رحمة الله تعالى ليلة الأربعاء سادس عشري صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة، وله من العمر سبع وخمسون سنة، وعمل الشعراء فيه مراثي كثيرة، من ذلك قصيدة للعماد الكاتب، مائتان وثلاثون بيتا أولها:

شمل الهدى والملك عم شتاته والدهر ساء وأقلعت حسناته بالله أين الناصر الملك الذي لله خالصة صفت نياته أين الذي ما زال سلطاناً لنا يرجى نداه وتتقي سطواته أين الذي شرف الزمان بفضله وسمت على الفضلاء تشريفاته أين الذي عنت الفرنج لبأسه ذلا ومنها أدركت ثاراته أغلال أعناق العدا أسيافه أطواق أجياد الورى مناته قال العماد وغيره: لم يترك في خزانته من الذهب سوى دينار واحد صوري وستة وثلاثين درهما، ولم يترك داراً ولا عقاراً ولا مزرعة، ولا شيئاً من أنواع الأملاك، وترك سبعة عشر ولدا ذكرا وابنة واحدة.

وكان متدنياً في مأكله ومشربه ومركبه وملبسه، فلا يلبس إلا القطن والكتان والصوف، وكان يواظب الصلاة في الجماعة، ويواظب سماع الحديث...

قال الحافظ شرف الدين الدمياطي في معجمه: أنشدنا أبو زكريا يحيى بن يوسف الصرصري لنفسه ■ ببغداد، وقد ورد كتاب من ديار مصر إلى الديوان بانتصار المسلمين على الروم وفتح ثغر دمياط:

أتانا كتاب فيه نسخة نصرة ألخص معناها لذي فطن جلد يقول ابن أيوب المعظم حامداً لرب السماء الواحد الصمد الفرد أمرنا بحمد الله جل ثناؤه وعز أرى دفريس في طالع السعد تركنا من الأعلاج بالسيف مطعناً ثلاثين ألفا للقشاعم والأسد ومنهم ألوف أربعون بأسرنا فكم ملك في قبضنا صار كالعبد ودمياط عادت مثل ما بدأت لنا ويافا ملكناها، فيالك من جد! ونحن على أن نملك السيف كله على ثقة ممن له خالص الحمد ألا يا بن أيوب لقد نلت غاية من النصر ضاهت ما بلغت من المجد قهرت فرنج الروم قهراً سماعه يقسم ذل الرعب في الترك والسغد وما نلت أسباب العلا عن كلالة ولم يأتك المجد المؤثل من بعد ولكن ورثت الملك والفضل عن أب جليل وعن عم نبيل وعن جد لجأت إلى ركن شديد ومعقل منيع وكنز جامع جوهر المجد إلى فاتح باب الرشاد ببعثه وخاتم ميثاق النبوة والعهد إلى الشافعي المنجي الوجيه محمد فأحسنت في صدق التوجه والقصد فمهما تجد من كيد ضد مضاغن بوجه به تظفر وتنصر على الضد فلا صد عن عز سوابق مجدكم كلال ولا غالى الكلول شبا الحد إلى أن تذيق الروم في عقر دارهم زعافا وتسقى المؤمنين جنى الشهد

قال: وقفت على نسخة تقليد من الخليفة المنصور أبي جعفر المستنصر بالله أمير المؤمنين بخط وزيره ■ أبي الأزهر أحمد بن الناقد في رجب سنة نيف وعشرين وستمائة للملك الكامل.

الحمد لله الذي اطمأنت القلوب بذكره، ووجب على الخلائق جزيل حمده وشكره ووسعت كل شيء رحمته، وظهرت في كل أمر حكمته، ودل على وحدانيته بعجائب ما أحكم صنعاً وتدبيراً، وخلق كل شيء فقدره تقديرا، ممد الشاكرين بنعمائه التي لا تحصى عددا، وعالم الغيب الذي لا يظهر على غيبه أحداً؛ لا معقب لحكمه في الإبرام والنقض، ولا يئوده حفظ السموات والأرض، تعالى ان يحيط به الضمير، وجل ان يبلغ وصفه البيان والتفسير؛ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "من نزل منزلا يخيف فيه المشركين ويخيفونه، كان له كأجر ساجد لا □ يرفع رأسه إلى يوم القيامة، واجر قائم لا يقعد إلى يوم القيامة، وأجر صائم لا يفطر". وقال صلى الله عليه وسلم: "غدوه في سبيل الله أو روحة خير مما طلعت عليه الشمس"، هذا قوله صلى الله عليه وسلم في حق من سمع هذه المقالة فوقف لديها، فكيف بمن كان قال عليه السلام: "ألا أخبركم بخير الناس! ممسك بعنان فرسه في سبيل الله، كلما سمع هيمة طار إليها".

ولما أخذ التتار بغداد، وقتل الخليفة، وجرى ما جرى، أقامت الدنيا بلا خليفة ثلاث سنين ونصف سنة؛ ■ وذلك من يوم الأربعاء رابع عشر صفر سنة ست وخمسين، وهو يوم قتل الخليفة المستعصم رحمه الله إلى أثناء سنة تسع وخمسمائة؛ فلما كان في رجب من هذه السنة قدم أبو القاسم أحمد بن أمير المؤمنين الظاهر بأمر الله وهو عم الخليفة المستعصم وأخو المستنصر، وقد كان معتقلاً ببغداد ثم أطلق، فكان مع جماعة من الأعراب بالعراق، ثم قصد الملك الظاهر حين بلغه ملكه، فقدم عليه الديار المصرية صحبة جماعة من أمراء الأعراب عشرة، منهم الأمير ناصر الدين مهنا وكان دخوله إلى القاهرة في ثاني رجب فخرج السلطان للقائه، ومعه القاضي تاج الدين والوزير والعلماء والأعيان والشهود والمؤذنون فتلقوه، وكان يوماً مشهودا، وخرج اليهود بتوراتهم والنصارى بإنجيلهم، ودخل من باب النصر بأبهة عظيمة.

فلما كان يوم الاثنين ثالث عشر رجب، جلس السلطان والخليفة في الإيوان بقلعة الجبل والقاضي والوزير والأمراء على طبقاتهم، وأثبت نسب الخليفة على القاضي تاج الدين؛ فلما ثبت قام قاضي القضاة قائماً، وأشهد على نفسه بثبوت النسبة الشريفة. ثم كان أول من بايعه شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام، ثم السلطان الملك الظاهر، ثم القاضي تاج الدين، ثم الأمراء والدولة، وركب في دست الخلافة بمصر والأمراء بين يديه، والناس حوله، وشق القاهرة، وكان يوما مشهوداً ولقب المستنصر بالله بلقب أخيه، وخطب له على المنابر، وضرب أسمه على السكة، وكتبت بيعته إلى الآفاق، وأنزل بقلعة الجبل هو وحشمه وخدمه، فلما كان يوم الجمعة سابع عشر رجب، ركب في أبهة السواد، وجاء إلى الجامع بالقلعة فصعد المنبر، وخطب خطبة ذكر فيها شرف بني العباس، ودعا للسلطان، ثم نزل فصلى بالناس، وكان وقتا حسنا ويوما مشهودا.

ثم في يوم الاثنين رابع شعبان ركب الخليفة والسلطان والقاضي والوزراء والأمراء، واهل الحل والعقد إلى خيمة عظيمة قد ضربت ظاهر القاهرة؛ فالبس الخليفة السلطان بيده خلعة سوداء وعمامة سوداء، وطوقاً في عنقه من ذهب، وقيداً من ذهب في رجليه. وفوض إليه الأمور في البلاد الإسلامية وما سيفتحه من بلاد الكفر، ولقبه بقسيم أمير المؤمنين؛ وصعد فخر الدين بن لقمان رئيس الكتاب منبرا، فقرأ عليه تقليد السلطان، وهو من إنشائه وصورته:

ثم طلب الخليفة من السلطان أن يجهزه إلى بغداد، فرتب له جندا، وأقام له كل ما يحتاج إليه، وعزم عليه ألف ألف دينار. وسار السلطان صحبته إلى دمشق، فدخلاها يوم الاثنين سابع ذي القعدة، وصليا فيها الجمعة. ثم رجع السلطان إلى مصر وسار الخليفة ومعه ملوك الشرق، ففتح الحديثة ثم هيت، فجاءه عسكر من التتار فتصافوا، فقتل من المسلمين جماعة وعدم الخليفة، فلا يدري: أقتل أم هرب! وذلك في ثالث المحرم سنة ستين. فكانت خلافته دون ستة أشهر.

وكان ممن شهد الوقعة معه وهرب فيمن هرب أبو العباس أحمد بن الأمير أبي علي الحسن القبي بن الأمير علي بن الأمير أبي بكر أمير المؤمنين المسترشد بالله فقصد الرحبة، وجاء إلى عيسى بن مهنا، فكاتب فيه الملك الظاهر فطلبه، فقدم القاهرة ومعه ولده وجماعة، فدخلها في سابع عشري ربيع الآخر فتلقاه السلطان، وأظهر السرور به، وأنزله بقلعة الجبل، وأغدق عليه، واستمر بقية العام بلا مبايعة، والسكة تضرب باسم المستنصر المقتول أول العام.

فلما كان يوم الخميس ثامن المحرم سنة إحدى وستين جلس السلطان مجلسا عاما، وجاء أبو العباس المذكور راكباً إلى الإيوان الكبير، وجلس مع السلطان، وذلك بعد ثبوت نسبه، فقرئ نسبه على الناس، ثم أقبل عليه السلطان وبايعه بإمرة المؤمنين. ثم اقبل هو على السلطان، وقلده الأمور، ثم بايعه الناس على طبقاتهم، ولقب الحاكم بأمر الله؛ وكان يوما مشهودا. (هذا الحاكم بأمر الله العباسي وهو غير الحاكم بأمر الله العبيدي) .

فلما كان يوم الخميس ثامن المحرم سنة إحدى وستين جلس السلطان مجلسا عاما، وجاء أبو العباس المذكور راكباً إلى الإيوان الكبير، وجلس مع السلطان، وذلك بعد ثبوت نسبه، فقرئ نسبه على الناس، ثم أقبل عليه السلطان وبايعه بإمرة المؤمنين. ثم اقبل هو على السلطان، وقلده الأمور، ثم بايعه الناس على طبقاتهم، ولقب الحاكم بأمر الله؛ وكان يوما مشهودا.

فلما كان من الغد يوم الجمعة خطب الخليفة بالناس، فقال في خطبته: الحمد لله الذي أقام لآل العباس ركناً وظهيراً، وجعل لهم من لدنه سلطانا نصيرا، أحمده على السراء والضراء، وأستعينه على شكر ما اسبغ من النعماء، وأستنصره على الأعداء، وأشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه نجوم الاهتداء، وأئمة الاقتداء [لاسيما] الأربعة الخلفاء، وعلى العباس عمه، وكاشف غمه، وعلى السادة الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، وعلى بقية الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أيها الناس، اعلموا أن الإمامة فرض من فروض الإسلام، والجهاد محتوم على جميع الأنام، ولا يقوم علم الجهاد، إلا باجتماع كلمة العباد، ولا سبيت الحرم إلا بانتهاك المحارم، ولا سفكن الدماء إلا بارتكاب المآثم، فلو شاهدتم أعداء الإسلام حين دخلوا دار السلام، واستباحوا الدماء والأموال، وقتلوا الرجال والأطفال [وسبوا الصبيان والبنات، وأيتموهم من الآباء والأمهات]، وهتكوا حرم الخلافة والحريم، وأذاقوا من استبقوا العذاب الأليم؛ فارتفعت الأصوات بالبكاء والعويل، وعلت الضجات من هول ذلك اليوم الطويل؛ فكم من شيخ خضبت شيبته بدمائه، وكم من طفل بكى فلم يرحم لبكائه! فشمروا ساق الاجتهاد في إحياء فرض الجهاد.

فاتقوا الله ما استطعتم، واسمعوا وأطيعوا، وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون)،) فلم تبق معذرة في القعود عن أعداء الدين، والمحاماة عن المسلمين.

وهذا السلطان الملك الظاهر، السيد الأجل العالم العادل المجاهد المؤيد، ركن الدنيا والدين، قد قام بنصر الإمامة عند قلة الأنصار، وشرد جيوش الكفر بعد أن جاسوا خلال الديار، فأصبحت البيعة باهتمامه منتظمة العقود، والدولة العباسية به متكاثرة الجنود.

فبادروا عباد الله إلى شكر هذه النعمة، وأخلصوا نياتكم تنصروا، وقاتلوا أولياء الشيطان تظفروا، ولا يرد عنكم ما جرى؛ فالحرب سجال والعاقبة للمتقين. والدهر يومان والآخر للمؤمنين؛ جمع الله على التقوى أمركم، وأعز بالإيمان نصركم، واستغفر الله العظيم لي ولكم ولسائر المسلمين. فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

ثم خطب الثانية، ونزل فصلى بالناس، وكتب بيعته إلى الآفاق ليخطب له، وتكتب السكة باسمه.

قال أبو شامة: فخطب له بجامع دمشق وبسائر الجوامع يوم الجمعة سادس عشر المحرم.

قال ابن فضل الله: ونقش اسمه على السكة، وضرب بها الدينار والدرهم. قال: ثم خاف الظاهر عاقبة أمره، فاسكنه عنده في القلعة، وعند حريمه وخدمه وغلمانه، موسعاً عليه في النفقات والكساوي، يتردد إليه العلماء والقراء على أكمل ما يكون من أنواع الإكرام، وملاحظة جانب الإجلال والمهابة، ممنوعا من اجتماع أحد من أهل الدولة. ثم أسقط اسمه من سكة النقود، وأبقاه على المنابر.

ثم لاحظه الملك الأشرف خليل بن قلاوون أتم من تلك الملاحظة، ورعى لود نعمة الخلافة فيه حقها، من جميل المحافظة. انتهى.

قال غيره: وقد خطب بالقلعة مرة ثانية يوم الجمعة رابع شوال سنة تسعين بسؤال الملك الأشرف له في ذلك، وذكر في خطبة توليته السلطنة للأشرف. ثم خطب مرة ثالثة بالمنصورية بحضرة السلطان والقضاة، وحض

على غزو التتار واستنقاذ بلاد العراق من أيديهم؛ وذلك في ذي القعدة سنة تسعين. ثم خطب مرة رابعة في التاسع والعشرين من ربيع الأول سنة إحدى وتسعين، وحث على الجهاد والتنفير، وصلى بالناس الجمعة.

ورجع من الحج، فأقام بمنزله إلى أن مات ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الأولى سنة إحدى وسبعمائة، ■ ودفن بجوار السيدة نفيسة في قبة بنيت له.

وأشهد عليه أنه ولى الملك الناصر جميع ما ولاه والده، وفوضه إليه■.

ثم نزل إلى داره بالكبش، ونقش اسمه على سكة الدينار والدرهم. ثم رسم السلطان في جمادى الآخرة بأن ينتقل الخليفة وأولاده وجميع من يلوذ به إلى القلعة إكراما لهم. فنزلوا في دارين، وأجرى عليهم الرواتب الكثيرة، واستمر دهراً وهو والسلطان كالأخوين يلعبان بالأكرة، ويخرجان إلى السرحات وسافرا معا إلى غزوة التتار نوبة غازيين، حتى وشى الواشين بينهما، فتغير خاطر الناصر منه، وذلك في سنة ست وثلاثين.

فأمره أن ينتقل من القلعة إلى مناظر الكبش حيث كان أبوه ساكناً، ثم أمره أن يخرج إلى قوص، فيقيم بها وذلك في ثامن عشر ذي الحجة سنة سبع وثلاثين، فخرج إليها هو وأولاده وأهله، وهم قريب من مائة نفس، ورتب له على واصل المكارم أكثر مما كان له بمصر، وتوجع الناس لذلك كثيرا.

قال الحافظ أبن حجر: وكان يطول مدة خطبته له على المنابر؛ حتى في مدة إقامته بقوص، وأستمر بها إلى أن مات في شعبان سنة أربعين وسبعمائة، ودفن بها وقد عهد بالخلافة إلى ابنه أحمد وأشهد عليه أربعين عدلا، وأثبت ذلك على قاضي قوص.

فلما بلغ الناصر ذلك لم يلتفت إلى ذلك العهد، وطلب أبن أخي المستكفي إبراهيم أبن ولي العهد المستمسك بالله أبي بكر عبد الله محمد بن الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد وكان جده الحاكم عهد إلى ابنه محمد، ولقبه المستمسك بالله، فمات في حياته.

فعهد إلى ابنه إبراهيم هذا ظنا أنه يصلح للخلافة، فرآه غير صالح لما هو فيه من الانهماك في اللعب ومعاشرة الأرذال، فنزل عنه، وعهد إلى ولد صلبه المستكفي، وهو عم إبراهيم؛ وكان إبراهيم قد نازعه لما مات الحاكم، فلم يلتفت إلى منازعته اعتمادا على قول الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد، فأقام على ضغينته حتى كان هو السبب في الوقيعة بينه وبين عمه وبين الناصر، وجرى ما جرى.

فلم يمض الناصر عهد المستكفي لولده، وبايع إبراهيم هذا في يوم الاثنين ثالث رمضان، ولقب الواثق بالله، وراجع الناس السلطان في أمره، ووسموه بسوء السيرة، خصوصا قاضي القضاة عز الدين بن جماعة، فإنه جهد كل الجهد في صرف السلطان عنه، فلم يفعل؛ وما زال بهم حتى بايعوه.

ثم إن الله فجع الناصر بموت أعز أولاده الأمير أنوك، فكانت أول عقوباته ولم يمتع بالملك بعد وفاة المستكفي، فأقام بعده سنة وأياما، وأهلكه الله.

وقد قيل: إن وفاة المستكفي كانت سنة إحدى وأربعين، فعلى هذا لم يتم الحول على الناصر، حتى مات بعد ثلاثة أشهر؛ سنة الله فيمن مس أحداً من الخلفاء بسوء، فإن الله يقصمه عاجلا، وما يدخره له في الآخرة من العذاب أشد.

ثم إن الله انتقم من الناصر في أولاده فسلط عليهم الخلع والحبس والتشريد في البلاد والقتل، فجميع من تولى الملك من ذريته؛ إما أن يخلع عاجلا، وإما أن يقتل؛ فأول ولد تولى بعده، عوجل بخلعه ونفيه إلى قوص، حيث كان سير الخليفة، ثم قتل بها. وغالب من تولى من ذريته لم تطل مدته كما سيأتي.

وقد أقام الناصر في قوص نيفاً وأربعين سنة، وتولى من ذريته اثنا عشر نفرا، لم يتموا هذه المدة، بل عجلوا واحدا في إثر واحد، فما أشبههم إلا بملوك الفرس حيث قال الكاهن لكسرى لما سقطت من إيوانه أربع عشرة شرفة ليلة ولد النبي صلى الله عليه وسلم؛ يملك منكم أربعة عشر ملكا؛ ثم يذهب الملك منكم، فقال كسرى: إلى أن يمضي أربعة عشر ملكا تكون أمور وأمور! فانقرضوا في أقصر مدة، وكان آخرهم في زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه.

■ ولما حضر الناصر الوفاة ندم على ما فعل من مبايعة إبراهيم، فأوصى الأمراء برد العهد إلى ولي عهد المستكفي، فلما تسلطن ولده أبو بكر المنصور عقد مجلسا يوم الخميس حادي عشر ذي الحجة سنة إحدى وأربعين، وطلب الواثق إبراهيم وولي العهد أحمد أبن المستكفي والقضاة، وقال: من يستحق الخلافة شرعا؟ فقال أبن جماعة: إن الخليفة المستكفي المتوفي بمدينة قوص أوصى بالخلافة من بعده لولده أحمد، وأشهد عليه أربعين عدلا بمدينة قوص، وثبت ذلك عندي بعد ثبوته على نائبي بمدينة قوص.

فخلع السلطان الواثق حينئذ وبايع أحمد، وبايعه القضاة.

■ واستمر المتوكل في الخلافة إلى رجب سنة خمس وثمانين. فبلغ الظاهر برقوقاً أنه واطأ جماعة أن يقتلوه إذا لعب الأكرة، ويقوموا بنصرة الخليفة واستبداده بالأمر، وإن الخليفة ذكر أنه ما فوض إليه السلطنة إلا كرهاً، وأنه لم يسر في ملكه بالعدل. فاستدعى برقوق بالقضاة ليفتوه في الخليفة بشيء فامتنعوا، وقاموا عنه، فخلع هو الخليفة بقوته وسجنه بالقلعة. ثم طلب عمر ابن إبراهيم بن المستمسك بن الحاكم، وبايعه بالخلافة ولقب الواثق بالله. ثم يف ذي القعدة من السنة، أخرج المتوكل من السجن، وأقام بداره مكرماً، واستمر الواثق في الخلافة إلى أن مات يوم الأربعاء تاسع عشري شوال سنة ثمان وثمانين.

فكلم الناس برقوقاً في إعادة المتوكل، فأبى وأحضر أخا عمر زكريا الذي كان أينبك ولاه تلك الأيام البسيرة، فبايعه ولقب المعتصم بالله، فاستمر إلى يوم الخميس ثاني جمادى الأولى سنة إحدى وتسعين. فندم برقوق على ما صنع بالمتوكل، فخلع زكريا وأعاد المتوكل إلى الخلافة، وحلف القضاة كلا من الخليفة والسلطان للآخر على الموالاة والمناصحة. وأقام زكريا بداره إلى أن مات مخلوعا في جمادى الأولى سنة إحدى وثمانمائة. وقرئ تقليد المتوكل بالمشهد النفيسي في ثامن عشر الشهر بحضرة القضاة والأمراء، وقرر له السلطان داراً بالقلعة يسكنها، ويركب إلى داره بالمدينة متى شاء.

واستمر المتوكل في خلافته هذه إلى أن مات ليلة الثلاثاء ثامن عشري رجب سنة ثمان وثمانمائة.

قال المقريزي: وهو أول من أثرى من خلفاء مصر، وكثر ماله، ورزق أولادا كثيرة، يقال إنه جاء له مائة ولد، ما بين مولود وسقط، ومات عن عدة أولاد ذكور وإناث، ولي الخلافة منهم خمسة، ولا نظير لذلك؛ وأكثر اخوته ولوا الخلافة فيما تقدم، أربعة. واتفق للمتوكل هذا أنه عاد إلى الخلافة بعد خلعه مرتين، ولم يقع ذلك لأحد فيما تقدم إلا للمقتدر فقط.

■ ورأيت في بعض المجاميع ما نصه: قال أبن حبيب: وجدت في رسالة منسوبة إلى الحسن بن محمد بن عبد المنعم، قال: لما فتحت مصر عرف عمر بن الخطاب ما يلقى أهلها من الغلاء عن وقوف النيل عن مده

في مقياس لهم فضلا عن تقاصره، وإن فرط الاستشعار يدعوهم إلى الاحتكار، ويدعو الاحتكار إلى تصاعد الأسعار بغير قحط، فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص، يسأله عن شرح الحال،، فأجابه فقال عمرو: إني وجدت ما تروى به مصر حتى لا يقحط أهلها أربعة عشر ذراعا، والحد الذي يروي منه سائرها حتى يفضل عن حاجتهم ويبقى عندهم قوت سنة أخرى ستة عشر ذراعا، والنهايتين المخوفتين في الزيادة والنقصان- وهو الظمأ والاستبحار- اثنتا عشر ذراعا في النقصان وثماني عشرة ذراعا في الزيادة؛ هذا والبلد في ذلك محفور الأنهار، معقود الجسور، عندما تسلموه من القبط وخمير العمارة فيه.

فاستشار عمر بن الخطاب علي بن أبي طالب في ذلك، أن يكتب إليه أن يبني مقياسا، وان ينقص ذراعين على اثنتي عشرة ذراعا، وأن يقر ما بعدها على الأصل، وأن ينقص من ذراع بعد الستة عشر ذراعا إصبعين.

■ وقال بعضهم: كتب الخليفة جعفر المتوكل إلى مصر يأمر ببناء المقياس الجديد الهاشمي في الجزيرة سنة سبع وأربعين ومائتين؛ وكان الذي يتولى أمر المقياس النصارى، فورد كتاب أمير المؤمنين المتوكل في هذه السنة على بكار بن قتيبة قاضي مصر، بألا يتولى ذلك إلا مسلم يختاره؛ فاختار القاضي بكار لذلك الرداد عبد الله بن عبد السلام المؤدب، وكان محدثا فأقامه القاضي بكار لمراعاة المقياس، وأجرى عليه الرزق، وبقى ذلك في ولده إلى اليوم.

■ وقال صاحب المرآة: المقياس الظاهر الآن بناه المأمون، وقيل إنما بناه أسامة بن زيد التوخي في خلافة سليمان بن عبد الملك، ودثر فجدده المأمون. وبنى أحمد بن طولون مقياسين؛ أحدهما بقوص وهو قائم اليوم، والآخر بالجزيرة وقد انهدم.

في سنة أربع وثلاثين من الهجرة،قال سيف بن عمر: إن رجلا يقال له عبد الله بن سبأ كان يهوديا فأظهر الإسلام، وصار إلى مصر، فأوحى إلى طائفة من الناس كلاماً اخترعه من عند نفسه، مضمونه إنه كان يقول للرجل: أليس قد ثبت أن عيسى بن مريم سيعود إلى هذه الدنيا؟ فيقول الرجل: بلى، فيقول له: رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل منه، فما منع أن يعود إلى هذه الدنيا وهو أشرف من عيسى! ثم يقول: وقد كان أوصى إلى علي بن أبي طالب؛ فمحمد خاتم الأنبياء، وعلي خاتم الأوصياء. ثم يقول: فهو أحق بالأمر من عثمان، وعثمان معتد في ولايته ما ليس له. فأنكروا عليه، فأفتتن به بشر كثير من أهل مصر وكان ذلك مبدأ تألبهم على عثمان.

موجز حسن المحاضرة في أخبار ملوك مصر و القاهرة للعلامة جلال الدين السيوطي

مختارات من شعر قيس بن الملوح – مجنون ليلى

تنبيه :

قمت بنقل هذه الأشعار من مطبوعةٍ قديمة ولم أراعي في هذا النقل إلا النواحي الجمالية فلم أقم بالتثبت من صحة نسبة جميع هذه الأشعار إلى قيس بن الملوح كما أني قمت بحذف الأبيات الشعرية التي لم أجدها جميلة من وجهة نظرٍ شخصية بحتة.

أمر على الديار ديار ليلى

أقبل ذا الجدار وذا الجدار

وما حب الديار شغفن قلبي

ولكن حب من سكن الديار

قال الراوي أنه كان في زمن خلافة عبد الملك بن مروان أميرٌ من أصحاب المناصب و المآثر يقال له الملوح بن مزاحم وكان من سادات بني هلال وله من الأولاد الذكور ثلاثة أنفار كأنهم البدور وكلهم بالأدب مذكورٌ و مشهور منهم قيس بن الملوح بن مزاحم وهو صاحب هذه السيرة وقد اشتهر بحسن السيرة و كان أصغر أخوانه عمراً و أعلاهم همةً و أرفعهم قدراً و أفصحهم كلاماً و أجودهم نظماً و نثراً و أعلمهم بالأدب و أخبار العرب و كان مع هذه الصفات جميل المنظر عالي الهمة فصيح الكلام طويل القوام كأنه البدر التمام حافظاً ذمام الاحتشام و قد نطق بالشعر وهو ابن سبعة أعوام و كان أعز أخوانه عند أبيه نظراً لأوصافه و حسن مساعيه و لأنه كان قد حاز جميع الصفات البديعة , و حبيبته هي ليلى بنت مهدي بن عصام الذي يصل نسبه إلى كعب بن ربيعة و كنيتها أم مالك لقوله:

تكاد بلاد الله يا أم مالك

بما رحبت يوماً علي تضيق

ومن أشعارها :

و أسرار المحبة ليس تخفى

وحبك في فؤادي لا يبين

و كيف يفوت هذا الناس شيئاً

وما في النفس تفضحه العيون

وبعد أن شاع خبر حب قيس بن الملوح لليلى العامرية فإن أهل قيس قد سافروا جميعاً و أتوا أبا ليلى و حدثوه بالقصة و أعلموه بما وقع في قلب قيس من القضية و سألوه المصاهرة و أقسموا بالله أن يعطيها إياه (أي استحلفوه بالله أن يزوج ليلى لقيس) و أخبروه بالحالة التي هو فيها و دفعوا له بمائة ناقةٍ براعيها فأبى و لم يقبل وقال : هذا داءٌ مشكل و أمر معضل ما فعله أحدٌ قبلي من العرب ولا أترك العرب تقول بأني زوجت ابنتي عشيقاً .

و كانت العرب تكره أن تزوج أحداً شاع ذكره بالعشق لامرأةٍ يحبها لأن الناس ستقول : ما زفت إليه إلا بعد أن فتك بها أي بعد أن فجر بها .

فلما بلغ قيساً ذلك المقال اشتد به الوجد و قال فيما قال :

هبي أنني أذنبت ذنباً علمته

ولا ذنب يا ليلى فصفحك أجمل

فإن شئت هاتي نار عيني خصومةً

و إن شئت حلماً إن حلمك أعدل

نهاري نهارٌ طال حتى مللته

وحزني إذا ما جنى الليل أطول

و كنت كذباح العصافير ذائباً

و عيناه من وجدٍ عليهن تهمل

فلا تنظري ليلى إلى العين و انظري

إلى الكف و ما بالعصافير تعمل

وقال أيضاً :

أظل بحزنٍ ما أبيت و حسرة

و أشرب كأساً فيه صابٌ و علقم

صريعٌ من الحب المبرح و الهوى

و أي فتىً من علة الحب يسلم

لعمرك ما لاقى جميل معمرٍ

كوجدي و لم يلق كوجد مسلم

صبا يوسف و استشعر الحب قبله

ولا كان داود من الحب يسلم

و بشرٌ و هندٌ ثم سعدٌ و عروةٌ

و ثوبة أضناها الهوى المتقسم

إذا هي زادت في النوى زاد الهوى

فلا قلبه يسلو ولا هي ترحم

وقال أيضاً :

فو الله ما أنساك ما هبت الصبا

و ما نعق الغربان في وضح الفجر

وما لاح نجمٌ في السماء و ما بكت

مطوقةٌ شوقاً على فنن خضر

و ما طلعت شمسٌ على كل شارقٍ

وما هطلت عين على واضح الفجر

وقال أيضاً :

لقد لامني في حب ليلى قرابتي

أبي و ابن عمي و ابن خالي و خاليا

أرى أهل ليلى لا يريدون بيعها

بشيءٍ ولا أهلي يريدونها ليا

فياعجباً فيمن يلوم على الهوى

فتىً دنفاً أمسى من الصبر عاريا

و هيهات أن أسلو من الوجد و الهوى

وهذا قميصي من جوى الحزن باليا

معذبتي لولاك ما كنت هائماً

أبيت سخين العين حيران باكياً

أدعو إلى هجرها قلبي فيتبعني

حتى إذا قلت هذا صادقٌ نزعا

لا يستطيع نزوعاً من مودتها

أو يصنع الوجد فيها غير ما صنعا

كم من وفيٍ لها قد كنت اتبعه

و لو صحا القلب عنها كان لي تبِعا

تزيدني كلفاً في الحب قد منعت

أحب شيءٍ إلى الإنسان ما منعا

و هاتفٌ من فنون الأيك أزعجني

بصوته في ظلام الليل حين دعا

كأن عينيه من حسن احمرارهما

فصان من حجر الياقوت قد قطعا

يدعو حمامته و الطير ما هجعت

و الله ما هجعت عينٌ وما هجعا

كأنه راهبٌ في رأس صومعةٍ

يتلو الزبور و نجم الصبح قد طلعا

أو قسٌ تلا مزماره سحراً

ما زال مذ كان طفلاً يسكن البيعا

فالحمد لله أبكاني و أضحكني

و الحمد لله شكراناً لقد صنعا

احفظ صديقك لا تقطع مودته

لا بارك الله فيمن خان أو قطعا

إن المنازل تبنى بعدما خربت

و ليس يوصل رأسٌ بعدما قطعا

إزرع جميلاً ولو في غير موضعه

فلا يضيعُ جميلٌ أينما زرعا

: قيس و ليلى و الحب العذري

تتوق إليك النفس ثم أردها

حياء و مثلي بالحياء خليق

قنعت بلحظٍ منك ليلى و إنما

ينال المنى من كان باللحظ يقنع

إذا نظرت نحوي تكلم طرفها

فجاوبها طرفي و نحن سكوت

فيا ليتنا نحيا جميعاً و إن نمت

تجاورني الهلكى عظامي عظامها

لقد أرسلت ليلى إلي رسولها ■

بأن آتها سراً إذا الليل أظلما

فبت و باتت لم نهم بريبةٍ

ولم نبتغ يا صاح و الله محرما

أحبك يا ليلى على غير ريبة ■

وما خير حبٍ لا تعف ضمائره

أصد حياءً أن يلج بي الهوى

وفيك المنى لولا عدوٌ أحاذره

□□□□□□□□□□□□□□□□□□

ألا يا صبا نجدٍ متى هجت من نجد ■

فقد زاد بي مسراك وجداً على وجدي

رعى الله من نجدٍ أناساً أحبهم

فلو نقضوا عهدي حفظت لهم ودي

سقى الله نجداً و المقيم بأرضها

سحابٌ غوادٍ خالياتٍ من الرعد

إذا هتفت ورقاء في رونق الضحى

على غصن بانٍ أو غصونٍ من الرند

بكيت كما يبكي الوليد ولم أكن

جلوداً و أبديت الذي ما به ابدي

إذا وعدت زاد الهوى بانتظارها

وإن بخلت بالوعد مت على الوعد

وقد زعموا أن المحب إذا دنا

يمل و أن ابعد يشفي من الوجد

بكلٍ تداوينا فلم يشف ما بنا

على أن قرب الدار خيرٌ من البعد

على أن قرب الدار ليس بنافعٍ

إذا كان من تهواه ليس بذي عهد

وقال :

رمتني يد الأيام عن قو محنةٍ

فلا العيش يصفو لي ولا الموت يقرب

كعصفورةٍ في كف طفلٍ يهينها

تقاسي عذاب الموت و الطفل يلعب

فلا الطفل ذو عقلٍ يرق لحالها

ولاهي مطلقة االجناح لتذهب

إلى الله أشكو فقد ليلى كما شكى ■

إلى الله فقد الوالدين يتيم

يتيمٌ جفاه الأقربون فعظمه

كسيرٌ وفقد الوالدين عظيم

فيا حبذا الأحياء مادمت بينهم ■

ويا حبذا الأموات إن ضمك القبر

أريد لأنسى ذكرها فكأنما

تهيج الصبا من حيث يستطلع الفجر

وإني لتعروني لذكراك هزةٌ

كما انتفض العصفور بلله القطر

و أما ما كان من ليلى فقد شاع ذكرها فتوافدت عليها الخطاب و كثرت عليها الطلاب ودخلوا على أبيها في ذلك من كل باب , وكان من جملتهم رجلٌ من بني ثقيف يقال له (سعد بن منيف) وكان أعظم من طلبها قدراً و أفخمهم ذكراً .

ألا يا طبيب الجن ويحك داوني ■

فإن طبيب الجن أعياه دائيا

أتيت طبيب الإنس شيخاً مداوياً

بمكة يعطي في الدواء الأمانيا

فخاض شراباً بارداً في زجاجةٍ

فطرح فيها سلوةً و سقانيا

فقلت و مرضى الناس يسعون حوله

أعوذ برب الناس منك مداويا

رمتني يد الأيام عن قوس محنةٍ ■

بسهمين في أعثار قلبٍ وفي نحر

أبيت صريع الحزن دامٍ من الهوى

و أصبح منزوع الفؤاد من الصدر

ألا زعمت ليلى أني لا أحبها ■

بلى و ليالي عشر و الشفع و الوتر

بلى والذي لايعلم الغيب غيره

بقدرته تجري السفائن في البحر

بلى و الذي نادى من الطور عبده

وعظم أيام الذبيحة و النحر

لقد فضلت ليلى على الناس مثلما

على ألف شهرٍ فضلت ليلة القدر

تداويت عن ليلى بليلى من الهوى

كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

إذا ذكرت يرتاح قلبي لذكرها

كما انتفض العصفور بلله القطر

هي البدر حسناً و النساء كواكبٌ

فشتان ما بين الكواكب و البدر

يقولون مجنونٌ يهيم بحبها

فوا الله ما بي من جنونٍ ولا سحر

أنيري مكان البدر إن أفل البدر ■

وقومي مقام الشمس ما استأخر الفجر

ففيك من الشمس المنيرة ضوؤها

وليس لها منك التبسم و الثغر

بلى لك نور الشمس و البدر كله

وليس لها منك الترائب و النحر

لك النظرة اللألاء و البدر طالعٌ

وما حملت عينيك شمسٌ ولا بدر

خليلي هلا تحضران فأرتجي ■

خليلاً إذا اجريت دمعي يبكي ليا

فلم أحسن الإيقاع إلا صبابةً

ولم أنشد الأشعار إلا تداويا

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما

يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

لحا الله أقواماً يقولون أننا

وجدنا طوال الليل للحب شافيا

وعهدي بليلى وهي ذاتٌ موصدٌ

ترد علينا بالعشي المواشيا

فشب بنوا ليلى و شب بنونها

و أعلاق ليلى في فؤادي كما هي

و خبرتماني أن تيماء منزلٌ ■

لليلى إذا ما الصيف ألقى الرواسيا

فهذي شهور الصيف عنا قد انقضت

فما للنوى يرمي بليلى المراميا

فلو كان واشٍ باليمامة داره

وداري بأعلى حضرموت أبانيا

وقد كنت أسلو حب ليلى فلم يزل

بي النقص و الإبرام حتى علانيا

فيا رب سوي الحب بيني و بينها

يكون كفافاً لا علي ولا ليا

فما طلع النجم الذي يهتدى به

ولا الصبح إلا هيجا ذكرها ليا

ولا سرت ميلاً من دمشق ولا بدا

سهيلٌ لأهل الشام إلا بدا ليا

ولا سميت عندي لها من سمية

من الناس إلا بل دمعي ردائيا

ولا هبت ريح الجنوب بأرضها

من الليل إلا بت للريح حانيا

فأشهد عند الله أني أحبها

فهذا لها عندي فما عندها ليا

وقد لامني اللوام فيها جهالةً

فليت الهوى باللائمين مكانيا

فما زادني الناهون إلا صبابةً

وما زادني الواشون إلا تماديا

قضى الله بالمعروف منها لغيرنا

وبالشوق مني و الغرام قضا ليا

وإن الذي أملت يا أم مالكٍ

أشاب فؤادي واستهام فؤاديا

أعد الليالي ليلةً بعد ليلةً

وقد عشت دهراً لا أعد اللياليا

و أخرج من بين البيوت لعلني

أحدث عنك النفس بالليل خاليا

تراني إذا صليت يمنت نحوها

بوجهي و إن كان المصلى ورائيا

أصلي فلا أدري إذا ما ذكرتها

إثنين صليت العشا أم ثمانيا

وما بي إشراكٌ ولكن حبها

وعظم الهوى أعيا الطبيب المداويا

أحب من الأسماء ما وافق اسمها

أو شبهه أو كان منه مدانيا

لقد عيل صبري و الغرام يقودني

وكثر اشتياقي لم يزل متعانيا

ولي زفرةٌ تعلو إذا ما ذكرتها

أحس على قلبي لهيب المكاويا

ولا صبر لي و النار حشو حشاشتي

وطوفان دمعي فوق خدي جاريا

تغربت عن أهلي و قومي و رفقتي

وسرت مع الغزلان في كل واديا

غريبٌ عن الأوطان ملقى على الثرى

أراعي نجوم الليل سهران باكيا

عدمت المنا و النوم و الصبر و الهنا

وفارقت ألفاً كان مني مدانيا

خليلي ليلى أكبر الحج و المنى

فمن لي بليلى أو فمن ذا لها بيا

يقولون ليلى أهل بيتي مريضةٌ

فيا ليتني كنت الطبيب المداويا

يقولون سوداء الجبين دمامةً

ولولا سواد المسك ما كان غاليا

و تحرم ليلى ثم تزعم أنني

سلوت ولا يخفى على الناس ما بيا

و تعرض ليلى عن كلامي كأنني

قتلت لليلى أخوةً و مواليا

خليلان لا نرجو لقاءً ولا نرى

خليلين إلا يطلبان التلاقيا

كأن دموع العين تسقي جفونها

غداة رأت أظعان ليلى غواديا

بي اليأس أو داء الهيام أصابني

فأياك عني لا يكن بك ما بيا

إذا ما استطال الدهر يا أم مالكٍ

فشأن المنايا القاضيات و شأنيا

فأنت التي إن شئت أشقيت عيشتي

و أنت التي إن شئت أنعمت باليا

و أنت التي ما من صديقٍ ولا عدا

يرى نصف ما أبقيت إلا رثا ليا

و إني لأستغشي وما بي نعسة

لعل خيالاً منك يرع خياليا

هي السحر إلا أن للسحر رقيةً

و إني لا ألقى لها من الدهر راقيا

إذا نحن أدلجنا و أنت أمامنا

فكيف المطايا نحو وجهك هاديا

ألا أيها الركب اليمانيون عرجوا

علينا فقد أمسى هوانا يمانيا

أيا رب إذا صبرت ليلى هي المنى

فزدني بعينيها كما زدتها ليا

على مثل ليلى يقتل المرء نفسه

و إن كنت من ليلى على النار طاويا

خليلي إن ضنوا بليلى فقربا

لي النعش و الأكفان و استغفرا ليا

■

متى نلتقي حتى أقول و تسمعا

فقد كاد حبل الوصل أن يتقطعا

بكت عيني اليمنى فلما زجرتها

عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معاً

و اذكر أيام الحمى ثم أنثني

على كبدي خشيةً أن يتقطعا

فليت عشيات الحمى برواجعٍ

إليك و لكن خل عينيك تدمعا

■

وبقي قيسٌ يهيم في السهول و الأوعار و ينشد لأشعار و يتقوت بنبات الأقفار و يقاسي المشقات و الأخطار.

قال الراوي ثم استدعت ليلى بغلامٍ من أهل الحي و كتبت إليه مع الغلام تقول:

ولاشك أن حياتي في هذه الدنيا صارت قصيرة ... وما بقي في الأمر إلا التسليم و الانقياد على ماقدر ... علينا رب العباد .

ثم أنها أمرت ذلك الشاب أن يسير في طلبه في البراري و الهضاب , وسار يقطع الروابي و القفار ولا زال يطلبه حتى التقى به في يومٍ شديد الحر وهو ينشد:

يقولون ليلى عذبتك بحبها

ألا حبذا ذاك المحب المعذب

فلو تلتقي في الموت روحي و روحها

و أن يجمع بيننا من الأرض منكب

لبات الصدى رمسي ولو كنت رمةً

لرمس صدى ليلى يهش و يطرب

ولو أن عيني طاوعتني و لم تزل

تزقزق دمعاً أو دماً حين تسكب

وقال أيضاً :

لقد أمحص الله الهوى لك صافياً

وركبه في القلب مني بلا غش

تبرأ من كل الجسوم و حل بي

فإن مت يوماً اطلبوه على نعشي

سل الليل عني هل أذوق رقاده

وهل لضلوعي مستقرٌ على فرش

■

ألا ليتنا كنا غزالين نرتعي

رياضاً إلى الجوزاء في بلدٍ قفر

ألا ليتنا كنا حمامي مفازةٍ

نطير و نأوي بالعشي إلى وكر

ألا ليتنا حوتان في البحر نرتمي

إذا نحن أمسينا نغور إلى القعر

ألا ليتنا نحيا جميعاً و ليتنا

نصير إذا متنا ضجيعين في قبر

■

ندمت على ما كان مني ندامةً

كما ندم المغبون حين يبيع

■

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى

فصادف قلباً خالياً فتمكنا

فلا يتمادى العهد إلا تجددت

مودتها عندي و إن زعمت ألا

■

إذا نظرت نحوي تكلم طرفها

فجاوبها طرفي و نحن سكوت

■

ثم ماتت ليلى المشؤومة عليه و المشتاقة إليه فقال على قبرها:

أيا قبر ليلى في فلاتك أعولت

عليك نساءٌ من فصيحٍ ومن عجم

وياقبر ليلى إن ليلى غريبةٌ

بأرضك لاخالٌ هناك ولا عم

ويا قبر ليلى غابت اليوم أمها

و خالتها و الحافظون لها الذمم

قال الراوي و كان يأوي إلى قبر ليلى بالليل و يدور في النهار وهو يرثيها بالأشعار حتى ضعفت قواه و اشتد بلاه.

ثم طلبناه في القفار و السهول و الأوعار طول ذلك النهار إلى أن هبطنا إلى وادٍ كثير الأحجار و إذا به ملقى ميتاً بين حجرين و كان قد خط عند رأسه هذين البيتين:

توسد أحجار اليمامة و القفر

ومات جريح القلب مندمل الصدر

فياليت هذا القلب يعشق مرةً

فيعلم ما يلقى المحب من الهجر

و تأسف أبو ليلى عليه و ندم على عدم زواجه بليلى غايةً الندم قال و الله لقد قابلته بالاستخفاف و عاملته بغير الحق و الإنصاف ثم تقدم إليه و ضمه إلى صدره و بكى عليه و بعد ذلك غسلوه و كفنوه و إلى جانب ليلى دفنوه.

انتهى...

تم بعون الله وحده

عالم الجن و الغيلان في الأدب العربي القديم

موجز مصارع العشاق

جعفر بن أحمد بن الحسين السراج القاري البغدادي، أبو محمد (المتوفى: 500هـ

موجز كنز الكتاب ومنتخب الآداب

أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الحسن الفهري المعروف بالبونسي (651هـ

موجز حسن المحاضرة في أخبار ملوك مصر و القاهرة للعلامة جلال الدين السيوطي

موجز مصارع العشاق

جعفر بن أحمد بن الحسين السراج القاري البغدادي، أبو محمد (المتوفى: 500هـ

د.عمار شرقية